حضرموت الثقافية

Hadhramaut AL-Thaqafiah Magazine - December - 2019 جمادى الأولى ١٤٤١هـ

مجلة فصلية - السنة الرابعة العدد (14)

مركز حضرموت للدراسات التاريخية والتوثيق والنشر

Hadhramaut Centre for Historical Studies
Documentation and Publication.

وثائق تاريخية من حضرموت

ضعف الدولة الكثيرية ونهايتها

الوالد علوي بن يحيى
وتأمُّلات في لهجة تريم

حوار مع المصوّرة
سوزان باعقيل

ملف العدد:

البحر في الموروث الحضرمي

الشاعر/ حسين عمر شيخان

١٩٢٩- ١٩٩٧م

محتويات العدد

حديث البداية

- **البحر.. البليغ المُشكِل** ..... رئيس التحرير 4

أضواء

- **وثائق تاريخية من حضرموت** ..... أ.د. عبدالله سعيد الجعيدي 10
- **السلام في حضرموت عبر الصحافة الحضرمية** ..... د. أحمد هادي باحارثة 21
- **ضعف الدولة الكثيرية ونهايتها.. الأسباب والنتائج** ..... يسلم صالح بن دهلوس.... 27
- **بُلْدَانُ وأَمَاكِنُ رِيْدَةِ الدِّيْن والسَّيطان المُجَاورَة لَها** ..... محسن علوي باعلوي.... 34

تراث

- **الوالد (علوي بن يحيى) وتأمُّلات في لهجة تريم** ..... د. محمد علوي بن يحيى 44
- **وثيقة تاريخية.. رؤساء رتب تريم ما بين سنة ١١٧٧هـ وسنة ١٢١١هـ** .... أحمد صالح الرباكي... 49

نقد

- **حداثة العاميّة في ديوان "بخيتة ومبخوت" للشاعر "س. س. الجريريّ"** ..... أ. د. عبدالله حسين البار 52
- **قراءة في انفصال شقّي التصوير واتصالهما، في ديوان (ربيع الهوى) لعبدالقادر الكاف**..زهير برك الهويمل.... 59

ملف العدد: البحر في الموروث الحضرمي

- **البحر في الأغاني والأهازيج البحرية الحضرمية** ..... د. عبدالباسط سعيد الغرابي.... 68
- **البحر وأحواله.. في مدونات ربابنة حضرموت** ..... محمد علوي باهارون ... 75
- **قصص غياب البحّارة في الموروث المشقاصي المحكي** ..... فائز محمد باعبّاد.... 80

ترجمة

- **أرضٌ بلا ظِلال** ..هانس هيلفريتس (Hans Hilfritz)..... د. خالد عوض بن مخاشن.... 86

مناقشة كتاب

- **الشحر ومهريتها.. مناقشة نقدية لما جاء في كتاب (تاريخ المهرة) للجدحي**.. عيضه حسن العامري... 92

حوار

- **حوار مع المصورة السعودية المحترفة ذات الأصول الحضرمية سوزان باعقيل**..... عبدالعزيز بامحسون... 100

كتابات

- **"وانتي قِدش ع تساعفي؟"** ..... د. سعيد الجريري 106
- **المكلا .. من طرائف شعرها الشعبي (دعوة الونشات في جمرك المكلا)**... أ.د. محمد بن هاوي باوزير... 108

إبداع

- **النخلة العجوز** (سرد) ..... مروة فرج الكلالي.... 110
- **نوافذ حضرمية على شجن في الطريق** (سرد) ..... صالح بحرق..... 112
- **أمجادٌ حضرمية** (قصيدة) ..... نادر سعد العُمَري 113

توقيع قلم

- **(أمّن الحضرمي على مالك ...)** ..... أ.د. عبدالله سعيد الجعيدي... 114

حضرموت الثقافية

مجلة فصلية

السنة الرابعة العدد (14)

أكتوبر - ديسمبر 2019م

تصدر عن مركز حضرموت

للدراسات التاريخية والتوثيق والنشر

رئيس مجلس الإدارة

الأستاذ محمد سالم بن علي جابر

المشرف العام

أ. د. عبدالله سعيد بن جسّار الجعيدي

رئيس التحرير

د. عبدالقادر علي باعيسى

سكرتير التحرير

أنور سالم باكركر

السكرتير الفني

حسن أحمد بلجعد

التدقيق اللغوي

د. جمال رمضان حديجان

الهيئة الاستشارية

أ.د. عبدالله حسين البار
أ. د. عبدالله صالح بابعير
أ. د. ناجي جعفر الكثيري
أ. د. مسعود سعيد عمشوش
أ.د. خالد يسلم بلخشر
د. حسن صالح الغلام العمودي
د. طه حسين الحضرمي
د. أحمد سعيد عبيدون
د. صادق عمر مكنون

التنفيذ الطباعي

مطابع وحدين الحديثة للأوفست - المكلا

- المواضيع المنشورة تعبّر عن آراء أصحابها ولا تعبّر بالضرورة عن رأي المجلة.
- ترتيب المواد جاء وفق ضرورات فنّية إخراجية.
- المجلة غير ملزمة بإعادة أي مادة تتسلمها للنشر، سواء نُشرت أم لم تُنشر. ولا تلتزم بنشر المقالات المرسلة إليها بخط اليد.

مراسلات المجلة

hc.magazine16@gmail.com

Baaesa-١@hotmail.com

موقعنا على الشبكة الإلكترونية

www.hadramout.center

العنوان: المكلا - حي الشهيد - (معهد باشريف سابقًا) - ت. ٢٥٠١٢٥

العدد (14)
أكتوبر
ديسمبر
2019م

البحر.. البليغ المُشْكِل

د. عبدالقادر علي باعيسى
رئيس التحرير

مع أن البحر منفتح على الفراغ المطلق فإنه يمنح النفوس الطمأنينة وهي تحمل إلى فضاءاته جوعها الصامت إلى الحبيب والمال والسفر والعلو. إنه أحد مقامات الامتلاء في واقعنا الاجتماعي قلما التفتنا إليه، يشرف بنا على أنفسنا حين نتأمل فيه، فنذهب إليه، ونذهب منه إلى أنفسنا، وكتلته المائية المتموجة تجعلنا أكثر تماسكًا روحيًا ونفسيًا وثقافيًا، فالعلاقة بيننا وبينه لا تخفى، سواء كانت علاقة فنية مجردة، أو علاقة علمية، أو علاقة حسية مباشرة، أو حتى علاقة ترفيه عابر. هو ثابت فينا ثبوت المتداول اليومي للغتنا، وأكلاتنا الشعبية السمكية، وإيقاعات حياتنا. ينبض بالحيوية والصرامة، ويتصاعد فينا مواويل وحكايات تصلنا بالأفلاك والنجوم والشمس والقمر حيث يتصل بها، فتنبثق عنه وعنا أحوال غريبة ومفاجئة أحيانا من

العدد (14)
أكتوبر
ديسمبر
2019م

الوجد والرقــة، وهو أفق معرفي ترد عبره الثقــافات، لذلك هو أكثر تجددا وأكثر تراثية أيضا، يولد في من أحبوه أخلاقا إنسـانية نادرة. فالبحـر إنسـاني جدا.. عدو للمجاعات والمجاملات، يمنح البـطولة، ويثبـت التميز، ويبسـط ثوبــه كل يوم لتعبر عليه قوارب الفقراء المليئة بالتعب، يملأ نفوسنا بروح المغامرة، أو قـل روح التوحد معه، وكم استجاب لإحساسنا الجماعي، وبأي عمق كان.

البحر بليغ مشكل أدبًا وفكرًا وتأملاً، وأعدل ما يكون مزاج البحـر هو أن تبـالغ فيه، بأي شيء شـئت، بقـوتك، بإبـداعك، بـخبرتك.. فالكتابـة والتعامل معه لا ينتهي إلا ليبدأ من جديد كأمواجه. لكنه قـد يرمي بـكل العواطف والأحاسـيس الإنسـانية التي قـيلت فيه، وبـكل قـصائد الشــعراء، وخبرات أمهر الملاحــين، فحضوره بخيره وشره شيء فريد ووحـيد، وخطره كامن تحت طواعيته، ننوه بـه، ونخشى من ملابساته ومفاجآته.

من هذا المنطلق خصصنا له حــيزًا في هذا العدد، وسنبــدأ من العدد القــادم (الخامس عشر) في بـث استرسـالات عنه من أحــد أبــرز عشاقــه في ساحــل حضرموت، ابن روكب الوضيئة الأستاذ عمر خميس بامتيرف، فانتظرونا والبحر.

نائب رئيس مجلس الوزراء

يزور مركز حضرموت للدراسات التاريخية والتوثيق والنشر

إعلام المركز:

استقبلت إدارات مركز حضرموت للدراسات التاريخية والتوثيق والنشر صباح اليوم الخميس الموافق ٥/ ١٢/ ٢٠١٩م، الأستاذ/ سالم أحمد الخنبشي نائب رئيس مجلس الوزراء يرافقه رجل الأعمال الشيخ عبدالله عمر بن دول المعاري والدكتور عبود محمد العبل المعاري رئيس جامعة العرب، حيث كان في استقبالهم أ.د. عبدالله سعيد الجعيدي المدير العام للمركز والأستاذ الدكتور خالد يسلم بلخشر نائب المدير مدير إدارة العلاقات العامة والترجمة، وعدد من مديري الدوائر بالمركز ورؤساء اللجان العلمية بالموسوعة الحضرمية والموظفين.

في بداية اللقاء رحب الدكتور الجعيدي بالضيوف ترحيبًا حارًا معربًا عن سعادته وسعادة العاملين بالمركز بهذه الزيارة، واستعرض لهم نشاط المركز منذ تأسيسه وتطوره وصولاً به إلى مشروع الموسوعة الحضرمية، موضحاً لهم حاجة المركز إلى دعم الحكومة وكل الخيرين من أبناء الوطن في الداخل والخارج.

ومن جانبه عبّر الأستاذ سالم الخنبشي نائب رئيس مجلس الوزراء عن سعادته بزيارة المركز مشيرًا إلى أنه يتابع باهتمام نشاطاته وفعالياته مقدراً الدور التنويري والثقافي الذي يقوم به.

كما عبّر رجل الأعمال الشيخ عبدالله بن عمر بن دول المعاري عن سعادته بزيارة المركز الذي أصبح يمثل واجهة حضرموت الثقافية والتاريخية مشيداً بجهود القائمين عليه متمنيًا لهم التوفيق والنجاح في مهامهم، وأعرب عن استعداده لتقديم الدعم لنشاطات المركز عامة.

ومن جانبه أثنى الدكتور عبود محمد العبل المعاري رئيس جامعة العرب على دور المركز ونشاطه البحثي والعلمي المتعدد الجوانب وما يصدر عنه من إصدارات متنوعة.

وفي ختام الزيارة قدّم المدير العام الدكتور الجعيدي هدية رمزية للضيوف تمثلت في عدد من المؤلفات الصادرة عن المركز، كما اصطحبهم في ختام الزيارة في جولة للتعرف على مكاتب إدارات المركز، ورؤساء اللجان العلمية بالموسوعة الحضرمية.

اللجنة العلمية بالمركز تعقد اجتماعها الدوري

إعلام المركز

عقدت اللجنة العلمية بمركز حضرموت للدراسات التاريخية والتوثيق والنشر اجتماعها الدوري مساء الأحد ٢٠/ ١٠/ ٢٠١٩م برئاسة مدير المركز أ. د. عبدالله سعيد الجعيدي ناقشت فيه ما بقي من بنود خطتها للفصل الرابع من عام ٢٠١٩م، وأبرز اتجاهات الخطة القادمة للعام ٢٠٢٠م وأقرت إجازة بعض الكتب العلمية للنشر واضعة في حسبانها الاهتمام بإصدار نمط آخر من الكتب عن المركز بحجم متوسط، فضلًا عما يتعلق بالموسوعة الحضرمية، والمؤتمر العلمي الرابع للمركز المقرر انعقاده في النصف الثاني من شهر ديسمبر القادم بعنوان (التاريخ والمؤرخون الحضارم في القرن الثالث عشر الهجري - الثامن عشر والتاسع عشر الميلادي)، مشددة على أهمية حضور دور المركز العلمي في الوسط الثقافي الحضرمي والدفع بعجلة التطور فيه خطوات متقدمة إلى الأمام.

مركز حضرموت ينظّم محاضرة عن الشاعر بامهدي

إعلام المركز

نظم مركز حضرموت للدراسات التاريخية والتوثيق والنشر بالتنسيق مع مؤسسة الأمل التنموية ببروم مساء الأربعاء ٣٠/ ١٠/ ٢٠١٩م بقاعة الفقيد هاني الباص بمقر المؤسسة بمدينة بروم محاضرة عن الشاعر علي سالم بامهدي أسهم فيها د. عبدالقادر علي باعيسى بورقة بعنوان (التاريخ والشعر- قصيدة الهجرة النبوية لبامهدي نموذجًا) والأستاذ طارق سالم الموسطي بورقة بعنوان (بامهدي: سيرة ذاتية ونصوص) حيث أشار د. باعيسى في ورقته إلى ما يتمتع به بامهدي من نفس ملحمي في كتابة قصيدة الهجرة النبوية وما تمتاز به من مزايا فنية وتعبيرية رابطا بين وقائع السيرة الشريفة والتاريخ وكيف تم المزج بينهما داخل القصيدة، فيما تطرق الأستاذ الموسطي إلى تلاوة نصوص مختارة من أشعار بامهدي شارحا لها ومستعرضا مراحل من سيرته الذاتية.

حضر الفعالية أ.د. عبدالله سعيد الجعيدي مدير مركز حضرموت للدراسات التاريخية والتوثيق والنشر والأستاذ عبدالله بازرعة المدير التنفيذي لمؤسسة الأمل التنموية ببروم وجمع كبير من الأساتذة والمهتمين.

وتأتي هذه المحاضرة في إطار التعاون المتجدد بين الطرفين في إطار تنمية الثقافة في حضرموت والتعريف بأعلامها حيث يعد الشاعر علي سالم بامهدي علمًا حضرميًا بارزًا في مجال الشعر الشعبي في مختلف فنونه.

تلت المحاضرة عدد من النقاشات والردود عليها. قدم الفعالية د. حسن صالح الغلام مدير إدارة البحوث والدراسات بالمركز.

إدارة الموسوعة الحضرمية تعقد اجتماعها الدوري

إعلام المركز

عقدت إدارة الموسوعة الحضرمية التابعة لمركز حضرموت للدراسات التاريخية والتوثيق والنشر مساء السبت ١٦/١١/٢٠١٩م اجتماعا دوريا برئاسة أ.د. عبدالله سعيد الجعيدي مدير المركز ناقشت فيه التقارير المرفوعة من رؤساء اللجان المتعلقة بالمهام الموكلة إليهم في إطار الاستعدادات الحثيثة للبدء بمشروع الموسوعة ، وأكد المدير العام على أن تتركز نشاطات المركز القادمة بما يخدم مشروع الموسوعة الحضرمية، هذا المشروع الكبير الذي يحتاج إلى حشد الهمم والتعاون العلمي واللوجستي من كل المهتمين والداعمين لإنجاحه، فضلا عن الأبحاث والكتابات التي تنشر في مجلة (حضرموت الثقافية) الصادرة عن المركز بما يغني مشروع الموسوعة الحضرمية بصورة أساسية.

مدير مركز تريم للدراسات في زيارة لمركز حضرموت

إعلام المركز

في إطار التعاون المستدام بين مركز حضرموت للدراسات التاريخية والتوثيق والنشر ومركز تريم للدراسات والنشر قام الأستاذ عبدالرحمن علي بلفقيه مدير مركز تريم للدراسات والنشر مساء الأحد ١٠ نوفمبر ٢٠١٩م بزيارة إلى المركز حيث كان أ.د. عبدالله سعيد الجعيدي مدير المركز في استقباله بمكتبه، وجرى خلال اللقاء تطارح عام للمشاريع الثقافية المستقبلية التي يمكن أن يسهم بها الطرفان، على أن يقوم المركز عمليا بعقد ندوته القادمة خارج مدينة المكلا في تريم عن (وسائل الضبط والتنظيم الاجتماعي الحضري في المجتمع الحضرمي) كالحوط، ونظام الحويف، والمنصبة.. إلخ، الجدير بالذكر أن المركز قد عقد ندوة مماثلة في مدينة شبام بنهاية العام ٢٠١٨م عن (المظاهر الحضارية العسكرية التقليدية في حضرموت) وأن يسهم الأخوة في مركز تريم للدراسات والنشر بالكتابة في مجلة (حضرموت الثقافية) لاسيما في مجال الدور التنويري الذي أدته كثير من الشخصيات الحضرمية في التاريخ الحديث.

حضر اللقاء د. عبدالقادر علي باعيسى مدير إدارة الإعلام والثقافة بالمركز و د. محمد يسلم عبدالنور مدير لجنة الأعلام بالموسوعة الحضرمية.

إهداء عدد من الكتب النوعية لمكتبة المركز

إعلام المركز

أهدى الأستاذ عبدالاله محمد هاشم الشخصية الاجتماعية والتربوية المعروفة وعضو المجلس الاستشاري لمركز حضرموت للدراسات التاريخية والتوثيق والنشر من مكتبة جده الشيخ عبدالله أحمد الناخبي إلى مكتبة المركز مساء الأربعاء ٢٧/١١/٢٠١٩م مجموعة من الكتب التاريخية النوعية القيمة. وقد أبدى أ. د. عبدالله سعيد الجعيدي سعادته بهذا الإهداء مثمنا قيمته الرمزية الدالة على حسن تفاعل أعيان المجتمع مع مركز حضرموت للدراسات التاريخية والتوثيق والنشر واعترافا كريما منهم بإسهاماته ونشاطاته العلمية والثقافية، مترحما على روح الشيخ الناخبي الذي خدم حضرموت في حياته خدمة جليلة.

مدير مركز حضرموت يزور المعرض العسكري الأول

زار أ.د عبدالله سعيد الجعيدي مدير مركز حضرموت للدراسات التاريخية والنشر صباح يوم الخميس الموافق ٥/ ١٢/ ٢٠١٩م المعرض العسكري الأول التي تنظمه شعبة التوجيه المعنوي بالتنسيق مع قاعة حضرموت الدائمة لمعارض الصور الفوتوغرافية والفنون التشكيلة بالمكلا.

وطاف الجعيدي بين أجنحة المعرض العسكري الذي يحتوي على ٥٠٠ صورة عسكرية توثق انتصارات أبطال النخبة الحضرمية في كسر حاجز الإرهاب، مما أسهم في إنتاج الاستقرار الأمني في ساحل حضرموت.

كما اطلع الجعيدي على نشاطات قاعة حضرموت الدائمة لمعارض الصور الفوتوغرافية والفنون التشكيلية، وما تقدمة القاعة من جهود جبارة في إبراز الصورة التاريخية الحضرمية، وتوثيقها والحفاظ على هذا الموروث الحضاري الثقافي والتاريخي لمحافظة حضرموت.

وأعرب الجعيدي عن سعادته بإقامة مثل هذا المعرض العسكري الأول على محافظة حضرموت والفريد من نوعه بتنوع الأجنحة العسكرية وتوثيق الصور التاريخية لمحافظة حضرموت في العصور القديمة.

واستمع الجعيدي إلى شرح مبسط من قبل الأستاذ خالد مبارك بن عاقلة مدير قاعة حضرموت الدائمة لمعارض الصور الفوتوغرافية والفنون التشكيلية حول ما تسعى القاعة إلى تحقيقه في إقامة المعارض والتوعوية والتاريخية والثقافية بإشراك كافة القطاعات ومنظمات المجتمع المدني.

يأتي ذلك المعرض ضمن احتفالات بلادنا بالأعياد والمناسبات الوطنية ١٤ أكتوبر والذكرى الـ (٥٢) (٣٠) نوفمبر يوم الجلاء، التي تم فيها دحر الاستعمار البريطاني ١٩٦٧م.

الشاعر خالد محمد عبدالعزيز يزور مركز حضرموت

إعلام المركز

قام الشاعر الكبير الأستاذ خالد محمد عبدالعزيز بزيارة ودية تعرفية إلى مركز حضرموت للدراسات التاريخية والتوثيق والنشر الأربعاء ٢٧/ ١١/ ٢٠١٩م حيث كان في استقباله أ. د. عبدالله سعيد الجعيدي مدير المركز وعدد من مديري الإدارات ورؤساء اللجان العاملة بالموسوعة الحضرمية. وقد أبدى الأستاذ خالد سعادته بهذه الزيارة وتعرفه على عدد من الأساتذة العاملين بالمركز الذين لم تتح له الفرصة للتعرف عليهم من قبل، مشيرا إلى أن المركز يقوم بعمل علمي ممتاز (نخبوي) على حد تعبيره مادام يعتمد على هذه النخبة الأكاديمية المثقفة، داعيا إلى توسيع نشاط المركز وعمله، وأن الذي دعاه إلى القيام بهذه الزيارة ما يحظى به المركز من سمعة طيبة في أوساط المجتمع من خلال إصداراته من الكتب ومجلة (حضرموت الثقافية) وما يعقده من مؤتمرات علمية وندوات وغير ذلك، وطاف في آخر زيارته بأروقة المركز ومكاتبه.

رافقه في زيارته د. أحمد هادي باحارثة.

10
العدد (14)
أكتوبر
ديسمبر
2019م

وثائق تاريخية من حضرموت

(دراسة وتعليق)

إن الوثائق مثل النجوم
تستمد ضياءها من
ذاتها، لكنها لا تبخل
بنورها على من اقترب
منها، وحاول استنطاقها

أ.د. عبدالله سعيد الجعيدي

موضوع الوثائق

تسجل هذه الوثائق صفحة مفصلية من تاريخ حضرموت المعاصر، وبخاصة اللحظات الأولى لظهور سلطة جديدة على أنقاض حكم سلطنتي حضرموت القعيطية والكثيرية، وعرفت هذه السلطة في الأدبيات التاريخية (باللجنة الشعبية العليا) بوصفها جزءًا لا يتجزأ من (الجبهة القومية لتحرير جنوب اليمن المحتل)، وقد امتد حكم هذه اللجنة (٧٤) يومًا بدأ من ١٧ سبتمبر١٩٦٧م إلى ٣٠ نوفمبر ١٩٦٧م، هو تاريخ إعلان استقلال الجنوب، وصارت حضرموت بموجب ذلك محافظة من محافظات (جمهورية اليمن الجنوبية الشعبية)، وحظيت باعتراف دولي وعربي، وخلال مدة حكم (اللجنة الشعبية العليا) ظل أمر حضرموت معلقًا من حيث غياب الهوية الرسمية العربية والدولية لها، وقبل ذلك كله كانت الشؤون الخارجية للسلطنتين تحت الإشراف البريطاني بموجب معاهدات الحماية التي أبرمتها مع السلطات البريطانية في عدن، لهذا لم يكن للسلطنتين هوية رسمية مستقلة في المحافل العربية والدولية إلى أن اختفت من الخارطة السياسية، وعلى هذا الحال ترحّل الوضع في مدة حكم (اللجنة الشعبية العليا) كما سبقت الإشارة.

وقد يبرز هنا تساؤل مشروع وهو لماذا لم يمسك (الثوّار) الحضارمة بزمام الأمور ويعلنون حضرموت جمهورية مستقلة؟ وفي رأينا هناك اعتبارات تجعل من فكرة إعلان الاستقلال الحضرمي ضعيفة للغاية، منها أن حكام حضرموت الجدد يمثلون نبتة متدفقة من فكرة العروبة التي تدحرجت ككرة الثلج من جمهورية مصر العربية (الناصرية)، وترسخت في عقول ذلك الجيل على صعيد الوطن العربي، ثم إنهم -أي حكام حضرموت- من الناحية التنظيمية ينضوون ضمن تنظيم (الجبهة القومية لتحرير جنوب اليمن المحتل)، وبهذا كانوا ينظرون إلى المسألة الوطنية أو القطرية بوصفها نوعًا من الخيانة للمشروع العربي (الحلم). بمعنى آخر كانت عندهم فكرة الوحدة العربية متقدمة على فكرة الدولة المحلية أو الوطنية. إضافة إلى ذلك فإن حكام حضرموت الجدد على الرغم من مصدر تماسكهم فكرة وحدة الجنوب على طريق فكرة الوحدة القومية العربية -كما ذكرنا- فإنهم في داخلهم لا يمثلون كتلة منسجمة في ذاتها بحيث تستطيع تشكيل مواقف سياسية مشتركة، أو تتخذ قرارًا استراتيجيًا مغايرًا.

وكما دونت هذه الوثائق الإجراءات المبكرة للحكم الثوري الجديد في الأيام الأربعة الأولى لوصول (الثوّار) لسدة الحكم، فإنها سجلت آخر فصول السلطنة القعيطية وانهيار أركانها، وهذا يجعلنا نضع السؤال الآتي: هل نحن أمام فعل ثوري يستدعي بالضرورة إطلاق لفظة (التحرير) ذات الدلالة الواسعة أم لفظة (السقوط) التي تحيل عادة إلى أحداث دراماتيكية أو هو انقلاب أو تسليم (اضطراري) لرموز النظام السابق لصالح الجديد؟ هذه التساؤلات والخوض في تفاصيلها ستجرنا إلى موضوعات خارج سياق هذه الوثائق، لكنها مهمة لتحديد المصطلحات بدقة وضبطها دون الانجرار لمصطلحات ذلك العصر المشحونة بالانفعالات، ومع هذا قد نلجأ في هذه الدراسة

لاستخدام مفردات تلك المرحلة كلما اقتضت الضرورة؛ بوصفها مفردات ترسخت في الكتابات الأدبية، والصحفية، والثقافة الشعبية المعاصرة لها، واللاحقة.

وتأمَلُ هذه الدراسة قدر المستطاع تجاوز طريقة التوثيق (المتَّحَفِي) لتلك الوثائق إلى محاولة القراءة التاريخية المنهجية. ربما سيقول قائل إن زمن الوثائق حتى تاريخه (نوفمبر ٢٠١٩م) اثنان وخمسون عامًا، وهي مرحلة من الناحية النظرية مثالية للدراسات التاريخية، لكن الصعوبة تكمن في تداخلها بشكل أو بآخر مع اللحظة الراهنة، فمعظم شخوص تلك المرحلة البارزين ما يزالون على قيد الحياة، بل بعضهم له تأثير محدود في مجريات الواقع الراهن، من هؤلاء: السلطان غالب بن عوض القعيطي – (المناضلون) علي سالم البيض – حيدر أبوبكر العطاس - خالد محمد عبدالعزيز – خالد أبوبكر باراس - سعيد العكبري – أحمد مبارك بلعفير - عبدالرحيم عتيق، وآخرون، وفي اعتقادنا أن الحضور (البيلوجي) لهذه الرموز لا يمنع القراءات التاريخية لتلك المرحلة، ولا سيما عند دراسة وثائقها وتحقيقها ونشرها من داخل هذه الوثائق وليس من خارجها.

منهج النشر:

وثائق هذه الدراسة عبارة عن نسخ أصلية مصورة بالماسح الضوئي (السكنر) من الأرشيف الإداري لـ(جمهورية اليمن الجنوبية الشعبية) في مدة حكم (اللجنة الشعبية العليا) المنبثقة عن (الجبهة القومية لتحرير جنوب اليمن المحتل)، وقد حصل عليها (مركز حضرموت للدراسات التاريخية والتوثيق والنشر) مع وثائق أخرى هدية من الدكتور عادل صالح اليماني، ويبدو من خلال تسلسل أرقامها باللون الأحمر كانت محفوظة مع وثائق أخرى في ملف واحد، ومن تاريخ صدورها والموضوعات التي تناولتها نستنتج أنها من أقدم الوثائق التي تعود لتلك المرحلة، وقد تم اختيار هذه الوثائق في هذه الدراسة لوحدتها الموضوعية والزمنية.

ولتيسير قراءة الوثائق قمنا بإعادة كتابة نصوصها إلى جانب نشر أصول الوثائق، وقد أفردنا لكل وثيقة تعليقًا خاصًا بينّا فيه ظاهر الوثيقة ومضمونها، مع الربط بين موضوعات الوثائق والمقاربة بينها؛ ليتسنى وضعها في سياقها التاريخي كلما اقتضت الضرورة. وحرصنا على دراسة الوثائق من داخلها، وتجنبنا الخوض في تفاصيل التاريخ إلّا بالقدر الذي يوضح مضمون الوثائق، وبعض مفرداتها.

(نص الوثيقة الأولى)

المكلا

بتاريخ ١٢ جماد ثاني ١٣٨٧هـ

موافق ١٧ سبتمبر ١٩٦٧م

المكرم قائم الدولة بلغيل وشحير المحترمين

بعد التحية..

أفيدكم بأن الجبهة القومية قد استلمت السلطة صباح هذا اليوم بتعاون وتأييد القوات المسلحة والشعب. والحالة عندنا هادئة ولم تطلق حبة رصاص. الوفد الذي يحمل هذه الرسالة سينقل لكم التفاصيل. اللجنة الشعبية المنبثقة عن الجبهة القومية هي الآن المسؤلة عن الوضع عليكم الاتصال بها في أي شيء تريدونه.

اعتمدوا الرسالة الموجهة من الجبهة القومية باعتبارها السلطة الشرعية للبلاد عليكم التعاون مع ضباط اللواء وشباب الجبهة القومية بخصوص رفع الأعلام وتوزيع البيانات وحفظ الأمن وشرح الموقف للمواطنين

توقيع

السكرتير الإداري

- نسخة لنائب لواء المكلا
- نسخة لنائب لواء الشحر
- نسخة لنائب لواء حجر
- نسخة لنائب لواء شبام
- نسخة لنائب لواء دوعن
- نسخة لنائب اللواء الغربي

التعليق:

تُعبّر هذه الوثيقة عن آخر خطوط الارتباط بين السلطنة القعيطية المتداعية، وحكم (اللجنة الشعبية العليا) المتصاعد، لهذا نلاحظ من الناحية الشكلية حيادية ترويسة الخطاب، فقد استبعدت عن عمد الإشارة إلى الهوية الرسمية التي عادة ما يكتب على رأس كل خطاب (الدولة القعيطية الحضرمية)، أو (سلطان المكلا والشحر)، أو (دار المستشارية)، أو أي جهة رسمية، كما لم يحمل الخطاب مسمى اللجان الشعبية، أو الجبهة القومية، واكتفت بتحديد المكان (المكلا)، ومما يعطيها الصفة الاعتبارية توقيع السكرتير الإداري للسلطنة، فهو هنا مارس دورًا مزدوجًا حددته مشاورات أعضاء الجبهة القومية مع لجنة الطوارئ التي شكلها السلطان غالب القعيطي لإدارة السلطنة في أثناء سفره إلى جنيف، وعندما تم الاتفاق بين لجنة الطوارئ ورجال الجبهة القومية على تسليم الحكم وتسلُّمه اتفق على احتفاظ السكرتير الإداري بمنصبه مؤقتًا لتصريف الأعمال، وليكون حلقة الربط في إدارة عملية تسليم السلطة للحكام الجدد.

وتوضح الوثيقة من خلال نقاطها المحددة سلاسة انتقال الحكم من يد نواب السلطنة القعيطية وقوامها في المقاطعات إلى اللجنة الشعبية، ونلحظ هذا الانتقال من ذيل الوثيقة التي ورد فيها الجهات المرسلة لها نسخ من هذا الخطاب إلى نواب ألوية السلطنة القعيطية، وقد ترك اسم اللواء أو المقاطعة فارغًا في رأس الوثيقة، وكتب بخط اليد -كما هو موضح في أصل الوثيقة- اختصارًا للجهد، فقد طبعت بآلات الطباعة التقليدية المعروفة وقتئذ. لكن الجدير بالإشارة توقيت الخطاب وتزامنه مع لحظة إجبار السلطان غالب بن عوض القعيطي على مغادرة السفينة التي أقلته من جدة إلى المكلا، وهي لحظة فارقة في تاريخ حضرموت المعاصر، ويلاحظ في الخطاب أنه حمل توقيع السكرتير الإداري للسلطنة (عيسى مسلم بلعلا)، فهل كتب الخطاب قبيل وصول سفينة السلطان أم بعد مغادرة السفينة وحسم أمر السلطان والسلطنة؟ وعلى أهمية التوثيق التاريخي لهذا اليوم الحافل بساعات نهاره ومسائه، فإن برقية إشعار الوصول غير المتوقعة التي أرسلها السلطان لاستقباله مع ضيوفه في وقت قد حسم أمر التسليم والاستلام للسلطة والتحركات المتسارعة لمنع دخول السلطان المكلا تجعلنا نظن أن الخطاب كُتب ضمن خطة استلام الحكم التي كانت تسابق الزمن.

وتعطينا هذه الوثيقة إشارة في غاية الأهمية تحسب لصالح مرونة الحكام الجدد، فالخطاب جعل من كبار رجال السلطنة هم الذين يمهدون الطريق لعملية التسلُّم الآمن للسلطة في المقاطعات، بعد أن حسم في العاصمة المكلا. وصيغ الخطاب بلغة دبلوماسية فهو لم يشر إلى عزل النواب والقوام بشكل مباشر ربما لأن هذا ليس من اختصاص السكرتير الإداري المحسوب على السلطنة لكنه يؤكد بهذه الصفة على شرعية اللجان الشعبية العليا، ويطلب منهم تمكينها، بمعنى آخر الخطاب يشير ضمنًا إلى نهاية شرعية النواب، وأنه بقي عليهم -ربما هذه آخر مهمة رسمية لهم- استقبال رجال الحكم الجديد، وتسليمهم مقاليد الأمور، وشرح الوضع للمواطنين - حسب نص الخطاب- ثم انتظار مصيرهم المتوقع.

وقد حمل الخطاب إشارات تطمينية، وصيغ بعناية تتسق مع الانتقال السلمي للسلطة، ويمكن ملاحظة ذلك من خلال العبارات الآتية:

- الجبهة القومية استلمت السلطة بتعاون وتأييد القوات المسلحة والشعب.
- الحالة في العاصمة (المكلا) هادئة.
- لم تطلق حبة رصاص واحدة.
- بقية التفاصيل مع الوفد حامل الرسالة.

والإشارات أعلاه تدل على أن صوت العقل هو الذي ساد عملية انتقال السلطة لا سيما في اليوم الأول من حكم اللجان الشعبية، وهذه التطمينات كانت ضرورية للحكام الجدد، وللنواب معًا. بالنسبة للحكام الجدد وحتى لو كانوا يضمرون نوايا غير إيجابية فإن استلام السلطة تمثل أولوية عندهم، أما نواب الألوية والقوام فهم بحاجة أكثر إلى كلمات الأمان؛ لأنهم في تصنيف (الثوار) من القوى الرجعية وعملاء للحكم الإنجلوسلاطيني، وهو تصنيف أقرب ما يكون إلى التهمة التي تستدعي المحاكمة والمساءلة، وتشير الوثيقة إلى خطاب آخر مواز من الجبهة القومية موجه مباشرة إلى النواب والقوام يؤكدون فيه شرعيتهم، وهو ما سوف نتناوله في الوثيقة الثانية من هذه الدراسة.

وتسمح لنا هذه الوثيقة أن نتخيل مفارقات المشهد السياسي في صباح يوم السابع عشر من سبتمبر ١٩٦٧م، فبينما كانت سفينة السلاطين تشق عباب البحار والمحيطات بعيدًا عن السواحل الحضرمية وقد زادت حمولتها بالهموم الذي أثقلت كاهل ركابها من

السلاطين لفراق الأوطان وضياع الجاه والسلطان، وعشرات التساؤلات التي لن تجد إجابات، كان شباب الجبهة القومية يغادرون سواحل المكلا ويشقون الشعاب والوديان في طريقهم لفتح المدن والبلدات بخطاب من تسعة أسطر، وبهذا فنحن أمام يوم من أيام التاريخ الحضرمي المعاصر في نهاره شرقت شمس على قوم، وغابت على آخرين في قصة من التاريخ بدأت في بدايات ذلك اليوم لكنها لم تنته.

(نص الوثيقة الثانية)

الجبهة القومية لتحرير جنوب اليمن المحتل

الرقم ج ق/ ل س ع / ١٠/ ١٥

حضرموت التاريخ ١٦ جماد ثان ١٣٨٧هـ

اللجنة الشعبية العليا الموافق ٢٠ سبتمبر ١٩٦٧م

المكرم قائم الدولة بالغيل وشحير المحترم

تحية...

نفيدكم أن الجبهة القومية لتحرير جنوب اليمن المحتل قد استلمت السلطة يوم ١٧/ ٩/ ٦٧م وقد أيدتها القوات المسلحة الوطنية وجماهير الشعب وأصبحت اللجنة الشعبية المنبثقة عن الجبهة القومية هي السلطة الشرعية وعليكم الاتصال بها في أي شيء وعليكم التعاون مع شباب الجبهة القومية في المنطقة حول رفع الأعلام وتوزيع البيانات وتوعية الناس عن الوضع الجديد وحفظ الأمن والنظام وسيقوم حامل الرسالة بتعريفكم عن الأشخاص الذين يمثلون الجبهة القومية في المنطقة. أخبارنا هادئة. وكلنا أمل أن يسود الهدوء بقية أنحاء البلد. تعاونوا مع شباب الجبهة القومية لاستتباب الأمن وعدم السماح بأي عمل تخريبي وكونوا على اتصال بالمكلا في حالة حدوث أي شيء وشكرا

الجبهة القومية لتحرير جنوب اليمن المحتل –

حضرموت ختم

التعليق:

تضعنا هذه الوثيقة في حيرة تاريخية وبخاصة إذا قورنت مع الوثيقة الأولى من هذه الدراسة، فمحتوى الخطابين متقارب، فهل وصل الخطاب الموجه من السكرتير الإداري (عيسى مسلم بلعلا) إلى النواب والقوام؟ أم آثر الحكام الجدد إعادة توجيهه لتحديد جهته الاعتبارية الثورية بعد أن كان الخطاب الأول لا يحمل أي إشارة رسمية عدا توقيع السكرتير الإداري، وحمل في طياته إشارة إلى أن هناك

الجبهة القومية لتحرير جنوب اليمن المحتل
حضرموت
اللجنة الشعبية العليا
الرقم ج ق/ ل س ع/ ١٠/ ١٥
التاريخ ١٦ جماد ثان ١٣٨٧هـ
الموافق ٢٠ سبتمبر ١٩٦٧م
المكرم قائم الدولة بالغيل وشحير المحترم
تحية..
نفيدكم أن الجبهة القومية لتحرير جنوب اليمن المحتل قد استلمت السلطة يوم ١٧/ ٩/ ٦٧م وقد أيدتها القوات المسلحة الوطنية وجماهير الشعب وأصبحت اللجنة الشعبية المنبثقة عن الجبهة القومية هي السلطة الشرعية وعليكم الاتصال بها في أي شيء وعليكم التعاون مع شباب الجبهة القومية في المنطقة حول رفع الأعلام وتوزيع البيانات وتوعية الناس عن الوضع الجديد وحفظ الأمن والنظام وسيقوم حامل الرسالة بتعريفكم عن الأشخاص الذين يمثلون الجبهة القومية في المنطقة. أخبارنا هادئة. وكلنا أمل أن يسود الهدوء بقية أنحاء البلد. تعاونوا مع شباب الجبهة القومية لاستتباب الأمن وعدم السماح بأي عمل تخريبي وكونوا على اتصال بالمكلا في حالة حدوث أي شيء وشكرا.
الجبهة القومية لتحرير جنوب اليمن المحتل
حضرموت

خطابًا موازيًا بقوله: (اعتمدوا الرسالة الموجهة من الجبهة القومية)، وعلى أية حال فتاريخ الخطاب يعود إلى (٢٠ سبتمبر)، أي اليوم الرابع من حكم (اللجنة الشعبية العليا)، وربما كان أقل توترًا مما قبله وأقوى سيطرة على الأوضاع، ومع هذا كان يومًا حافلًا بالأعمال، وهو ما سيلاحظ عند قراءة بقية وثائق هذه الدراسة.

وعلى أهمية تحديد حركة الخطابات ومدى وصولها وكيفية العمل بها فإننا في هذه الدراسة سنكون معنيين أكثر بقراءة نصوص الوثائق من داخلها كما سبق أن ألمحنا، وبالعودة إلى نص الوثيقتين نجد هناك خطابًا مركزيًا إلى النواب والقوام لتسليم السلطة، كُتب بصيغة إدارية أقرب ما يكون إلى الإجراء الروتيني وليس الثوري مع بعض التغيرات في نص الوثيقتين، ففي الأولى بدأت بصيغة المفرد (أفيدكم) أي السكرتير الإداري. أما الثانية فتغيرت إلى صيغة الجمع (نفيدكم) أي باسم (اللجنة الشعبية العليا). كما ورد في نص الوثيقة الأولى: (.. استلمت الجبهة القومية صباح اليوم ١٧ سبتمبر)، في الوثيقة الثانية (استلمت الجبهة القومية يوم ١٧ سبتمبر)، وتقارب نص الوثيقتين حد التطابق يدل على أن المصدر الموجه واحد وهو طبعًا الطرف المنتصر، واللافت في الوثيقة الثانية تضمينها الترويسة التي تدل على صفتها الرسمية الجديدة (الجبهة القومية - اللجنة الشعبية العليا - حضرموت)، وتعميدها بختم الجبهة القومية.

ومن الملاحظات التي تخص بنية النص: في الوثيقة الأولى جاء (عليكم التعاون مع ضباط اللواء)، وهذه الإشارة لم ترد في الوثيقة الثانية، ويبدو أن النص الأول مطلوب في حينه وتم مناقشته عند تعليقنا على الوثيقة الأولى، أما في الوثيقة الثانية فقد استبدل عليكم التعاون مع شباب الجبهة القومية وتكرر ذلك مرتين، وهذا يدل على تنامي

ثقة الثوار في أنفسهم منذ اليوم الرابع لحكمهم وسيطرتهم على زمام الأمور.

ومن خلال الترقيم المرجعي لهذا الخطاب نستنتج أن بدايات الأرشفة والتوثيق بدأ العمل بها، وأنهم يعتمدون على تقاليد إدارية ترسخت في السلطنة، ساعدت على تماسك الحكم الجديد وانطلاقه، والحقيقة أن بعض رجال اللجنة الشعبية حصلوا على مستوى مرتفع من التعليم وفرته لهم السلطنة القعيطية ذاتها، وامتلك البعض منهم خبرة إدارية؛ إذ كان أكثرهم موظفين متوسطين في الجهاز الإداري للسلطنة من السلطنة.

وعودة إلى المقارنة بين النصين، ففي نص الوثيقة الأولى جاء: (اعتمدوا الرسالة الموجهة من الجبهة القومية)، وفي الثانية المباشرة (سيقوم حامل الرسالة بتعريفكم عن الأشخاص الذين يمثلون الجبهة القومية)، هذا التكرار في نص الوثيقتين يجعلنا نعيد التساؤلات من قبيل: من حمل الخطاب الأول؟ وهل فعلًا كانت هناك حاجة لخطاب جديد ولا سيما أن اللجنة الشعبية كانت تستعد لخطاب ثوري بخصوص نواب وقوام السلطنة القعيطية؟ وهو ما سوف نتناوله في الوثيقة الثالثة من هذه الدراسة.

(نص الوثيقة الثالثة)

بسم الله الرحمن الرحيم

اللجنة الشعبية للجبهة القومية تاريخ ١٦/٦/١٣٨٧هـ

المكلا – حضرموت الموافق ٢٠/٩/١٩٦٧م

قرار بإعفاء النواب

بسم الله وباسم الشعب قررت اللجنة الشعبية العليا للجبهة القومية لتحرير جنوب اليمن المحتل ما يلي:

١- إعفاء نواب الدولة من وظائفهم.

٢- تشكيل لجنة شعبية في كل لواء للقيام بمسئوليات النائب.

٣- تنقل صلاحيات النائب اللواء إلى اللجان الشعبية الحالية وضابط اللواء بصورة مؤقتة حتى يتم التشكيل النهائي للجان الشعبية.

٤- يقوم ضابط اللواء بالتوقيع على القرارات التي تتخذها اللجان الشعبية.

٥- على جميع قادة الوحدات ورؤساء الدوائر تنفيذ ذلك من تاريخ صدوره.

والله ولي التوفيق

اللجنة الشعبية العليا للجبهة القومية

المكلا – حضرموت

بسم الله الرحمن الرحيم

اللجنة الشعبية للجبهة القومية

المكلا – حضرموت .

تاريخ ١٣٨٧/٦/١٦ هـ

الموافق ١٩٦٧/٩/٢٠ م

قرار بإعفاء النواب

بسم الله وباسم الشعب قررت اللجنة الشعبية العليا للجبهة القومية لتحرير جنوب اليمن المحتل ما يلي : ـ

١ ـ إعفاء نواب الدولة من وظائفهم .

٢ ـ تشكيل لجنة شعبية في كل لواء للقيام بمسئوليات النائب.

٣ ـ تنقل صلاحيات نائب اللواء الى اللجان الشعبية الحالية وضابط اللواء بصورة مؤقتة الى حين يتم التشكيل النهائي للجان الشعبية.

٤ ـ يقوم ضابط اللواء بالتوقيع على القرارات التي تتخذها اللجان الشعبية.

٥ ـ على جميع قادة الوحدات ورؤساء الدوائر تنفيذ ذلك من تاريخ صدوره.

والله ولي التوفيق .

اللجنة الشعبية العليا للجبهة القومية

المكلا – حضرموت .

الجبهة القومية لتحرير جنوب اليمن المحتل اللجنة الشعبية العليا حضرموت

التعليق:

أول ما يلفت النظر في هذه الوثيقة إذا ما قورنت بسابقتها التباين في الطرح، فبينما اتسمت الوثيقة الثانية بالمرونة وابتعدت عن أسلوب الأوامر المباشرة في خطابها لنواب السلطنة وقوامها، فإن هذه الوثيقة تقدمت في طرحها وقوة قرارها وصيغت بأسلوب يمكن وصفه بالثوري، وبما أن الوثيقتين مؤرختان في (٢٠ سبتمبر)، أي صدرتا في اليوم الرابع للحكم الجديد فهذا يدفعنا لطرح التساؤلات الآتية: ما هي الدواعي لإرسال خطابين مختلفين في مضمونهما في يوم واحد؟ وهل أرسلت الوثيقة الثانية أم استبدلت بالثالثة بعد طباعتها؟ يبدو لنا وبالنظر لخصوصية المرحلة وسرعة حركتها أن الثوار في اليوم نفسه حسموا أمرهم وموقفهم من رجال العهد القديم وذلك بتنحيتهم عن المشهد وإفساح المجال للجان الشعبية في المقاطعات لتصير هي صاحبة القرار، ومن خلال قراءتنا لنص هذه الوثيقة نلاحظ الآتي:

اتسم الخطاب بالحزم ورغم أن لفظة الإعفاء دالة على التنحية فهي أقل وطأة في مدلولها من لفظة العزل، وهذا الأسلوب (الحازم المرن) يعكس سلمية انتقال السلطة كما قلنا، ثم إن (رجال الحكم القديم) لم يظهروا أي شكل من المقاومة دفاعًا عن السلطنة التي يمثلونها، وحتى عندما أقدمت سلطة (اللجان الشعبية العليا) بسجن بعض هؤلاء النواب والقوام كإجراء احترازي، فهذا في تقديرنا يدخل في باب تسخين العهد الجديد وتلبيسه لباس الثورية، وليحمل رسالة مباشرة وغير مباشرة بأنهم (سلطة اللجنة الشعبية العليا) سلطة حقيقية تستطيع

اتخاذ القرارات الصارمة لاستتباب الأمن وفرض الأمر الواقع وبخاصة أن في أطراف السلطنة القعيطية ظهرت معارضة مسلحة لكن سرعان ما تمت السيطرة عليها.

ومن خلال استعراض نقاط القرار نجده يتضمن ترتيبات محددة ملازمة لعملية الإعفاء تتعلق بنقل صلاحيات النواب إلى اللجان الشعبية ومن ضباط الألوية الذين أسند إليهم التوقيع على قرارات اللجان الشعبية ولا غرو في ذلك فالمؤسسة العسكرية ممثلة بكبار قيادتها وأيضًا قيادة جيش البادية الحضرمي الذي كان له وضع خاص في منظومة الحكم في عهد نظام الاستشارة البريطانية صاروا بموجب اتفاقية تسليم السلطة بين لجنة الطوارئ التي أسسها السلطان غالب قبل سفره إلى جنيف في أغسطس ١٩٦٧م وممثلين عن الجبهة القومية ضمن قوام اللجنة الشعبية العليا، أي أنهم صاروا شركاء في السلطة الجديدة، واحتفظوا برتبهم ومناصبهم العسكرية لحين من الدهر قبل أن يقلب الثوار عليهم ظهر المجن، ويدخلون في خانة العهد البائد.

وإذا عدنا للجانب الشكلي للوثيقة وبمقاربتها بما قبلها نلاحظ عدم الثبات في المسميات للجهة الصادرة في ترويسة الوثيقة مع ما جاء في ذيلها، فبعد أن كان التحديد الاعتباري للخطابات يبدأ بـ(الجبهة القومية لتحرير جنوب اليمن المحتل) نجد تغيرًا في الترتيب إلى: (اللجنة الشعبية للجبهة القومية)، بينما في ذيل الخطاب أضيفت كلمة العليا بعد كلمة الشعبية للجبهة القومية، أما الختم فكان واضحًا في تحديد الترتيب الهرمي (الجبهة القومية ثم اللجنة الشعبية العليا)، ونحن هنا لا نبحث عن صيغة خطاب مثالي في وضع استثنائي وإنما تقصد هذه الإشارة معرفة مدى رسوخ السلطة الجديدة من خلال نظرة فضولية على التفاصيل الدقيقة في لحظة كان المهم عند الحكام الجدد المتن وما يتضمنه من أوامر وقرارات.

شَرُف رأس الخطاب بكتابة البسملة، أما الديباجة فكانت (بسم الله وباسم الشعب)، ولأننا نهدف من هذه الدراسة إلى استنطاق هذه الوثائق التاريخية فلا ضير من التوقف مع بعض الألفاظ ومناقشتها بحيادية، من ذلك إصدار القرارات باسم الشعب، وأن استلام الحكم جاء بتأييد الشعب، في بداية (الثورة) كان هذا الطرح على جانب كبير من الصحة، فغالب الأهالي وقتئذ في حضرموت مع التغيير بمفهومه العروبي لكنهم في الوقت نفسه لا يحملون موقفًا سلبيًا اتجاه الحكم السلاطيني، ولهذا أقحم (الشعب) بوصفه مصدر شرعية الحكام الجدد، ثم إنهم باسم (الشعب) والشرعية الثورية مرروا كل قراراتهم واجتهاداتهم الخاصة، وعلى هذا وفي مراحل أكثر تشددًا صنفوا المعارضين لهم بأعداء الشعب، وهم أي الحكام الجدد ليسوا بدعًا بالنسبة للبلدان العربية التي شهدت تغيرات ثورية بعد الحرب العالمية الثانية، وفي مرحلة الاستقلال الوطني بعد خروج الاستعمار القديم من معظم أرجاء الوطن العربي، ومعروف في غياب النظام الديمقراطي السليم يتمترس النظام الاستبدادي العربي خلف الشعب ويحكم باسمه، وقد يجرنا هذا الاستعراض إلى تعريف مفهوم الشعب ومحاولة ضبطه ومدى واقعيته بوصفة كتلة عاطفية في المجتمع العربي ببنيته الاجتماعية التقليدية لكننا سنكتفي بهذه الإشارة.

(نص الوثيقة الرابعة)

بسم الله الرحمن الرحيم

اللجنة الشعبية العليا للجبهة القومية

المكلا – حضرموت تاريخ ١٦/ ٦/ ١٣٨٧هـ

الموافق ٢٠/ ٩/ ١٩٦٧م

قرار بإلغاء وظيفة السكرتير الإداري

باسم الله وباسم الشعب قررت اللجنة الشعبية العليا للجبهة القومية لتحرير جنوب اليمن المحتل ما يلي:

١- إلغاء وظيفة السكرتير الإداري.

٢- نقل بعض صلاحيات السكرتير الإداري المالية إلى السكرتير المالي ويتم تحديدها بالتفاهم بين السكرتير المالي واللجنة الشعبية أو من تخوله.

٣- تكوين مكتب إدارة بالسكرتارية لتنسيق العمل بين الدوائر.

٤- يرأس هذا المكتب مدير ويخاطب بمدير مكتب السكرتارية.

٥- جميع الرسائل والخطابات التي كانت توجه سابقًا للسكرتير الإداري ترسل إلى مدير المكتب.

٦- يخول مدير مكتب السكرتارية بالرد والتوقيع عن اللجنة الشعبية للجبهة القومية على تلك الخطابات ورفع ما يراه منها إليها.

٧- استلف السيد فيصل بن شملان ليدير هذا المكتب لمدة مؤقتة.

٨- على جميع رؤساء المصالح وقادة الوحدات تنفيذ ذلك من تاريخ صدوره.

والله ولي التوفيق

اللجنة الشعبية العليا للجبهة القومية

المكلا – حضرموت

بسم الله الرحمن الرحيم
اللجنة الشعبية العليا للجبهة القومية
المكلا — حضرموت .
تاريخ ١٣٨٧/٦/١٦ هـ
الموافق ١٩٦٧/١٠/٢٠ م

قرار بالسماء وظيفة السكرتير الأداري

باسم الله و باسم الشعب قررت اللجنة الشعبية العليا للجبهة القومية لتحرير جنوب اليمن المحتل مايلي : —
١ — الغاء وظيفة السكرتير الأداري .
٢ — تنقل بعض صلاحيات السكرتير الأداري السابق الى السكرتير المالي ويتم تحديدها بالتفاهم بين السكرتير المالي و اللجنة الشعبية أو من تخوله .
٣ — تكون جميع مكاتب ادارة بالسكرتارية لتنسيق العمل بين الدوائر .
٤ — يرأس هذا المكتب صدر يسر ، ويخاطب بصدر يسر بكتب السكرتارية .
٥ — جميع المراسائل و الخطابات التي كانت ترجمة سابقا للسكرتير الأداري ترسل الى صدر يسر المكتب .
٦ — يخول صدر يسر مكتب السكرتارية بالصرف و التوقيع من اللجنة الشعبية للجبهة القومية على تلك الحاجيات و رفع مايراه شيئا اليها .
٧ — استثنى السيد فيصل بن حسان ليصدر هذا المكتب لمدة شهر واحد .
٨ — على جميع رؤساء المصالح و الدوائر الرجوع لذلك من تاريخ صدوره .
والله ولي التوفيق .

اللجنة الشعبية العليا للجبهة القومية
المكلا — حضرموت .

التعليق:

تتسق هذه الوثيقة مع سابقتها من حيث حسم اللجنة الشعبية العليا أمرها وإمساكها بزمام الأمور، وممارسة الحكم، واتخاذ القرارات، وبهذا نحن أمام حالة تاريخية واحدة، وقد ذكرنا في الوثيقة الأولى من هذه الدراسة أن قادة الجبهة القومية في حضرموت أبقوا على منصب السكرتير الإداري لرمزيته في منظومة الحكم في السلطنة، وبغرض تنفيذ آخر مهمة رسمية له وهي إتمام عملية التسلُّم والتسليم للسلطة في السلطنة، ولتصريف الأمور العاجلة.

ولما تحيله عادة لفظة (السكرتارية) من وظيفة إدارية ذات مهام محددة تجعل من الضرورة بمكان توضيحًا سريعًا لمكانة هذا المنصب الرفيع في السلطنة القعيطية، التي لم تشهد طوال تاريخها الهيكل الحكومي الإداري الحديث من حيث مسميات رئيس الوزراء، أو رئيس الحكومة، أو مناصب الوزراء والوزارات، إنما ظهر فيها فقط منصب الوزير وهو يشرف على مصالح أو نظارات السلطنة التي يحمل المسؤولين فيها لقب ناظر أو رئيس مصلحة أو إدارة.. وأشهر من حمل هذا اللقب ثلاثة وزراء من أسرة آل المحضار ابتداء من السيد حسين بن حامد المحضار، ثم ابنه أبي بكر، ثم حفيده حامد بن أبي بكر، وهو ما يمكن وصفه بعهد الوزارة المحضارية للسلطنة القعيطية.

وبعد توقيع السلطنة القعيطية لمعاهدة الاستشارة ١٩٣٧م مع بريطانيا ممثلة في المقيم البريطاني في عدن خضع هذا المنصب لتغيير في التسمية ضمن تغييرات كثيرة قام بها المستشار البريطاني هارولد إنجرامس لتطوير المؤسسة الإدارية المدنية والعسكرية للسلطنة، من ذلك استبدال منصب لقب الوزير بالسكرتير، وكان أول من حمل هذا اللقب عز الدين الدرزي لمدة ستة أشهر تقريبًا، ثم السكرتير مسلم بلعلا، ولكن اقترن لقب السكرتير بالزنجباري من أصل عماني (سيف بن علي البوعلي ١٩٣٩- ١٩٥٠م)، وأعيد لقب الوزير ١٩٥١م في عهد الوزير القدال سعيد القدال (١٩٥٠-١٩٥٧م)، وفي اعتقادي أن المستشار البريطاني اختار بعناية هذا اللقب حتى لا تكون هناك نِدِّيَّة بين مقام المستشار، ومقام الوزير؛ لأن لفظة السكرتير تحيل إلى مرتبة إدارية أقل من مرتبة الوزير، ومعروف أن إدارة الاستشارية البريطانية لحضرموت أسندت بعض الوظائف الرفيعة لشخصيات عربية وغير عربية (مسلمة) ليكونوا أداة طيعة بيدها، وهؤلاء يعنيهم المنصب بوصفه وظيفة، لهذا لن تكون لديهم تحفظات تجاه المسميات والألقاب.

وكان آخر من حمل الوزير هو السيد أحمد محمد العطاس (١٩٦٤-١٩٦٧م)، وترك سفره إلى الخارج في منتصف مايو، أي قبل (سقوط) السلطنة بأربعة أشهر فراغًا في منصب الوزارة، وأسند مهامه إلى نائبه عبدالرحمن سعيد بازرقان، وكان شخصية إدارية أكثر منه رجل دولة، وفي غياب مكان الوزير ورمزيته في تلك المرحلة الحرجة من تاريخ السلطنة ظهر منصب السكرتير الإداري بوصفه مسؤولًا كبيرًا في مجمع الدوائر الحكومية للسلطنة، التي كانت تسمى (السكرتارية)، نسبة لمنصب السكرتير السابق (الوزير).

وهكذا صار السكرتير بحسب الظروف وقتئذ منزلة بين المنزلتين، فهو أقل من منصب الوزير وأرفع من درجة النائب؛ لهذا لاحظناه بموجب الاتفاقية الأولى في هذه الدراسة يوجه الخطابات لنواب السلطنة وقوامها يعلمهم بتطورات الوضع بعد مغادرة السلطان البلاد، ويطلب منهم تسليم الحكم للجبهة القومية، ولأهمية هذا المنصب في حينه جعل السلطان من السكرتير الإداري

(عيسى مسلم بلعلا) عضوًا في لجنة الطوارئ التي أنيط بها إدارة شؤون السلطنة في أثناء سفر السلطان إلى جنيف - كما سبق أن ذكرنا-.

ولهذا ليس غريبًا أن تشمل عملية الإزاحة السكرتير الإداري بموجب قرار هذه الوثيقة جنبًا إلى جنب مع قرارات أخرى إزاحة بقية رموز السلطنة المدنية وبخاصة نواب الألوية، صحيح لم يشر القرار إلى إعفاء السكرتير الإداري بأسلوب صريح كما هو حال قرارات النواب، إنما نص على إلغاء وظيفة السكرتير الإداري لما تحمله من رمزية كبيرة للسلطنة القعيطية.

واللافت في بنود القرار أن لفظة السكرتارية ترحلت من العهد السلاطيني إلى العهد الثوري بحيثيات معينة بين تأخير وتقديم فكان المسمى القديم (السكرتير الإداري)، ثم استبدل بموجب البند الرابع لهذا القرار: (مدير مكتب السكرتارية)، إضافة إلى ذلك وردت لفظتا السكرتير والسكرتارية في البنود الثمانية لهذا القرار سبع مرات، وهذا كله يعطي مؤشرًا إلى أن لفظتي السكرتير والسكرتارية مفردتان ترسختا في مفردات الحكم في حضرموت، وأنهما تحيلان في الوعي الجمعي إلى مكانة عالية في السلطة، لهذا ألقت بثقلها على العهد الجديد لحين من الزمن.

وتضمنت البنود من ٢- إلى ٨ ترتيبات لملء الوظيفة الشاغرة (السكرتير الإداري) بحسب البند الأول من هذا القرار، وتم تحريك بعض الصلاحيات، مثل نقل بعض الصلاحيات الإدارية إلى السكرتير المالي، وذلك بموجب البند الثاني الذي جاء فيه أيضًا أن تحديد هذه الصلاحيات سيتم بالتفاهم بين السكرتير المالي واللجنة الشعبية أو من تخوله، وهذه الإشارة الأخيرة تدل على أن الأولية عند (الثوار) وقتئذ هي إلغاء رمزية الحكم السلاطيني السابق، لكنهم أبقوا على الكادر الإداري الوسطي للسلطنة، وهذا مما ساعد (اللجنة الشعبية العليا) على تسيير الأمور بسلاسة، والثبات على إرث إداري أسهم السلطان صالح والمستشارين البريطانيين في إرسائه وتأسيسه.

والبند السابع حدد الشخصية التي أنيط بها إدارة مكتب السكرتارية وهو (السيد) فيصل بن شملان (التميمي)، وهو شخصية وطنية أدّت دورًا في الحياة الإدارية السياسية في العهد الجمهوري خلال نصف القرن اللاحقة، وكان أقرب بما يكون إلى طبقة (التكنوقراط)، وهو وإن اختلف في مواقفه السياسية من الأطراف الأخرى لكن اتفق الكثير على نزاهته حتى وفاته عام ٢٠١٠م.

ويلاحظ في هذا البند لقب (السيد) يسبق اسم فيصل بن شملان، فكان هذا اللقب لا يطلق في حضرموت إلا على من هم من آل البيت، وكان إطلاقه على غير العلويين سببًا من أسباب النزاع بين الحضارمة في إندونيسيا في عشرينيات القرن الماضي، وانتقل صدى ذلك بوتيرة أقل إلى حضرموت، والإشارة هنا ترمز من طرف خفي إلى أن رجال العهد الجديد اتسقوا مع شعارات الحرية والمساواة الاجتماعية، التي كانوا ينادون بها في أدبياتهم الثورية قبل وصولهم إلى سدة الحكم، وفي سياق متصل ظهرت عندهم مفردات مشابهة ميزت ذلك العهد، من ذلك قولهم: (الأخ – الرفيق - المناضل)، بصرف النظر عن مكانة الفرد في سلم السلطة، واجتنبوا ألقاب التضخيم، نحو: (صاحب الفخامة، ومعالي الوزير، ودولة رئيس الوزراء.. إلخ)، التي وجدت لها مكانًا راسخًا بعد ١٩٩٠م، وما تزال.

(نص الوثيقة الخامسة)

بيان هام من اللجنة الشعبية العليا للجبهة القومية لتحرير جنوب اليمن المحتل

حضرموت

أيها المواطنون الكرام....

يسر اللجنة الشعبية العليا أن تشكر كافة المواطنين الذين تعاونوا معها في حفظ الأمن والنظام لتسير الحياة سيرها الطبيعي في كل أنحاء ما يسمى سابقًا "بالدولة القعيطية"، واللجنة إذ تعرب عن عميق تشكرها لكل من تعاون معها بالعمل أو أرسل لها تأييده كتابيًا أو برقيًا من مقادمة ومواطنين تطمئن كل المواطنين على سلامة ارواحهم وممتلكاتهم ومصالحهم دون استثناء من قبائل وحضر لا فرق عندنا بين قبيلي أو يافعي أو عامل فكلهم أبناء شعب واحد ولهم مصلحة واحدة وأن يافع السفلى والعليا وبني قاصد التي تسيطر عليها الجبهة القومية لا تختلف عن حضرموت التي تسيطر عليها أيضًا الجبهة القومية.

إن الحكم السلطاني قد ذهب إلى غير رجعة، وأن السلطة قد عادت إلى أصحابها الشرعيين من أبناء الشعب الأبي بفضل تعاون القوات المسلحة الباسلة والفئات الوطنية الأخرى مع أبطال الجبهة القومية لتحرير جنوب اليمن المحتل. وسوف تعلن اللجنة من وقت لآخر لبعض المراسيم التي ستحدد صلاحيات المسئولين، وإعادة

تشكيل الجهاز الحكومي للقضاء على كل مظاهر الفساد والرشوة ومعاقبة كل من تسول له نفسه الإساءة إلى مكاسب الشعب مهما كان كبير، فلا كبير اليوم غير الشعب، ولا حكم إلا للشعب.

ونهيب بكافة المواطنين أن يكونوا جنودًا لحكم الشعب وكشف كل من يريد أن يعبث بمقدساته والإساءة إلى أبنائه. فكل مواطن يجب أن يكون رقيبًا على حقه.

إن اللجنة تعرف جيدًا كل ما يدور على الساحة وتتابع كل شيء بحرص شديد، وستعمل على ضرب الظلم والقضاء عليه سواء كان نتيجة لفساد في الإدارة أو جشع التجار الذين لا تهمهم مصلحة الشعب بقدر ما يهمهم الكسب، وسيعاد النظر في ارتفاع الأسعار. وكل ما نريد قوله إننا لا نريد أن نقدم على شيء إلا بعد دراسة وافية ليكون القرار فعالًا وسنتابع كل قراراتنا بما في الصالح العام. وإننا ننذر كل المغرضين الذين يشيعون البلبلة بين أفراد الجمهور بنشر الإشاعات المغرضة التي تستهدف الإساءة إلى ثورة الشعب وسنضرب بيد من حديد على كل من يساهم في نشر البلبلة والفوضى بطريق مباشر أو غير مباشر.

وفقنا الله جميعًا لما فيه الخير والصلاح.

اللجنة الشعبية العليا

تاريخ ١٦ جماد ثان ١٣٨٧هـ

موافق ٢٠ سبتمبر ١٩٦٧م

بيان هام من اللجنة الشعبية العليا للجبهة القومية لتحرير جنوب اليمن المحتل

أيها المواطنون الكرام ....

يسر اللجنة الشعبية العليا أن تذكر كافة المواطنين الذين تعاونوا معها في حفظ الأمن والنظام لتسيير الحياة سيرها الطبيعي في كل أنحاء مايسمى سابقا " بالمحمية الشرقية " . واللجنة اذ تعرب عن عميق تقديرها لكل من تعاون معها بالدم أو أرسل إليها رأيه كتابيا أو برقيا من مقاومة ومواطنين تدعوهم كل المواطنين على سلامة أراضيهم ومعتقداتهم وحمايتهم دون استثناء من تراث ومعمر لا فرق عندنا بين قبيلي أو بافضلي أو عاملي فكلهم أبناء شعب واحد ولهم جميعا واجب واحد وأن يافع السفلى والعليا يبقى قاعدة التي تسيطر عليها الجبهة القومية لاتختلف عن حضرموت التي تسيطر عليها أيضا الجبهة القومية .

أن الحكم السلطاني قد ذهب الى غير رجعة وأن السلطة قد عادت الى أصحابها الشرعيين من أبناء شعبنا الأبي يمثل تعاون القوات المسلحة الباسلة والقوات الوطنية الاخرى جيش أبطال الجبهة القومية لتحرير جنوب اليمن المحتل . وسوف تعلن اللجنة من وقت لآخر ليعض المراسيم التي ستحدد على اساسها [illegible] والقضاء على كل مظاهر الفساد والرشوة ومعاقبة كل من تسول له نفسه الأساءة الى مكاسب الشعب مهما كان كبير ، فلا كبير اليوم غير الشعب ، ولا حكم الا للشعب .

ونهيب بكافة المواطنين أن يكونوا جنودا لحكم الشعب وكشف كل من يريد أن يعبث بمقدساته والأساءة الى أبنائه . فكل مواطن يجب أن يكون رقيبا على حقه .

أن اللجنة تعرف جيدا كل ما يدور على الساحة وتتابع كل شيء بحرص شديد وسوف [illegible] على ضرب الظلم والقضاء عليه سواء كان نتيجة لفساد في الادارة أو جشع التجار الذين لا تهمهم مصلحة الشعب بقدر ما يهمهم الكسب وسيعاد النظر في أرتفاع الأسعار . وكل ما نريد قوله اننا لا نريد أن نقدم على شيء الا بعد دراسة وافية ليكون القرار فعالا وسنتابع كل قراراتنا بما في الصالح العام . واننا ننذر كل المغرضين الذين يشيعون البلبلة بين أفراد الجمهور بنشر الأشاعات المغرضة التي تستهدف الأساءة الى ثورة الشعب وسنضرب بيد من حديد على كل من يساهم في نشر البلبلة والفوضى بطريق مباشر أو غير مباشر .

وفقنا الله جميعا لما فيه الخير والصلاح .

اللجنة الشعبية العليا

تاريخ ١٦ جماد ثان ١٣٨٧هـ

موافق ٢٠ سبتمبر ١٩٦٧م

التعليق:

هذه الوثيقة عبارة عن خطاب مباشر من (سلطة اللجنة الشعبية العليا) إلى المواطنين في مناطق نفوذ السلطنة القعيطية أو "ما كان يعرف بالدولة القعيطية"، بحسب وصف البيان، ومعروف ما للبيانات الصادرة عن الجهات الاعتبارية من أهمية عند الدرس التاريخي لها، وهي لا تقل قيمة علمية عن المعاهدات، والخطابات، والمراسلات، والمحاضر الرسمية في استجلاء حقائق التاريخ وتحليلها، ومما يضفي فائدة على الوثائق التاريخية بشكل عام إذا حررت بتاريخ محدد؛ لأن ذلك ييسر عملية الرجوع إليها، ووضعها في سياقها التاريخي، والتاريخ ما هو إلّا حلقات مترابطة يشد بعضها بعضًا في إطار مكان واضح المعالم، والزمان.

ومعظم البيانات المهمة التي تخاطب الشعوب تحرص على الجمع بين كتابة تاريخ النشر، والرقم التسلسلي، ولأن البيان بحسب الوثيقة أعلاه لا يحمل رقمًا تسلسليًا فهذا يفتح باب الاحتمالات والتساؤلات على مصراعيه، فهل هذا هو البيان الأول (للثورة) بعد الوصول إلى سدة الحكم؟ وبما أن البيان نشر في رابع أيام حكم (اللجنة الشعبية العليا)، فهذا يجعل فرضية أن يكون البيان الأول ضعيفة فالحكم الجديد لا بد أن يوجه رسائل عامة سريعة لتوضيح مسار الحكم وتوجهاته لا سيما أن عملية انتقال السلطة اتسمت بالدراماتيكية.

وبالعودة إلى نص البيان سنلاحظ أنه لم ينص مباشرة على إعلان خبر تسلُّم السلطة، وإنما تقدم بالشكر للمواطنين وتعاونهم على حفظ الأمن، وكان الغرض الأساسي من البيان هو توصيل عدد من الرسائل للأهالي، التي من أهمها:

- تطمين الحضارمة من أصول يافعية.
- التأكيد على وصف انتقال السلطة بأنه ثورة الشعب.
- الوعد بإعادة تشكيل الجهاز الإداري.
- الوعد بمحاربة الفساد وجشع التجار.
- الوعيد بالمتربصين بالثورة.

وقبل أن نتوقف عند نقاط البيان نشير إلى إن الصياغة العامة للبيان -بصرف النظر عن الأخطاء الطباعية- تنم على تحلي كاتبيه بمستوى لافت من الثقافة والخبرة في إصدار البيانات، وفي اعتقادنا أن نقطة البيان الرئيسة هي التأكيد على المساواة

الاجتماعية وعلى شراكة أبناء يافع في ثورة الشعب أو كما جاء في النص ".... لا فرق عندنا بين قبيلي أو يافعي أو عامل فكلهم أبناء شعب واحد ولهم مصلحة واحدة وإن يافع السفلى والعليا وبني قاصد التي تسيطر عليها الجبهة القومية لا تختلف عن حضرموت التي تسيطر عليها أيضًا الجبهة القومية".

وبادئ ذي بدء تجب الإشارة إلى أن المزج بين مفردات لا تبدو متسقة من حيث النوع لغرض تأكيد النظرة إلى المساواة كما ورد في النص بين (قبيلي - يافعي - عامل)، يخفي مفردات استبعدت بذكاء حتى لا تظهر ثنائية (حضرمي – يافعي) ولفظة العامل أقحمت هنا للتمويه، واليافعيون بحسب التراتب الاجتماعي الحضرمي يدخلون ضمن فئة القبائل. ومعروف عند الدعوة للمساواة تكون المقاربات بحسب التراتب الاجتماعي، كأن نقول: لا فرق بين سيد وشيخ، وقبيلي وحضري، أو عند الوظائف والمهن نقول: لا فرق بين وزير ومدير، وعامل وفلاح، أو إثنيات (حضرمي - يافعي – عولقي - عربي - هندي – صومالي - حبشي)، ولا ريب أن الإشارة التطمينية ليافع حضرموت تدل على ظهور أصوات عدّتهم غرباء عن حضرموت، ورأت في (سقوط) السلطنة القعيطية نهاية للحكم اليافعي لحضرموت.

وعلى أية حال فإن هذه الدعوة التطمينية غير المباشرة (ليافع حضرموت)، ستقودنا إلى قضية مهمة من قضايا التاريخ الحضرمي، وهي مكانة أبناء يافع في النسيج الاجتماعي الحضرمي وقتئذ، وما مدى الثقل (العصبوي) اليافعي في السلطنة القعيطية بحسب نظرية ابن خلدون؟

وقد شهدت حضرموت عبر مراحل التاريخ استقرار قبائل وأسر كثيرة ذابت فيها وصارت نسيجًا أصيلًا منها، ومنها يافع، ولأن الهجرة اليافعية لحضرموت -بصرف النظر عن مسمياتها- تحولت إلى سلطة على المدن والبلدات الحضرمية على حساب القوى المحلية، لهذا صارت قوة موازية لقوة القبائل الحضرمية المسيطرة على مثاويها، ولم تكن تحمل مشروعًا سياسيًا لهذا تداخلت العلاقات بين القوتين بين المصالح الاقتصادية وهي الغالبة، وبين العداء والرفض الداخلي للوجود اليافعي، ومما ساعد تأسيس السلطنة القعيطية على حساب القوى اليافعية الأخرى هو أن القعيطيين جاءوا يحملون مشروع دولة من حيدر أباد بالهند بتقاليدها الحضارية، وبأموالهم الخاصة، بعكس ما كان صائرًا من هجرات اليافعيين السابقة.

ومثل وصول السلطان صالح بن غالب القعيطي إلى سدة الحكم عام ١٩٣٦م وتوقيعه لمعاهدة الاستشارة مع السلطات البريطانية الاستعمارية في عدن نقطة تحول مهمة في تاريخ السلطنة القعيطية، ففي تلك المدة تم اتخاذ إجراءات إدارية تحديثية للسلطنة، تفككت بموجبها المؤسسة العسكرية التقليدية التي تعتمد في قوامها على العناصر اليافعية، وكان ذلك بداية مرحلة من مراحل تحول اليافعيين من (طبقة) حاكمة إلى مواطنين يحكمهم قانون الدولة، وليس مراجعهم القبلية، لكن ظلت النظرة العامة تجاههم بوصفهم أهل الحكم وأصحاب الدولة، كما ظل ولاؤهم للعرش السلطاني أقوى من ولائهم للدولة التي تحمل التركيب المزدوج (الدولة الحضرمية اليافعية).

وبموجب تحديثات المؤسسة العسكرية أسس البريطانيون الجيش البدوي الحضرمي عام ١٩٣٩م؛ ليكون قوة وحرس حدود للمحمية الشرقية تحت الإشراف والتمويل المباشر من المستشارية البريطانية في المكلا، ولأن معظم أفراد هذا الجيش من رجال القبائل الحضرمية، فشكل بذلك قوة عسكرية موازية للقوات المسلحة القعيطية ذات الأغلبية اليافعية وبخاصة جيش النظام القعيطي، لكن ظل ولاء جيش البادية الحضرمي بحسب تكوينه للمستشار البريطاني، وليس للسلطنة القعيطية، وقبيل سقوط السلطنة القعيطية بأقل من شهر سلمت بريطانيا جيش البادية الحضرمي لسلاطين المحمية الشرقية (القعيطي - الكثيري - المهري)، بعد أن سحبت قواتها من كل مناطق الجنوب باستثناء المستعمرة عدن، هذه الوضعية المعلقة جعلت قادة هذا الجيش ينحازون إلى الجبهة القومية في إطار فكرة دولة الجنوب القادمة بقوة، وفكرة العروبة، وهناك أسباب أخرى لا يتسع المقام لذكرها.

ومن جانب أخرى نجد قائد جيش النظام بأغلبيته اليافعية بقيادة القائد أحمد عبدالله اليزيدي يوافق على تسليم السلطة للجبهة القومية لتحرير جنوب اليمن المحتل، وبهذا صنف القائد اليزيدي عند رجال الجبهة القومية ضمن القوى الوطنية التحريرية، لكنه من وجهة النظر الأخرى وضع في قائمة من خانوا الأمانة وفرطوا في كيان السلطنة، وفي اعتقادنا أن حسابات اليزيدي المتزنة جعلته يتخذ قراره هذا الحاسم وليس الولاء للجبهة للقومية، ولم يكن يعقد النية في التفريط في السلطنة القعيطية فقد وضعته التطورات السياسية وقتئذ أمام خيارات معقدة، أخطرها خيار المواجهة ذو الكلفة العالية، ونقصد بالمواجهة هنا قيادة التكتل اليافعي الرافض لتسليم السلطة ومواجهة الجبهة القومية ومن ركب سفينتها من القوات المسلحة، وأهمها جيش البادية الحضرمي، كما أن قدرة الجبهة القومية على تحريك (الجماهير) سيعقد من قواعد الاشتباك، وسيهدد وحدة النسيج الحضرمي. بمعنى المواجهة المحتملة إن تمت ستخرج عن إطار قوات رسمية تفرض سلطة الدولة إلى قوة تقاتل بمرجعية قبلية، ولهذا عندما كتب (المناضل) عباس حسين العيدروس (يرحمه الله) في مذكراته عن سقوط مدينة المكلا بعد تسلُّم برقية السلطان لاستقباله وضيوفه في المكلا، كان القائد اليزيدي يحث على سرعة تحرك الجبهة القومية لتسلم السلطة قبل نزول السلطان من السفينة ودخوله مدينة المكلا حتى لا يحدث ما لا يحمد عقباه، وفعلًا تم انتقال السلطة دون إراقة دماء. (ينظر: عبدالقادر أحمد باكثير، مذكرات عن مراحل النضال والتحرير، ج ٢، ص ٩٦).

هذا الاستعراض الموجز ربما سيوصلنا إلى فهم إشارة البيان إلى يافع صراحة، وأنها وردت ليست فقط للجم الأصوات المرجفة بل أيضًا تقديرًا من اللجنة الشعبية العليا للموقف الحكيم (ليافع) باختيار ركوب سفينة حضرموت (الوطن) الراسخة، وبخاصة أنهم لا تنقصهم الشجاعة لخوض شرف محاولة المقاومة. وعلى أية حال فإن هذه الإشارة تسجل آخر معاقل يافع في حضرموت بوصفهم طبقة حاكمة، وتؤشر أيضًا إلى نهاية تاريخهم العسكري فيها بعد قرون كانت لهم فيها صولات وجولات.

أما بالنسبة لنقاط البيان الأخرى -حسب تصنيفنا- فمما جاء فيه التأكيد على (شعبية) الثورة وحكم الشعب، وعلى الموقف الشعبي المؤيد للتغيير السياسي في حضرموت، وكان ذلك الموقف -لحين من الدهر- مصدرًا من مصادر قوة (اللجنة الشعبية العليا) الحاكمة إلى أن تحولوا وباسم الشعب من سلطة إلى تسلط فارتبكت بوصلة التاريخ.

وحمل البيان بعبارات الوعد والوعيد، وهي عادة ما تتضمنها البيانات والخطابات عند الانتقال غير الديمقراطي للسلطة، لهذا حمل البيان عبارات التبشير بالتغيير والقضاء على الظلم والفساد، وخص البيان فئة التجار، أو كما جاء فيه (جشع التجار)، وحرصهم فقط على المكاسب، وهو موقف أيديولوجي اتسقوا فيه مع ميثاق الجبهة القومية وشعاراتهم التي تميل للكادحين وقوى الشعب العاملة بوصفهم أصحاب المصلحة الحقيقية للثورة.

وفي آخر فقرات البيان تضمنت إشارة للمغرضين الذين يشيعون (البلبلة)، التي ترددت في الفقرة ذاتها مرتين، ولا ريب كما يوجد مؤيدون لكل جديد هناك القوى القديمة المعارضة وهذا سنة من سنن التاريخ، والأيام الأربعة والسبعون من حكم (اللجنة الشعبية العليا) لم تكن مفروشة بالورود بل برزت أمامهم الكثير من التحديات لكن فورة التغيير، والركوب الاضطراري لبعض رموز حضرموت العسكرية والمدنية للعهد الجديد والآمال العريضة عند الأهالي في مستقبل عروبي أفضل ساعد (اللجنة الشعبية العليا) على الإمساك بزمام الأمور في حضرموت، وتقليل فرص المعارضين في التأثير على الأهالي، وإرباك المشهد.

بقي القول وثائق هذه الدراسة غطت جوانب من حكاية الأيام الأربعة الأولى لحكم (اللجنة الشعبية العليا) للجبهة القومية لتحرير جنوب اليمن المحتل، وما يزال أمامنا سبعون يومًا من الأحداث المتسارعة التي تستحق المزيد من الجهد لمعرفة تفاصيلها، ونأمل أن نتمكن من الحصول على وثائق هذه المرحلة (الملتهبة)، التي حددت مصير حضرموت لأكثر من نصف قرن من الزمان.

21
العدد (14)
أكتوبر
ديسمبر
2019م

السلام في حضرموت عبر الصحافة الحضرمية

اهتمت الصحافة في حضرموت (مطبوعة وخطية) ولا سيما في عقدي الثلاثينيات والأربعينيات بتفاعلات تجربة السلام وتطوراتها في حضرموت؛ وذلك بوصفها شأنًا عامًا، ومطلبًا شعبيًا اقتضته ضرورة العصر ومتطلباته وانعكاساتها على المجتمع الحضرمي، وقد أتى تناول الصحافة لذلك الحدث عبر وسائل متعددة أبرزها الخبر، ثم التعليق والتحليل.

د. أحمد هادي باحارثة

وللخبر في الصحف والمجلات الحضرمية حينها مصادره المعتمدة لدى محرريها، الذين يعدون من وجوه المجتمع ونخبه، فقد يكون المصدر جهة رسمية تصدر منشورًا أو بيانًا تجاه حدث ما، تشرح مجرياته، أو تحدد موقفها منه، فتنقله المجلة بنصه مشيرة إلى المصدر الرسمي له، وقد يكون المصدر في صورة متطوع يأتي للصحيفة بالخبر؛ بسبب حسن اطلاعه، لكونه شخصية من الهيئة الرسمية أو مقربًا منها، كما حدث من السيد عبدالقادر بن أحمد بافقيه عضو مجلس الدولة مع مجلة (المنبر)، وقد تخفي الصحيفة مصادرها، وتكتفي بوصفها بأنها موثوقة لديها، ومن ثم تنتقل تلك الثقة للقارئ بحسب معرفته الوثقى بالقائمين على تحرير الصحيفة واطمئنانه لهم.

وقد تأتي الصحيفة بالخبر مجردًا من أي تعليق، وبصياغة محايدة، ولكن كثيرًا ما تشي صياغة الخبر بمدى ميول المحرر تجاه الحدث وشخوصه ميلاً أو نفورًا، وقد يتضمن الخبر تعليقًا على مضمونه يكشف رأي المحرر في الحدث، وموقفه من فاعليه، أما التحليل فيتفرد به المقال الذي قد يسبق الحدث ويستشرفه من قرائن الأحوال، ومعطيات التطورات، أو تاليًا للحدث بعد تكشف ملابساته، وظهور أدوار المشاركين في صناعته، فيقوم بتلخيصه، ويجمع ما تشتت من صورته العامة، مبينًا الدروس والعبر منه.

وبمرور الزمن تصبح الصحافة بمحتواها الخبري والمقالي مصدرًا لتسجيل التاريخ وتفسيره في الحقبة الصادرة فيها، باعتبارها شاهدة على الحدث ومعاصرة له، لكن ينبغي تسليط الحس النقدي على ما يرد في الصحف من أخبار من حيث النظر إلى أسلوب صياغة الخبر وإلى نوع مصادره وطبيعتها، وإلى مستوى القائمين على الصحيفة، ومدى ارتباطهم بالأحداث المخبر عنها وشخوصها.

يتكون مجتمع حضرموت من عدد من الشرائح التراتبية التي تعارف عليها المجتمع منذ عصوره الوسطى، وتأتي القبائل في السلم الثالث في تلك التراتبية الاجتماعية بعد السادة والمشايخ، ويتميز المجتمع القبلي بارتباط أعضائه فيما بينهم برابطة النسب والقرابة، ويعيشون غالبًا في منطقة جغرافية محددة، وقد يكونون بدوًا رحلاً، ويحمل أفراد القبائل السلاح مشكلين القوة الفعلية المسيطرة على زمام الأمور بحضرموت.

كانت القبائل تعيش صراعًا مزمنًا فيما بينها حول قضايا متعددة، أبرزها التنافس على موارد الرزق والأخذ بالثأر، وفي مطلع العصر الحديث أخذ ذلك الصراع بعدًا آخر بدخوله معترك السياسة لدى محاولة إقامة دولة في حضرموت، تنافس فيها أكثر من طرف سياسي، فكل طرف صار يستعين بقوة القبيلة في حربه للسيطرة والنفوذ، ثم انحصر ذلك الصراع السياسي بين الطرفين

القعيطي والكثيري اللذين تقاسما حضرموت في دولتين، كثيرية تسيطر على مدينتي سيئون وتريم وما جاورهما، وقعيطية تسيطر على ساحل حضرموت، وعلى عدد من مدن الوادي كالقطن وشبام.

ولدى سعي تلكما الدولتين بسط سيطرتهما على مناطق حكمهما اصطدمتا برفض القبائل في الخضوع لأنظمتها ولولاتها، ومن ثم أخذ الصراع في حضرموت بعدين أساسين، بعد سياسي بين الدولتين بسبب عدم وضوح حدودهما، وبعد قبلي بين كلٍّ من الدولتين وما يقع في أراضيها من تجمعات قبلية نافرة من فرض الدولة سيطرتها على مناطقها، وعلى ما تحتفظ به من أعراف بعيدًا عن قوانين الدولة، أو ما تتمتع به من موارد ارتزاق تسعى الدولة للهيمنة عليها.

واستمر ذلك الصراع مع عدم قدرة أي من الطرفين على حسمه، سواء سياسيًا أو قبليًا، ومما زاد من ضراوته أن استعملت فيه أسلحة حديثة كالمدفعية، ومع تطاول أمده تدخلت فيه قوى أخرى إقليمية كدولتي اليمن والسعودية، ودولية كدولتي تركيا وبريطانيا، وفي النهاية تغلب الحضور البريطاني في السياسة وعلى المشهد العام بحضرموت، وقد اتخذت بريطانيا لذلك التدخل سبيلين، أولهما بعقد المعاهدات مع الحكام المحليين من قعيطيين وكثيريين، والآخر بإرسال من يعمل على التعرف العميق على طبيعة حضرموت وأوضاعها، واختارت لهذه المهمة واحدًا من رجالها يتمتع بالاقتدار العسكري والإداري، يدعى وليام هارولد إنجرامس (ت ١٩٧٣م)، صار بعد ذلك أبرز رجل في المشهد السياسي الحضرمي.

اهتمت بريطانيا في البداية بحسم الصراع السياسي بين الدولتين القعيطية والكثيرية بتحديد حدودهما، وتنظيم العلاقة بينهما، وخلق نوع من التنسيق في السيطرة على مناطق نفوذهما، وبعد أن اطمأنت بريطانيا إلى انتهاء الصراع السياسي، واستقرار العلاقة بين الدولتين الحضرميتين المتنافستين، بدأت تعمل على إيجاد حلول للصراع القبلي بقصد تأمين بسط سيطرة كل دولة منهما على المجتمع القبلي في مناطق نفوذها، وتوطيد الأمن العام في مختلف مناطق حضرموت خارج المدن حيث يتزايد النفوذ القبلي، وكان إنجرامس هو المحرك الأساس لهذا الشأن بحكم ما كوَّنه من معرفة بطبيعة حضرموت أرضًا وبشرًا، وبقدرته على كسب الشرائح المؤثرة في المجتمع من سلاطين وسادة وزعماء قبائل، ولا سيما شخصية أبي بكر بن شيخ الكاف بمكانته الاجتماعية والمالية، ثم باستناده لهيبة دولته البريطانية بما تمتلكه من قوة ضاربة ومكانة عالمية.

بعد عقد إنجرامس اجتماعات عدّة مع تلك الشرائح المؤثرة، وما تمثله من نفوذ في الأوساط القبلية، شكل منها لجنة سميت باللجنة أمان حضرموت، ومن أبرز الأسماء التي برزت فيها: السلطان علي بن صلاح القعيطي، ومحمد هاشم بن طاهر، ومحمد بن شيخ المساوى، ومن خلالها أعلن عن مشروعه للصلح، واقترح أن تكون مدته عشر سنوات، وبعد المداولة مع أعضاء اللجنة وبعض ممثلي القبائل جرى الاتفاق على أن تكون مدته ابتداء لثلاث سنوات، وتكون قابلة للتمديد، يبدأ من بداية عام ١٩٣٧م وينتهي بنهاية عام ١٩٣٩م.

تلا ذلك السعي الحثيث لإقناع كل قبيلة على حدة بالتوقيع على معاهدة الصلح، وأن تتعهد بالالتزام به، وبالاحتكام للدولة التي تقع ضمن أراضيها لحل الإشكاليات الطارئة، والرضا بحكمها الذي تقرره، أو حكم من يمثلها، ونشرت المنبر خبر الاستجابة لدى بعض القبائل، ومن ذلك خبر الصلح بين بعض فروع قبيلة نهد إحدى كبريات قبائل حضرموت، وقد جاء الخبر على لسان شخصية اجتماعية وسياسية معروفة، هو عبدالقادر بن أحمد بافقيه، جعل عنوان خبره (حل أعظم مشكلة بحضرموت)، وورد فيه:

«لقد انتهت فتنة نهد روضان (آل بن عجاج وآل ثابت)، التي دامت عشرين عامًا فأتت على الأخضر واليابس في ديار نهد؛ فاهتزت كل الأوساط الحضرمية لإصلاح أعظم قبيلة بحضرموت فرحًا وسرورًا.

نزل الفريقان على حكم الزعيم الأكبر السيد أبي بكر بن شيخ الكاف ونائب المستشار المقيم المستر فجس، فحكموهما فيما بينهم من تنازع ومشاكل كلت في إصلاحها رجال الإصلاح، فصار الحكم من الزعيم والنائب بحسم جميع المطالبات القبلية، وبهدم أربعة حصون والتعاون على عمارة أرضهم، وعسى تساعدني الظروف فأشرح لقراء المنبر الأغر هذه المسألة إيضاحًا».

ثم علقت المنبر على الخبر بقولها:

عقد لقاء صلح وسلام بين القبائل

«لم يخطئ حضرة الزميل في تسميته هذه الفتنة بأعظم مشكلة في حضرموت، فقد تعطلت بسببها طول هذه العشرين سنة زراعة أراضي روضان التي لا تقل محصولاتها عن ربع حاصلات حضرموت بكثير، على أن حلها لم يأت إلا بعد أن استدعى حضرة المستر فجس فرقة من العساكر من شبام، وبعد أن طلب من سيئون صناديق البارود التي استعد بها من المكلا لنسف تلك الحصون، أو قل قرون الشر، ومعاقل الفوضى؛ ولا غرابة فهكذا الجهل جعل الحضرمي لا يجنح إلى الخير إلا بدافع من القوة». (المنبر، العدد ٤ و٥، ربيع الأول والثاني ١٣٥٨هـ، مايو ١٩٣٩م).

والخبر يشير إلى الضامن لنجاح الصلح وثباته، وهو التلويح بالقوة العسكرية عند المخالفة، ولا سيما سلاح الطيران، وقد تم لاحقًا استعمال تلك القوة فعليًا ضد بعض القبائل أو الأطراف المخالفة.

استمر ذلك الصلح مع ما شابه من اختراقات محدودة طيلة السنوات الثلاث، ولنجاح إنجرامس في تلك المهمة جرى تكريمه بتعيينه مستشارًا مقيمًا لدولتي حضرموت، وصار يشرف بنفسه على النزول لمناطق القبائل، والتأكد من تثبيت الصلح، وقد نشرت المنبر بعض نزولاته تلك، ومن بينها الخبر الآتي:

«عاد إلى العاصمة حضرة المستشار في أواخر ربيع أول (مايو ١٩٣٩)، بعد أن قام برحلة طوافية إلى شبوة بطريق بئر علي، تفقد فيها عن كثب أحوال قبائل الجهة الغربية من القطر، وقد رافقه في هذه الرحلة حضرة المقدم صالح علي الخلاقي، والأستاذ عمر محيرز». (المنبر، العدد ٤ و٥).

ومثله رصد بعض تنقلات نائبه المستر فجس، كهذا الخبر:

«وصل المستر فجس نائب المستشار في آخر هذا الشهر من حضرموت، وقد مر في طريقه إلى العبر فشبوة». (المنبر، العدد ٧، ٨، جمادى آخر ١٣٥٨هـ، أغسطس ١٩٣٩م).

ومع ما صاحب تجربة السلام وفرض الهدن على القبائل من عمليات مسلحة قد تلجأ إليها بريطانيا والحكومة المحلية، إلا أنها أيضًا قد صاحبها تقديم لبعض الخدمات الاجتماعية، كالمجال التعليمي التربوي، باستقدام خبير سوداني في ذلك المجال، وهو السيد القدال الذي صار له بعد ذلك حضور فاعل في السياسة الحضرمية، وقد أتى خبر استقدامه لحضرموت في مجلة المنبر على هذا النحو:

«قدم إلى العاصمة من السودان الشيخ جدال بن سعيد جدال، بصفته ناظرًا للمدارس بحضرموت، وقد أخذ يدرس سير التعليم بالمكلا». (المنبر، العدد ١٠ و١١، شوال وذو القعدة ١٣٥٨هـ، ١٩٣٩م).

وكالمجال الطبي والرعاية الصحية، ولا سيما للأطفال، وقد نشرت المنبر خبر وصول طبيبة إنجليزية لذلك الغرض جاء فيه: «جلبت الحكومة طبيبة إنجليزية من طبيبات رعاية الطفل، وقد أخذت تباشر عملها». (المنبر، العدد ٤ و٥).

وبازدياد وطأة الحرب العالمية الثانية على مناطق وادي حضرموت، وانتشار المجاعة قامت بريطانيا بتقديم المساعدات للأهالي، حيث لم تكن حضرموت جاهزة لذلك الحدث الطارئ والعصيب، وبلجوء كثير من المتضررين للانتقال إلى مدن ساحل حضرموت، قامت بريطانيا بجهود إغاثية للتخفيف من معاناة الأهالي عبر منظمة الصليب الأحمر البريطاني، حسب ما ورد في هذا الخبر بمجلة المنبر:

«تألفت لجنة في العاصمة برئاسة سكرتير الدولة القعيطية، الأستاذ مسلم بن عوض بلعلا، لبث الدعاية للاكتتاب بمعاونة الصليب الأحمر البريطاني؛ حتى يكون ذلك كدليل على روابط الصداقة بين حضرموت وبريطانيا العظمى». (المنبر، العدد ١، السنة الثانية، محرم ١٣٥٩هـ).

ثم برزت الحاجة الماسة لتمديد الصلح القبلي مع نهاية المدة المخصصة للهدنة الأولى باقتراب عام ١٩٤٠م، وعززت تلك الحاجة عوامل داخلية وخارجية مترابطة، ومن بينها اندلاع الحرب العالمية الثانية التي كانت بريطانيا شريكًا أساسيًا فيها، وتعرضت خلالها لضربات موجعة، واحتاجت للهدوء في مناطق نفوذها، ومن بينها حضرموت، ثم ألقت تلك الحرب بثقلها على حضرموت نفسها بالغة ذروتها بالمجاعة التي اجتاحت المناطق الريفية بدرجة أساسية، وهي مواقع حركة القبائل المستفيدة من الصلح، وهي التي شاهدت بل لامست مدى أهمية الصلح والسلام، وذاقت طعم الأمان في السنوات الثلاث السالفة.

وقد نشرت مجلة المنبر خبر إعلان تمديد الصلح، ونص بيانه على النحو الآتي:

«قام المستشار المقيم بمجهودات لإقامة صلح عام شامل في طول البلاد وعرضها، وإلى القراء نص المنشور الذي أذاعه باسم حكومتي القطر والحكومة البريطانية.

نداء الصلح:

بما أن حكومة صاحب الجلالة راغبة في استمرار الأمن في حضرموت، ودوام الصلح بين قبائلها، فليكن معلومًا لجميع الناس من سكان حضرموت وغيرهم ممن أمضى على الصلح الذي تم يوم ١٨ ذي القعدة سنة ١٣٥٥ هـ، وخصوصًا حملة السلاح منهم، أن حكومتي الدولتين القعيطية والكثيرية في هذه الحالات ورغبة في الأمن مدتا الصلح الذي تم بين قبائل حضرموت وغيره لعشر سنين من الزمن، أي من ذي الحجة عام ١٣٥٨ إلى نهاية ذي القعدة عام ١٣٦٨، وحكومة الدولتين القعيطية والكثيرية ستحافظان أشد المحافظة عليه، وستبذلان غاية مجهوداتهما في دوامه بمساعدة الحكومة البريطانية العظمى، حسب ما حرر في عريضة الصلح المحررة في ١٨ ذي القعدة عام ١٣٥٨.

عن السلطان صالح بن غالب القعيطي.. الأمير عوض بن صالح القعيطي.. السلطان جعفر بن منصور الكثيري.. إنجرامس المستشار المقيم». (المنبر، العدد ١٠ و١١، شوال وذو القعدة ١٣٥٨هـ، ١٩٣٩م، السنة الأولى).

ثم ارتأت الإدارة البريطانية ضرورة إعادة تنظيم ما يتعلق بالجانب العسكري للدولتين القعيطية والكثيرية)، فأتى تأسيس جيش البادية الحضرمي أواخر سنة ١٩٣٩؛ كي يساعد على كسر حدة الصراع القبلي ويخفف من احتكاكه بالدولة، فما عادت القبائل تواجه جيشًا غريبًا في عناصره، بل تواجه جيشًا من أبنائها، ويعد هذا الجيش عامًا لجميع حضرموت بدولتيها مع سلطنتي المهري شرقًا، والواحدي غربًا.

وقد نشرت المنبر خبر تأسيس ذلك الجيش على النحو الآتي:

«جاء في الإذاعة المحلية أن الحكومة قطعًا لدابر قطاع الطرق واللصوص من البدو، قررت إنشاء جيشين مؤلفين من يافع، وبقية قبائل البدو، يسمى أحدهما كشاف صاحب سمو الأمير عوض، ومقرها الشحر، والثاني جيش البادية، ويعسكر في غيل بن يمين.

وبما أن هذا المشروع العتيد يتطلب من الحكومة نفقات عظيمة؛ فقد قررت زيادة الضريبة الجمركية، ورفعها من ٨ في المائة إلى ١٢ في المائة ونصف في المائة، بزيادة أكثر من نصف الضريبة السابقة، وبذلك تتمكن من تدعيم نفوذها، ونشر لواء الأمن في كل الأنحاء، كما أن الحكومة البريطانية ستساهم بقسط وافر في هذا المشروع، بجلب معدات حربية عظيمة، رغم كونها الآن تخوض غمار حرب طاحنة.

ورحمة بقبائل البادية، فإن الحكومة ستعفيهم من دفع رسوم السدة على طعام الذرة، وعلى سمك الوزيف، وعلى ما يوردونه من الأغنام إلى المدن». (المنبر، العدد ١٠ و١١).

وبالشروع في إنشاء الجيش رصدت الصحف بعض أخبار نشأته، ولأن الجيش تتكون عناصره من أبناء القبائل البدوية البسطاء، جرى تحويل الأوامر والتعليمات إلى اللغة العربية؛ لتحقيق مزيد من التجاوب والتفاعل معها، وورد خبر تلك الانتقالة في المنبر على هذا النحو:

«تعاليم الجيش باللفظ العربي:

كانت التعاليم التي تلقى على الجيش النظامي باللفظ الإنجليزي، ويلاقي العسكر النظاميون في فهمها أتعابًا، ولكن أخيرًا صدر الأمر بأن تكون الأوامر باللفظ العربي، وقد ابتدأ العمل بها». (المنبر، العدد ٧، جمادى آخر ١٣٥٨هـ، أغسطس ١٩٣٩م).

ولتسهيل ذلك التحول اللغوي للأوامر العسكرية للجيش الحضرمي جرى استقدام قادة عسكريين عرب من الأردن لأداء مهمة تدريب الجيش، وكان عددهم ثلاثة حسب ما جاء في الخبر الآتي:

«قدم إلى العاصمة ثلاثة من ضباط شرق الأردن لتعليم العسكر، وسيذهب اثنان منهم إلى غيل بن يمين، وأما الثالث فسيبقى في المكلا؛ ولذا أخذ يباشر التعليم بالعربي». (المنبر، العدد ١٠ و١١).

استجابت معظم قبائل حضرموت بما يندرج فيها من عشائر لنداء الصلح العام، ووقعت على معاهدات السلام، سواء بقناعات من مشايخها وأعيانها، أو بوساطات من مندوبين في الحكومة والاستشارة، أو من الوجاهات الحضرمية، لكن القليل منها كان يتشكك في جدية تلك الخطوة، وفي مدى قدرة الحكومة على تحقيقها وفرضها على الواقع، وذلك من خلال ما تقدم لهم من خبرات الصراع مع الحكومة المحلية قبل التدخل البريطاني بسلاحه المتطور كسلاح المدفعية، وسلاح الطيران على وجه التحديد.

فلم تجد الحكومة وحليفها البريطاني وبمباركة من شهداء الصلح من الوجاهات مناصًا من استعمال القوة القاهرة؛ لفرض إدخال تلك القبائل المتمردة في الصلح، وإلزامها بالتوقيع على معاهداته، ولا يتم استعمال تلك القوة لمجرد رفض الخضوع للصلح، بل بشروع القبيلة المتمردة في انتهاكه فعليًا، وعمل ما يعكر الأمن في محيطها سواء كان يتعلق بأمن الحكومة وجنودها أو بسلامة أفراد القبائل المجاورة لها.

ونتطرق هنا لمثال من هذه الحوادث التي رصدت الصحف الحضرمية أحداثها قبل أن تدونها أقلام المؤرخين في كتبهم، مع بعض القبائل المتفرقة في مناطق من غرب

حضرموت، وهي قبائل آل ذييب، وآل رشيد، والكرب، وآل برّجف.

تعيش قبيلة آل ذييب في غربي حجر، وتجاورها قبيلة بارشيد في مرتفعات لبنة، وقد ضربت أراضيهما بسلاح الطيران البريطاني، حسب ما ورد به الخبر الذي نشرته مجلة المنبر على النحو الآتي:

«آل ذييب قوم جُبلوا على قطع الطرق والنهب والسلب، وقد أرسلت الحكومة المستر فجس لإقناعهم بالعدول عن أعمالهم الهمجية، ولكنهم رفضوا كل مفاوضة، فأرسلت الطائرات لتأديبهم، وألقت قنابل عليهم وعلى قبيلة آل رشيد، وأخيرًا سلم آل رشيد بمطالب الحكومة وأرسلوا الرهائن، وسلم آل ذييب (آل العظم) بعدهم وسلموا الغرامة التي فرضت عليهم وأرسلوا الرهائن». (المنبر، العدد ١٠ و١١).

ومثل ذلك ما حدث لقبائل الكرب التي تعيش في شرق شبوة والعبر، وتناول الخبر سبب تعرض تلك القبيلة للضرب بالطيران، وهو اعتداؤها على بعض من يجاورها من قبائل (المناهيل)، ثم هجومها على بعض جنود الحكومة القعيطية، ومن الخبر يتبين أيضًا حرص الحكومة حينها على أن تقدم للرأي العام روايتها لما يحدث في تلك الهجمات على القبائل، وهذا هو نص الخبر:

«نشرت الحكومة المنشور الآتي ننقله للقراء بنصه:

قطعًا للإشاعات التي يذيعها أصحاب الأغراض السيئة نعلن لجميع أهالي البلاد، بأنه نظرًا لأن قبيلة الكرب نهبت جمالًا للمناهيل، وعند ذهابهم إلى العبر ألقى القبض جمعدار حامية العبر على الجمال، فهاجم الكرب الحصن في مساء الليلة الثانية من شهر أغسطس ١٩٣٩م، فقتل جندي (عبد من عبيد الشحر)، أصيب اثنان من الكرب إصابات بالغة، فقتل على إثرها أحدهما، ولقد أرسلت الحكومة الطيارات، وهي بطبيعة الحال متخذة الإجراءات الصارمة ضد الكرب الذين مُنعوا من الاختلاط بأهالي حضرموت لحين يصدر إعلان جديد». (المنبر، العدد ٧).

والقبيلة الثالثة التي وجدنا أخبارًا عن الهجوم عليها في الصحف

الصادرة حينها بحضرموت هي قبيلة آل بـرّجف من فروع العكابـرة، التي تسكن مناطق غرب حضرموت وقريبًا من مدينة المكلا، وجرى الهجوم على أراضيها من قبل القوات الحكومية بسبب احتكاكها بقبيلة مجاورة لها تدعى الحـامدي، وهي أيضًا من القبائل البدوية بغرب حضرموت، ورفض آل بـرجف الاحـتكام لرأي الحكومة في ما شجر بين القبيلتين؛ فكان الهجوم الذي أوردته مجلة المنبر مع أسبابه أو ملابساته، على النحو الآتي:

«في أثناء الصلح الأول (صلح الثلاث السنين الذي أقامه المستر إنجرامس)، حدث أن اعتدت قبيلة الحامديين على قبيلة آل بالرجف العكابرة، وقتلت فردين منهم، فاشتكى آل بالرجف على هذا الاعتداء وعدوه خرقًا للصلح، ولكن الحامديين قالوا إن وقت حدوث الحادث لم يكن أمر الصلح قد بلغهم، وعلى هذا رأى سعادة المستشار أن يحكم لآل بالرجف بالدية وحبس بعض الحامديين تأديبًا لهم، ولكن رفض آل بالرجف قبول هذا الحكم الذي عدوه مجحفًا بهم، قائلين إنهم لا يستطيعون قبول المال بدلاً بأولادهم، وذهبوا غير راضين، وانقضى أجل الصلح الأول، وأعلن الصلح الأخير (صلح العشر السنوات)، إلا أن آل بالرجف لم يقبلوه، فتركوا وشأنهم، وعقيب ذلك أطلقت الحكومة سراح من سجنتهم من الحامديين، فثارت ثائرة آل بالرجف، وعادوا للمطالبة بالإنصاف في دعواهم، ولما لم يجدوا من الحكومة جوابًا سوى الحكم الأول غادروا المكلا، وكمن بعضهم لنفرين من الحامديين فقتلوهما عند خروجهما من روكب.

وهنا تطورت المسألة، ورأت الحكومة وجوب تأديبهم، فجهزت حملة سار على رأسها سعادة المستشار المستر إنجرامس، يصحبه سكرتير الجيش المقدم أحمد بن ناصر البطاطي، وتولى قيادتها الميجر لال خان، وفي صباح يوم السبت ٩ مارس حملت الجنود على حصون بعض آل بالرجف في نعيمة، ونُصب مدفع ألقيت منه القنابل عليها، وكنتيجة لوجود البدو بين جدران الحصون والجنود أمامهم في مستوى لا يحجبهم شيء ما منهم قتل جنديان، وجرح خمسة، بينهم ضابط، واستولى الجنود على حصنين وهاجم الثالث، وفي هذه الأثناء نادى البدو أن لا قصد لهم في القتال الذي أجبروا على خوض غماره، وتدخل أحد المشايخ ذوي الوجاهة، وعقدت هدنة ليومين خلالها تجري المفاوضات بالسلم للحكومة والخضوع، وأقيمت حامية من ٥٠ من الجنود معسكرة في الحصون التي سقطت، وعليها الميجر لال خان، وعادت الحملة أدراجها للمكلا». (المنبر، العدد ١، السنة الثانية).

كانت تلك الهجمات، ولا سيما غارات الطيران، تثير نقمة القبائل؛ لما تسببه من رعب وأضرار في أرض القبيلة، وكانت بعض تلك القبائل تحاول مقاومتها والتصدي لها عبر الرمي المباشر على الطائرات المهاجمة، وحدث مرة أن هوت طائرة منها على أراضي إحدى القبائل؛ فسارع أفرادها إلى الفتك براكبيها البريطانيين الذين سلموا من السقوط، ولم يسلموا من قبضة رجال القبيلة المتضررة وغضبتهم؛ فلم يتركوهم إلا جثثًا هامدة، وحولوا طائرتهم إلى حطام، وقد نشرت هذا الخبر مجلة المنبر وورد فيه:

«بينما كانت إحدى الطائرات البريطانية تقوم بإلقاء القنابل على قبيلة آل العظم المتمردة إذ اختل توازنها، وكان فيها ثلاثة السائق وضابطان، فأعطت إشارة النجدة، وتمكنت من النزول بدون صعوبة غربي حورة ولكن، وما أشد آلام لكن، لمحها آل العظم وهي تهوي، فأسرعوا إليها، وأطلقوا الرصاص على راكبيها، وأجهزوا عليهم بالخناجر (الجنابي)، وهشموا الطائرة، وجاءت النجدة بعد ذلك، ولكنها بعد فوات الوقت، فنقلت المقتولين الثلاثة إلى عدن». (المنبر، العدد ١٠ و١١).

تلك هي تجربة السلام في حضرموت، بشقيها السياسي والقبلي، تلبستها نجاحات، وصادفتها مشقات، لكن الخط البياني على ما به من تعرجات كان يتجه صوب نجاح التجربة التي نالت مباركة المجتمع الحضرمي التواق لها والمتلهف إليها، بطبيعته وبمقتضيات زمنها، وكانت محاولات رفض ذلك السلام أو الصلح محدودة التأثير، ولم تشكل تهديدًا حقيقيًا على العملية برمتها، وأكثرها أتى بسبب طموحات سياسية، أو تنافس قبلي، تجاوزتهما الأحداث، ولم يكن بسبب رغبة عن السلام أو محبة للفوضى المطلقة، ولقد غرست تجربة السلام وما واكبها من جهود نهضوية للمجتمع ثقافة وإدارة شعورًا بمستقبل زاهر ينتظر حضرموت.

27
العدد (14)
أكتوبر
ديسمبر
2019م

ضعف الدولة الكثيرية ونهايتها

الأسباب والنتائج

(١٠٠٠هـ/ ١٥٠٠م - ١١٤٣هـ/ ١٥٩١م)

يسلم صالح بن دهلوس

الصراع بين أفراد الأسرة الحاكمة في الدولة الكثيرية على الحكم:

إن من أقوى الأسباب التي أضعفت الدولة الكثيرية، هو الصراع بين أبناء السلطان بدر بن عبدالله بوطويرق وأحفاده على الحكم في الدولة، ولعل أبرز هذه الصراعات والمنازعات على السلطة والوصول إلى الحكم وأخطرها هو الانقلاب على حكم السلطان الشرعي، إذ شهدت الدولة الكثيرية حالات من هذا النوع، والذي يعد سابقة خطيرة في تاريخ الدولة الكثيرية، وكان أول انقلاب في تاريخ هذه الدولة هو انقلاب السلطان عبدالله بدر بن عبدالله بن جعفر الكثيري على والده السلطان بدر بوطويرق في ٢٣ ربيع الأول ٩٧٦هـ/ ١٥٦٨م، ولم ينته الموقف عند هذا الحد، وتستقر أمور هذه الدولة الكثيرية، بل فتح الباب على مصراعيه؛ لتدخل الدولة الكثيرية في دوامة صراعات لم تنته إلا بنهاية هذه الدولة.

ففي حكم السلطان عبدالله بن بدر بن عبدالله بن جعفر بوطويرق الكثيري تأجج الصراع بين أفراد الأسرة الحاكمة، وكان أقوى المعارضين[١] للانقلاب على والده السلطان بدر بوطويرق منذ بداية عهد السلطان عبدالله بن بدر أخوه جعفر وقد تحالف معه الأمير مسعود بن ناصر، وعمل على تحريض المهرة ضد أخيه السلطان عبدالله بن بدر، واستمرت الصراعات والحروب بين السلطان عبدالله بن بدر من جهة، وأخيه جعفر والأمير ناصر والمهرة من جهة أخرى مدة من الزمن إلى نهاية حكم السلطان عبدالله بن بدر، وكان لذلك الأثر السلبي الذي أثقل كاهل الدولة الكثيرية بالنفقات المادية والبشرية، فقد خسرت الدولة أعدادًا من القادة والأمراء والعسكريين من القبائل المتحالفة، ومنهم آل كثير، وبخاصة أن هذه الحروب تتطلب المزيد من تجهيز الحملات المختلفة على المهرة، أو التصدي لغارات المهرة المتحالفة مع جعفر بن عبدالله والأمير ناصر بن مسعود. ومن

معارضي السلطان عبدالله بن بدر أخوه عمر بن بدر بن عبدالله بن جعفر بوطويرق، ولم يتردد السلطان عبدالله بن بدر في سجنه عندما لمس منه أول عمل يسيء إليه، وظل عمر بن بدر في السجن حتى وفاة أخيه السلطان عبدالله بن بدر (٩٨٥هـ/ ١٥٧٧م)، فقد تحفظ عليه الأخير خوفًا من معارضته الشديدة.

وبعد وفاة السلطان عبدالله بن بدر نشأت الصراعات وتعمقت، فقد تولى بعده ابنه جعفر بن عبدالله بن بدر بوطويرق (٩٨٥هـ/ ١٥٧٧م)، واستمر في الحكم حتى قتل سنة (٩٩٠هـ[٢]/ ١٥٨٢م) من أحد معارضيه في الحكم، ليتولى الحكم بعده ابنه عبدالله بن جعفر بن عبدالله، إلا أن حكمه لم يستمر بسبب خروج جده السلطان عمر بن بدر من السجن الذي تولى حكم الدولة الكثيرية بالقوة؛ إذ انتزع الحكم من عبدالله بن جعفر سنة (٩٩٦- ١٠٢١هـ/ ١٥٨٧- ١٦١٢م)[٣]، وتميزت مدة حكمه بشيء من الاستقرار، واشتهر السلطان عمر بن بدر بالعدل، وكان وافر العقل كثير العدل، وكانت سيرته مرضية.

ولعل من أسباب الصراع واحتدامه بين أفراد الأسرة الحاكمة على الحكم أن الدولة الكثيرية تفتقر لنظام معين تحدد من خلاله الشروط اللازمة لتولي السلطان الحكم، وأيضًا تفتقر لنظام يحدد تعيين ولي العهد.

إن مما لا شك فيه أن مثل هذه الصراعات تولد الضغائن والأحقاد ليس فقط بين أفراد الأسرة الكثيرية الحاكمة بل تتجاوز ذلك إلى قبيلة آل الكثير كلها مما يسبب تصدع القبيلة، ويمتد أثره إلى اختلاف القبائل الحضرمية، وأيضًا تحالفها، وتترك أثرها السلبي على عسكر الدولة الكثيرية.

بعد وفاة السلطان عمر بن بدر بن عبدالله بن جعفر بوطويرق الكثيري سنة (١٠٢١هـ/ ١٦١٢م) بالشحر تولى الحكم بعده ابنه عبدالله بن عمر، الذي استمر في الحكم ثلاث سنوات، ولكن هذا السلطان أول حاكم حضرمي يترك الحكم ويعزل نفسه وينزع امتيازاته في الجاه والثروة والسلطة، واختار بلاد الحرمين ليتفرغ للعبادة بالقرب من الحرم المكي والحرم المدني، وخلع نفسه عن الحكم سنة (١٠٢٤هـ/ ١٦١٥م)، وسلم الحكم لأخيه السلطان بدر بن عمر بن بدر بن عبدالله بن جعفر بوطويرق الكثيري[٤].

بدء تدخلات أئمة اليمن من الزيدية في الوصول إلى حضرموت:

بدأ أئمة اليمن من الزيدية يسعون للوصول والدخول إلى حضرموت، وأخذوا يتدخلون في شؤون الدولة الكثيرية بشكل عملي، وفي مدة تولي الإمام المؤيد محمد بن الحسن بن القاسم (١٠٢٩- ١٠٤٦هـ) أرسل كتبًا إلى سلطان الدولة الكثيرية في حضرموت وأعيانها، وفي هذه المدة كان يحكم حضرموت السلطان بدر بن عمر بن بدر بن عبدالله بن جعفر الكثيري بوطويرق.

ابتدأ ذلك التدخل من (١٠٢٤هـ/ ١٦١٥م)، ولكن هناك من ردَّ على رسائل الإمام المؤيد الزيدي، ومن الذين ردوا عليها ردًا صريحًا الشيخ العلامة علي بن عبدالله العيدروس المتوفى (١٠٤١هـ/ ١٦٣١م)، الذي رفض الإذعان لطاعة الإمام، وأن سلاطين حضرموت وأهلها متمسكون بمذهب أهل السنة والجماعة في الأصول والفروع المذهب الشافعي، الذي يختلف عن مذاهب الزيدية وبخاصة تلك الفرقة الشيعية الاثني عشرية الذي ينظر إليها علماء حضرموت وأهلها أنها فرقة مبتدعة وضالة، فهي تتبنى العقيدة الإمامية[٥].

وحصر الإمامة في ذرية علي بن أبي طالب رضي الله عنه. وأهل العلم في حضرموت ومنهم علماء العلويين، فهم كغيرهم من سكان حضرموت من أهل السنة والجماعة[٦].

وظل أئمة اليمن الزيدية خلال هذه المدة ينتهزون كل فرصة للتدخل في شؤون الدولة الكثيرية؛ ليتمكنوا من تحقيق أغراضهم، ويمدُّوا نفوذهم إلى حضرموت، وإدارتها سياسيًا وماليًا وإداريًا، وفرض مذهبهم على أهلها[٧]. لم تكد قدما السلطان بدر بن عمر تستقر في حكم الدولة الكثيرية سنة (١٠٢٤هـ/ ١٦١٥م) فبدأ تبادل الرسائل والمكاتبات مع إمام اليمن الزيدي، وكان مخلصًا في ولائه للزيدية شديد التعلق بهم، وأخذ يكاتبهم، وأشيع عنه اعتناقه للمذهب الزيدي، فازدادت الهوة اتساعًا والحالة حرجًا، حتى خطبوا للإمام في وادي حضرموت والشحر وظفار وغيرها، وعظم ذلك عند أهل حضرموت، واستمر السلطان بدر بن عمر في مكاتبته للإمام بنوع من المجاملة ظنًا منه أنهم سيكتفون بذلك[٨].

ولكن تغيرت سياسة بدر بن عبدالله بن عمر بن بدر بن عبدالله بن جعفر بوطويرق الكثيري إلى إبعاد الزيدية عن التدخل في شؤون

الدولة الكثيرية، والوصول إلى الحكم؛ للحفاظ على استقلال حضرموت، فأخذ يعد العدة لذلك ويجمع آل الكثير والشنافر، ويعقد جلسات سرية، وكان هوى آل كثير وميلهم مع أولاد السلطان عبدالله بن بدر، إضافة إلى ذلك نفور أهل حضرموت منه بعد أن أشيع عنه ميله للمذهب الزيدي، وذكر الإمام في خطبة الجمعة في عهده، ورأى السلطان بدر بن عبدالله الفرصة، فطلع الحصن سنة (١٠٥٦هـ/ ١٦٤٦م) مع جماعة من آل كثير، وألقى القبض على عمه بدر بن عمر وابنه محمد المردوف في الحصن بسيئون ليتولى حكم الدولة الكثيرية[٩]، ويعد هذا الانقلاب الثاني في تاريخ الدولة الكثيرية ليترك آثاره السلبية على حضرموت.

وتتابع تدخل أئمة اليمن في شؤون الدولة الكثيرية، والدخول إلى حضرموت وكان السلطان بدر بن عمر في الحبس (١٠٥٨هـ/ ١٦٤٨م) أخذ يكاتب الإمام المتوكل على الله إسماعيل بن الحسن القاسم، وأنه سلم له أمر حضرموت من جانبه، فكتب الإمام إلى السلطان بدر بن عبدالله بن عمر بسرعة إخراج عمه السلطان بدر بن عمر من السجن[١٠]، واستمر في مكاتبته السلطان بدر بن عبدالله، وطلب منه أن يولي عمه على ولاية ظفار، وكانت لهجة المكاتبات بين الإمام المتوكل على الله إسماعيل بن الحسن القاسم والسلطان لا تعدو حد المجاملات، وكان السلطان بدر بن عبدالله بن عمر يراوغ ويماطل في التنفيذ في الوقت نفسه ويظهر الطاعة للإمام المتوكل، ولكنه يبطن له غير ذلك حتى أوفد الإمام المتوكل إلى السلطان مندوبه صالح بن حسين الذي ألح عليه في إطلاق سراح عمه السلطان بدر بن عمر من السجن حينها استجاب السلطان بدر بن عبدالله إلى إطلاق عمه من السجن وتوليه ولاية ظفار[١١].

إن الصلات الودية التي نشأت بين الإمام المتوكل والسلطان بدر بن عبدالله لم تستمر إلا زمنًا يسيرًا حتى تغير الموقف تمامًا، وحدث ما لم يكن بالحسبان، وذلك بمطالبة أخيه جعفر بن عبدالله بن السلطان بدر بن عبدالله بولاية ظفار التي سبق أن أعطيت له، وتولى أمرها بعد الإفراج عنه من السجن بعد وصول السلطان بدر الحكم، وكيف وافق الإمام على انتزاع ظفار وتسليمها للسلطان بدر بن عمر بن عبدالله بن بدر وصارت الأمور بالاتجاه الآخر، وبالاتفاق بين الأخوين يتجه جعفر أخو السلطان بدر إلى ظفار، واستولى عليها وقتل ابن عمه بعد اشتباك قواته المؤلفة من آل كثير مع قوات عمه الذي فر هاربًا بحرًا إلى عدن ثم إلى ذمار، فلجأ إلى الإمام مع ولديه محمد وعلي[١٢].

م يبدأ الإعداد سنة (١٠٦٥هـ/ ١٦٥٤م) لإرسال جيش من الإمام المتوكل إسماعيل بن الحسن القاسم إلى حضرموت بقيادة أخيه الصفي أحمد بن الحسن، وتعد هذه المرحلة الأخيرة من تدخل أئمة اليمن الزيدية في شؤون الدولة الكثيرية واحتلالها حضرموت بغزو الجيش الزيدي مناطق حضرموت المختلفة سنة (١٠٧٠هـ/ ١٦٥٩م)، الذي هزم جيش السلطان بدر بن عبدالله، ثم ولي السلطان بدر بن عمر الكثيري حكم حضرموت من قبل الإمام المتوكل إسماعيل بن الحسن القاسم[١٣]، بدخول جيش الإمام المتوكل إسماعيل بن الحسن القاسم، ورغم المقاومة ورفض الغزو بقيادة السلطان عبدالله بن بدر بن عمر بن بدر فإن جيش السلطان عبدالله بن بدر وحلفائه انهزم مما أدى لسقوط الدولة الكثيرية.

وعين السلطان بدر بن عمر بن بدر بن عبدالله بن جعفر بوطويرق الكثيري من قبل الإمام، واستمر في الحكم، وتميز بالولاء والطاعة للإمام المتوكل إسماعيل بن القاسم، وبعد وفاة السلطان بدر بن عمر بن عبدالله سنة (١٠٧٣هـ/ ١٦٦٢م) عين من قبل الإمام ابنه محمد المردوف الذي أصبحت حضرموت تعاني ظروفًا مختلفة، وتمر بأسوأ أحوالها، واستمر محمد المردوف في الحكم سبع سنوات، وتوفي سنة (١٠٨٠هـ/ ١٦٦٩م)[١٤].

تنامي نفوذ العسكر من يافع في حضرموت ووجوده:

منذ عهد السلطان بدر بن عبدالله بوطويرق، أصبح عسكر يافع في جيش الدولة الكثيرية[١٥]، وما آلت إليه الأمور من أحداث ونشوء الصراعات واحتدامها بين سلاطين الأسرة الكثيرية الحاكمة؛ لتعطي فرصة ليمارس العسكر من يافع الدور الفاعل والمؤثر في أحداث الدولة الكثيرية ليستغلوها لتعزيز وجودهم وتقوية نفوذهم.

إن ضعف السلاطين وقصر همتهم وقلة هيبتهم، وصيرورة الأمور من سيء إلى أسوأ، مع نمو نفوذ العسكر من يافع وهيمنتهم، وأصبح لهم كلمة مسموعة، فعندما حدث الانقلاب الثاني من قبل السلطان عبدالله بن بدر بن عمر بن بدر بن

عبدالله بن جعفر بوطويرق الكثيري على عمه السلطان بدر بن عمر سنة (١٠٥٨هـ/ ١٦٤٨م) -وسبقت الإشارة لذلك- طلب الأمير عنبر أحد القادة والمقربين من السلطان الحماية من يافع فكلموا له السلطان الجديد عبدالله بن بدر، فأعطى الأمان للأمير عنبر وبعدها اتجه إلى عينات[١٦].

وبحكم العلاقة التي تربط الشيخ أحمد بن الحسين بن أبي بكر بن سالم (صاحب عينات)، والشيخ أبي بكر هرهرة اليافعي وزياراتهم المتبادلة، وكان للشيخ ابن أبي بكر بن سالم دور في يافع، ففي سنة (١١١٢هـ/ ١٧٠٠م)، وصل الشيخ أبوبكر هرهرة إلى حضرموت، ودخل سيئون، وطلع إلى حصن سيئون؛ ليقابل السلطان عيسى بن بدر بن عمر بن بدر بن عبدالله بن جعفر الكثيري، ثم سار باتجاه عينات، وعند العودة قابل عيسى بن بدر في حصن سيئون، وزار الشيخ أحمد عمر باعباد نائب المنصب بالغرفة، بهدف توثيق العلاقات بين الطرفين[١٧].

وتواصلت زيارات يافع إلى حضرموت، ففي سنة (١١١٣هـ/ ١٧٠١م) وصل إلى حضرموت الشيخ عمر بن صالح هرهرة، وكان يرافقه خمسون رجلًا من يافع ومن آل القعيطي، ورتب هذه الزيارة إلى مدن حضرموت شبام، والغرفة، وسيئون، وتريم، وعينات، وقابل الشيخ أحمد بن عمر باعباد في الغرفة الذي أكرم ضيافته هو ومن معه، وقابل السلطان عيسى بن بدر في سيئون فأحسن استقباله، وأكرم ضيافته.

وأقام السلطان بدر بن السلطان محمد المردوف بن السلطان بدر بن عمر، في تريم احتفالًا بقدوم الشيخ صالح بن عمر هرهرة، ونظم له استقبالًا رسميًا يليق بكبار الشخصيات، وبخاصة إذا عرفنا أن السلطان بدر بن محمد المردوف تزوج على أخت النقيب عبدالله بن همام قائد الحماية (الرتبة) لحراسة السلطان في تريم، ثم زار الشيخ أحمد بن الحسين بن أبي بكر بن سالم، وجلس أيامًا في عينات[١٨]، ووصف بعض المؤرخين الحضارمة أن هذه الزيارة ليست عادية، ولا يقتصر هدفها على زيارة الشيخ ابن أبي بكر[١٩] بقدر ما هي تؤسس لنشاط مستقبلي ليافع في حضرموت، ففي مدة حكم السلطان بدر بن محمد المردوف بن بدر بن عمر، الذي بدأ بسياسة جديدة تتميز بالموازنة والمرونة مع الأئمة الزيدية لا تهدف بالقطيعة والنفور من الإمام الزيدي، ولا تعني هذه السياسة الجديدة الانسجام والطاعة والولاء للإمام[٢٠]، بل أخذ ينتهج سياسة يهدف منها إعادة ترتيب الوضع السياسي في حضرموت وحلمه باستعادة مجد الأجداد وبخاصة جده السلطان بدر بوطويرق، وكان يعتقد أن بإمكانه الاستفادة من عسكر يافع لتحقيق غايته، وقد وقع تحت تأثير الشيخ أحمد بن الحسين بن الشيخ بن أبي بكر بن سالم الذي أشار عليه بالاستفادة من العلاقة مع الشيخ صالح بن عمر هرهرة، وأيضًا بتأثير صهره عبدالله بن همام أخي زوجته.

كل هذه المؤثرات جعلت السلطان بدر بن محمد المردوف بن السلطان بدر بن عمر يفكر بجدية بإحضار عسكر من يافع، ولتحقيق ذلك اتجه إلى يافع ويرافقه الشيخ صالح بن عمر هرهرة سنة (١١١٦هـ/ ١٧٠٤م)، وبعد ذلك عاد من يافع السلطان بدر بن محمد وبصحبته الشيخ صالح هرهرة، ومعه ستة آلاف رجل وصلوا إلى حضرموت، ونزلوا إلى تحت قرية الهجرين[٢١] غرب وادي حضرموت. في هذه الأثناء من جانب آخر ظهر السلطان عمر بن جعفر بن علي بن عبدالله بن عمر بن بدر، الذي جهز قوة جيش يتكون من ألف وخمسمائة رجل، منهم مائة خيال، ومعهم عدد من سلاطين آل كثير، وآل عبدالله، وعدد آخر من آل كثير، ومعه نحو مائتين من الزيود تهدف لمحاربة قدوم يافع إلى حضرموت، فالسلطان عمر بن جعفر الكثيري يحمل العداء ليافع، ورفض وجود يافع في حضرموت، وله علاقة طيبة بالإمام ويعظم شعائرهم الدينية، وكان يميل إلى بقاء تبعية حضرموت للإمام الزيدي، وتحت قرية الهجرين دارت معركة بين الطرفين خلفت عددًا من القتلى والجرحى، وأدرك السلطان عمر بن جعفر أن الهزيمة محققة، حينها فر من المعركة متجهًا إلى سيئون[٢٢]، وظل الاختلاف على أشده بين السلطانين بدر بن محمد المردوف والسلطان عمر بن جعفر، وفي هذه الظروف اتخذ السلطان عيسى بن بدر بن علي بن عبدالله بن عمر سيئون منطقة نفوذ لحكمه[٢٣]. وعبر عن وضع حضرموت المؤرخ سالم بن حميد بقوله: «كثر التخالف والتنافر والتصادم بين الدولة الكثيرية البين»، وأضاف قائلًا: «واستقوت عليهم الأجانب خصوصًا الفئة اليافعية، واستولت على مماليكهم وبلدانهم، وخرجوا منها لحتى انتهت رسم الدولة الكثيرية من تلك البلاد وخصوصًا المسفلة،

ولم يبق اسم الدولة إلا في محلات قليلة». وعن حالة حضرموت السياسية أضاف قائلًا: «وفي الوقت نفسه لا تزال الجيوش تخرج إلى حضرموت من اليمن، وكذلك الحروب والوقائع بين يافع والشنافر والعوامر وبني ظنة وغيرهم»[٢٤].

أوضاع حضرموت المضطربة والمتوترة وإشاعة الفوضى:

في سنة (١١٠٠هـ/ ١٦٨٨م) تعرضت حضرموت لأحداث غريبة عن العادات والأعراف المألوفة بين الحضارمة ومخالفة صريحة لأحكام الشريعة الإسلامية، وقد اشترك في القيام ببعض الأعمال المشينة بعض من أفراد أسرة السلاطين آل كثير، منهم محسن بن السلطان عمر بن بدر الذي تزعم مجموعة من آل كثير وبعضًا من الشنافر ومن العوامر وآل جابر ومن حوله، وتقوم هذه المجموعة بممارسة أساليب العنف والقوة والسطو والنهب، فعبر عن ذلك المؤرخ ابن حميد بقوله: «فلا يزالون يلعبون في حضرموت»، وتعني هذه العبارة ما تعنيه، بأن تلك المجموعة تجردت من أي اعتبارات، ولم تبال بأي وزن لتصرفاتها العبثية، فقاموا بغارة على دمون سنة ١١٠٠هـ، ومارسوا إشعال الحرائق في الدور وبعض الغرف وسلبوا الرعايا مواشي لهم من الأبقار والحمير[٢٥]، ثم اتجهوا إلى الغرف ديار آل زيدان من سكان هذه المنطقة فأحرقوها ونهبوها، وقد تصدى لهم آل تميم وعدوا ذلك تحديًا لهم وعدم إعطائهم أي احترام لحرمة مشارح آل بني ظنة ومسارحهم، وساندهم في موقف هذه الحامية من عسكر يافع في تريم، ونتيجة لهذا الاشتباك والقتال الذي حدث بين الطرفين كان قتلى من آل كثير ومن حالفهم، وآل تميم ومن حالفهم.

وتكررت هذه الغارات لكن آل تميم وآل زيدان وعسكر يافع طاردوا الشنافر من آل كثير والعوامر وآل جابر إلى تاربة[٢٦]، ولكن هذه المجموعة لم تتوقف عن ممارسة مثل هذه الأعمال، وغاروا على سيئون، ووصف ابن حميد هذه الأعمال البشعة بقوله: »لعبوا بها وفسقوا فيها«، ولم يتعرض لهم أحد، وكانت الحامية من عسكر يافع، عندما سمعوا بهذه الأعمال اتجهوا إلى حصن سيئون وتحصنوا فيه، فعبر عن هذه الموقف ابن حميد بقوله: «تمجح يا جرذ فالهر غايب»، تعبير حضرمي دقيق لغياب الدولة وحمايتها لرعاياها، وفي هذه الأثناء ظهر بعض من آل كثير، وتولوا الحراسة، واتفقوا على القيام بحماية (الربع) بعض بيوت يافع في سيئون لمعرفة بينهم، وأيضًا قاموا بحماية (الربع) ديار من دور الرعبة بسيئون مقابل دراهم دفع الرعايا لهم[٢٧].

فظروف حضرموت في هذه الحقبة تمر بحالة من الاضطراب والفوضى السياسية والاجتماعية، لذلك كانت الظروف قد ساعدت الفوضويين على ممارسة الأعمال من غير توقف، تداعت هذه المجموعة إلى غيرهم من الشنافر آل كثير والعوامر وآل جابر، فاتجهوا إلى تريم، وهناك طلعوا حصن السعادة، وكان هدفهم غزو أرض مناطق آل تميم، الذين بدورهم تداعوا فناصرهم العسكر من يافع ودارت معركة شديدة في موقع باجلحبان[٢٨]، فأنتجت قتلى وجرحى، ومن الذين أصيبوا في هذه المعركة محسن بن السلطان عمر بن بدر إذ أصيب بطلق ناري في حلقه وأسعف إلى مدودة، ثم تم نقله إلى بحيرة، وأصيب واحد من آل تميم.

ففي هذه الاشتباكات والاقتتال بين الطرفين تدخل الشيخ العلامة حسين بن عبدالله العيدروس ليصلح بين الطرفين، فأصلح بينهم، وكان له دور في إيقاف الحرب بين الطرفين واحترم كلا الطرفين حكمه[٢٩]، ففي يوم الأربعاء ٧ رمضان سنة ١١٠٤هـ وفي هذه المدة اعتصب مجموعة أخرى نحو مئتين وسبعين يحملون البنادق، ومعهم عدد من الخيل من آل كثير وبعض من آل كثير وبعض نهد يتزعمهم السلطان عيسى بن السلطان عمر بن بدر فدخلوا جعيمة وهدفهم آل سعد فرع من آل كثير، ومن الأعمال التي قاموا بها خربوا غرفهم وأحرقوا بعضها وأتلفوا زراعة تابعة لهم، وظلوا في جعيمة إلى وقت الضحى إلا أن آل سعد لم يتعرضوا لهم، وعاد السلطان عيسى بن بدر إلى سيئون دون أن يقتل أو يجرح منهم أحدًا[٣٠]، ولم يتضح لنا الأسباب الحقيقية للقيام بمثل هذه الأعمال إلا أنها تفيد بالعقوبة لهذا الطرف الذي كان متحالفًا ومؤيدًا للطرف الآخر في ظل الصراع المحتدم بين أفراد الأسرة الكثيرية الحاكمة، والذي كان لها أثر سلبي في الانقسامات والتصدع بين فروع قبيلة آل كثير، وتأثير تلك الانقسامات بين قبائل حضرموت وأثرها على سكان حضرموت، وحالة الأمن والاستقرار بها.

وفي سنة ١١١٣هـ حدث أن أحد الرعية من قرية شحوح ينادي السكان بصوت عالٍ بأنه له بقرة وحمارًا سُرقا من تحت بيته فطلب المساعدة لنجدته

باستعادة حقه، وعندما لم يجد أحدًا يجيبه اتجه إلى سيئون وأبلغ الناس بما حدث، ونادى فيهم بصوت عالٍ، فاستجاب له جعفر ابن السلطان عيسى بن بدر بن عمر بن بدر، فأخذ مجموعة، منهم من ركب الخيل ومنهم من يمشي على رجله، واتجهوا شمالًا إلى تحت عقبة مدودة، وعرفوا من الذي قام بالسرقة، وألزموهم بإعادة البقرة والحمار لأهله(٣١).

ثم ساءت أحوال حضرموت أكثر فأصبح السكان لا يأمنون على أنفسهم وأموالهم في بيوتهم، في ظل ظروف سياسية معقدة وتبعية لحكم إمامي ضعيف ليس له وجود في الواقع، وأصبح سلاطين آل كثير في حالة من الضعف، وتأخذهم الصراعات في ما بينهم على الحكم لأسوأ حالات الصراع، وعسكر يافع مهتمون بتعزيز نفوذهم وزيادة نشاطهم والسعي الحثيث لكي يكون لهم موضع قدم في حضرموت، ونشاط عشائري قبلي فوضوي يهدد حياة السكان، ونهب ممتلكات السكان وسلب وحقوقهم رغم بساطتهم وقلة ما لديهم(٣٢)، وانتقد العلامة الشيخ عبدالله بن علوي الحداد ما يمارسه بعض الأفراد المنتسبين لقبائل حضرموت معروفة لدى السكان بقوله: «أنا لا أقدر أن أحكم بكفرهم ولا بإسلامهم، إن حكمت بكفرهم فهم ينطقون بالشهادتين، ويصلون، وإن حكمت بإسلامهم، فهم يستحلون قتل الأنفس البريئة وينهبون الحلال»(٣٣).

وفي سنة ١١١٣هـ مارس بعض الأفراد من آل كثير والشنافر أعمال ترويع للسكان الآمنين في بيوتهم، فقد تعرضت البيوت لذلك في سيئون، لم تعرف حضرموت في تاريخها مثل هذه الظواهر الغريبة والسيئة على الحضارمة، بالمقابل ظهر بعض من آل كثير بربع حماية بيوت بعض عسكر من يافع الذين تربطهم معرفة سابقة، وربع بعض البيوت من أهل سيئون مقابل أخذ الدراهم مقابل الحماية(٣٤)، إلى جانب ما تمر به حضرموت من سوء أحوال سياسية واجتماعية وانتشار حالة الفوضى واضطراب الأحوال وعدم توفر الأمن والاستقرار، فإنها تعاني حالة اقتصادية صعبة بسبب الضائقة الاقتصادية في العيش، فقد ارتفعت الأسعار في شهر رجب سنة ١١٠٤هـ، فقد بلغ سعر الطعام البر سبع مصار بأوقية، وسعر الذرة تسع مصار بأوقية، وسعر التمر خمسة وعشرين رطلًا بأوقية، وغالبًا ما تتعرض حضرموت لمثل ذلك بسبب الجفاف وعدم سقوط الأمطار وجريان السيول. ففي تلك السنة (١١٠٤هـ) في شهر رجب سقى الله وديان وادي حضرموت وفروعه وعم الخير حضرموت. وفي سنة ١١١٠هـ مرت بحضرموت أحوال اقتصادية صعبة، فأصبح قوت الناس يعتمد على بداية موسم خريف التمر، وقبل أن ينضج وهو في حالته الأولى (البر) المبكرة من موسم التمر، وبلغ سعر أربعة أرطال تمر بأوقية، والذرة الطعام مُدَّين اثنين بأوقية، وتأثرت متطلبات الناس الأخرى بهذه الأسعار، ونتيجة لظروف الجفاف التي عمت معظم غرب وادي حضرموت، فقد غادر أهلها إلى وسط حضرموت وشمالها مع مواشيهم حيث توفر بعض المزارع القائمة على السناوة(٣٥)، والبحث عن مصدر للعيش.

ومن مظاهر الحياة الاقتصادية والأزمات المتتالية، وحسب ظروف حضرموت وحياة السكان، فقد ارتبطت حياة الناس بالمواسم في الزراعة سواء في وقت حصاد الذرة أو غير ذلك، ففي وقت موسم القطيع (خريف التمور)، وفي إحدى قرى حضرموت (تاربة) اشتهرت بالزراعة وكثرة النخيل فيها، حظيت تاربة باستقبال أعداد كبيرة من سكان تاربة المقيمين فيها، فقد توافد إليها في وقت موسم قطيع التمور من القبائل في حضرموت من كثيري وعامري وصيعري ونهدي ومن أهل وادي محمد ومن فروع كندة، وخلال هذه المدة من رغب في قطيع التمر في تاربة أخذ معه ربيعًا كثيريًا أو غيره في محطة الخريف مكان ما يقومون بقطع التمور(٣٦)، لئلا يتعرضوا وحدث أن يتعرض النخيل بقطع التمور منها من غير مأكولها أفراد آخرين بأسلوب السرقة وسلب التمور من النخيل بعدم موافقة ورضاء مالكي وزارعي النخيل، مما ارتفعت الأصوات وتطلبت الحماية والنجدة، فقد تحرك الأمير منصور بن سالم بن عنبر وركب ومعه ستين بندقًا، وتولوا حماية النخيل من المتقطعين وسرق التمور، وعندما علم بهذا بعض القبائل بقدوم هذه القوة التي فرضت الحراسة على نخيل تاربة هربوا خارج تاربة، وهناك قرى أخرى في حضرموت تتعرض لمثل هذه الظروف. واستمروا الحراسة بقيادة الأمير عنبر في فترة القطيع لمدة ثلاثة أيام، وأخذوا ما لهم مقابل الحراسة للنخيل من المتقطعين والسرق، وهي أيضًا تدل على ظروف حياة الناس الاقتصادية.

الهوامش:

١) بن هاشم، محمد: حضرموت، تاريخ الدولة الكثيرية، النفقة السلطانية، أشرف على الطباعة: محمد علي الجفري، ج ١، ط ١، ١٣٦٧هـ/ ١٩٤٨م، ص ٥٤، بافقيه، محمد بن عمر الطيب: تاريخ الشحر وأخبار القرن العاشر، تحقيق: محمد عبدالله الحبشي، مكتبة الإرشاد، صنعاء، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م، ص ٣٩٢- ٣٩٣.

٢) بافقيه، محمد بن عمر الطيب: تاريخ الشحر وأخبار القرن العاشر، ص ٤٢٨.

٣) ابن حميد، سالم بن محمد: تاريخ حضرموت المسمى بالعدة المفيدة الجامعة تواريخ قديمة وحديثة، تحقيق: عبدالله محمد الحبشي، مكتبة الإرشاد، صنعاء، ج ١، ط ١، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.

٤) ابن هاشم، محمد: الدولة الكثيرية، ج ١، ص ٦٣- ٦٧.

٥) باوزير، سعيد عوض: الفكر والثقافة في التاريخ الحضرمي، دار الطباعة الحديث، القاهرة، ١٩٦١م، ص ٧٨- ٧٩، ١٠٢- ١٠٣.

٦) باوزير، سعيد عوض: صفحات من التاريخ الحضرمي، مكتبة الثقافة، عدن، ط ١، ١٩٥٧م، ص ٢٦٠- ٢٦١.

٧) الفكر والثقافة في التاريخ الحضرمي.

٨) ابن هاشم، محمد: تاريخ الدولة الكثيرية، ص ٦٩- ٧٤.

٩) ابن حميد، العدة المفيدة، ص ٢٣٨- ٢٤٢.

١٠) العبدلي، أحمد فضل بن علي محسن: هدية الزمن في أخبار ملوك لحج وعدن، دار العودة، بيروت، ط ٢، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م، ص ١٠٢- ١٠٨، الشاطري، محمد بن أحمد: أدوار التاريخ الحضرمي، دار المهاجر، المدينة المنورة، تريم، حضرموت، ط ٣، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م، ج ٢، ص ٢٤٤- ٢٤٥.

١١) ابن هاشم، محمد: تاريخ الدولة الكثيرية، ج ١، ص ٦٨- ٧٢، ابن حميد، العدة المفيدة، ج ١، ص ٢٣٨- ٢٤٢.

١٢) ابن حميد، العدة المفيدة، ج ١، ص ٢٣٨- ٢٤٢.

١٣) باوزير، صفحات من التاريخ الحضرمي، ص ١٦٤- ١٦٧، بامطرف، محمد عبدالقادر: لمحات من تاريخ اليمن، دار الثقافة، الشحر، ١٩٨٣م، ص ٧٧- ٧٨.

١٤) ابن هاشم، تاريخ الدولة الكثيرية، ج ١، ص ٨٢- ٨٨.

١٥) بافقيه، تاريخ الشحر وأخبار القرن العاشر، ص ٤٢.

١٦) ابن هاشم، تاريخ الدولة الكثيرية، ص ٧٠.

١٧) ابن حميد، العدة المفيدة، ص ٢٣٨- ٢٤٠، د. الجعيدي، عبدالله سعيد: السلطنة الكثيرية الأولى، ص ١٨٩- ١٩٢.

١٨) العبدلي، هدية الزمن وأخبار لحج وعدن، ص ١٠٨- ١١١، ابن حميد، العدة المفيدة، ص ٢٤٩، ٢٦٢- ٢٦٩.

١٩) ابن هاشم، تاريخ الدولة الكثيرية، ص ٨٤- ٨٥.

٢٠) ابن حميد، العدة المفيدة، ص ٢٢١- ٢٢٢.

٢١) العبدلي، هدية الزمن في أخبار ملوك لحج وعدن، ص ١٠٧، ١١١، ابن هاشم، تاريخ الدولة الكثيرية، ص ٨٩- ٩٣.

٢٢) ابن حميد، العدة المفيدة، ص ٢٦٤، ٢٦٢.

٢٣) ابن هاشم، تاريخ الدولة الكثيرية، ص ٩٠- ٩٣، ابن حميد، العدة المفيدة، ص ٢٤٢- ٢٦٢.

٢٤) ابن هاشم، تاريخ الدولة الكثيرية، ص ٩٠- ٩٣، ابن حميد، العدة المفيدة، ص ٢٤٢- ٢٦٢.

٢٥) ابن حميد، العدة المفيدة، ج ١، ص ٣٠٠.

٢٦) ابن حميد، العدة المفيدة، ص ٣٠٠- ٣٠١.

٢٧) ابن حميد، العدة المفيدة، ص ٣٠٠.

٢٨) باجلحبان: منطقة تقع غرب السوري شرق الجبل عند مدخل تريم.

٢٩) ابن حميد، العدة المفيدة، ص ٣٠١.

٣٠) ابن حميد، العدة المفيدة، ص ٢٤٣- ٢٤٤.

٣١) ابن حميد، العدة المفيدة، ص ٢٥٠- ٢٥١.

٣٢) ابن حميد، العدة المفيدة، ص ٢٥٠- ٢٥١.

٣٣) الشاطري، محمد بن أحمد: أدوار التاريخ الحضرمي، دار المهاجر، المدينة المنورة، ج ٢، ط ٣، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م، ص ٣٢٣.

٣٤) ابن حميد، العدة المفيدة، ص ٢٥٣.

٣٥) ابن حميد، العدة المفيدة، ص ٢٤٤- ٢٥٥.

٣٦) ابن حميد، العدة المفيدة، ص ٢٥٠- ٢٥٢.

المصادر والمراجع:

١- أحمد فضل بن علي محسن العبدلي، هدية الزمن في أخبار ملوك لحج وعدن، دار العودة، بيروت، ط ١، ١٩٨١م.

٢- ثابت صالح اليزيدي، الدولة الكثيرية الثانية في حضرموت: نشأتها، صراعاتها، التدخلات الأجنبية، دار الثقافة العربية، جامعة عدن، الشارقة، عدن، ط ١، ٢٠٠٢م.

٣- سالم بن محمد بن حميد الكندي، تاريخ حضرموت المسمى بالعدة المفيدة الجامعة لتواريخ قديمة وحديثة، تحقيق: عبدالله محمد الحبشي، مكتبة الإرشاد، صنعاء، ط ١، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.

٤- سعيد عوض باوزير، الفكر والثقافة في التاريخ الحضرمي، دار الطباعة الحديثة، القاهرة، ١٩٦١م.

٥- سعيد عوض باوزير، صفحات من التاريخ الحضرمي، مكتبة الثقافة، عدن، ١٩٥٧م.

٦- سعيد عوض باوزير، معالم تاريخ الجزيرة العربية، دار الكاتب العربي، مصر، ط ١، ١٩٥٤م.

٧- عبد الله سعيد الجعيدي، السلطنة الكثيرية الأولى في حضرموت (٨١٤- ١١٤٣هـ/ ١٤١١- ١٧٣٠م)، تريم للدراسات والنشر، تريم - حضرموت، ط ١، ١٤٣٥هـ/ ٢٠١٤م.

٨- عبدالله بن حسن بلفقيه، صفحات مجهولة من تاريخ حضرموت، تعليقات علوي بن طاهر الحداد، تحقيق: مصطفى بن عبدالرحمن بن عبدالله العطاس، تريم للدراسات والنشر ٢٠٠٥م.

٩- محمد أحمد الشاطري، أدوار التاريخ الحضرمي، دار المهاجر، المدينة المنورة، تريم، ط ٣، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م.

١٠- محمد عبدالقادر بامطرف، لمحات من تاريخ اليمن، مطبعة الثقافة، الشحر، ١٩٨٣م.

34
العدد (14)
أكتوبر
ديسمبر
2019م

بُلْدَانُ وأَمَاكِنُ رَيْدَةِ الدَّيِّن والسِّيطَانِ المُجَاوِرَة لَها

حرف الباء

محسن علوي أبوبكر باعلوي

باجَوْف:

بفتح الحاء، وسكون الواو: مجرى يقع في الجهة الجنوبية الشَّرقية للرَّيدة، قريب من قُرى الباحِنْجِن: من (النَّحَي)، و(القَفَل).

ومجرى باجوف يشمل قرى عدة؛ منها: (اللُّصَيب): تصغير لَصَب، وفيها آل باشَرْخيم: بفتح الشِّين، وسكون الراء، ومرجعه إلى آل باقاري من الدَّيِّن من ثلث الأجاردة. وقرية (العَيْبَل): بفتح العين والباء، وسكون الياء بينهما، وفيها باشَرْخيم كذلك. و(الخَرْبة): بضم الخاء، وسكون الراء، وفتح الباء؛ وسكانه من آل باشِهاب من قبيلة نُوَح. و(دُقَيْم باحِنْجِن): تصغير دقم، وباحنجن: بكسر الحاءين، وسكون النون بينهما، وهم من حلف الدَّين من ثلث الأجاردة، ومُقدَّم الباحنجن اليوم: عُبيد باعَمَر، وكان الحَكَم في السابق عبدالله بن سالم باحنجن. و(القَنُوْر): بتشديد الواو: وهي آخر قرية في المجرى إلى جهة دوعن. وهناك قرية بين الدقيم وباجوف يسكن فيها آل بابلُعيد: بسكون اللام، وكسر العين، وآل (بارشيد): بكسر الشين، وكلهم من الدَّين.

والجوف في اللغة: المكان المطمئن المتسع من الأرض الذي صار كالجوف، وهو أوسع من الشعب؛ تسيل فيه التلاع والأودية كما في (تاج العروس، ٢٣/ ١٠٦).

وفي هذه القرى مساجد، ومدرسة، ويأتيهم السَّيل من الرؤوس في جهة النَّحي، وقَفَل، والرَّوضة، وتَصُبُّ في رباط باعشن من بلدان دوعن.

ويشتغل أهلها بالرَّعي، والحرث، والبيع والشراء.

و(باجوف) ذكرها أخونا الدكتور محمد يسلم عبدالنور في فهارس (الشَّامل) في القبائل، والصَّواب أنها مكان، وليست قبيلة.

باحُسَين:

نِقَاب -جمع نَقْبة- فوق حجل براورة من الجهة الشَّرقية، عذبة الماء، خاصة بأهل براورة، وإلى اليوم يستفيد أهل براورة منها في الشرب، وأهل البلاد يضيفون إليها الألف واللام في النطق فيقولون: الباحسين.

باحَفْص:

بفتح الحاء، وسكون الفاء: سوط يحوي نحو عشرين قرية، ويقع في الجهة القبلية -الغربية- للرَّيدة، ومن أهمها: روضة بلُعمش: بتشديد اللام من المشاجرة. وقِدَّة: على زنة جدَّة: فيها باعَمَر بفتح العين والميم من المشاجرة. والغَمِيس، وفيه المشايخ آل العمودي. وإلْمَر بَلْكسح: وقد سبق الكلام عليه في حرف الألف، وفيه آل بَلْكسَح من المشاجرة، وضِراك، وضِرِيكة، وعَزَالة وفيها المشايخ آل العمودي، والخانق، وفيها المشايخ آل العمودي كذلك.

وباحفص مرجعه إلى المشاجرة: قبيلة من حمير، وقاعدتهم وادي يبعث المسمى بوادي المشاجرة، ولهم بعض الشروج في الجهة الغربية لريدة الدَّيِّن.

وينبغي التنبيه إلى أن هذا الاسم (باحفص) يوجد في قبائل عدة أخرى غير المشاجرة؛ فهو من (المتفق المفترق في الأنساب):

٢- فباحفص: ديني من آل سُويدان: بضم السين، وفتح الواو، وسكون الياء: تصغير سودان، وآل سويدان أكبر قبيلة في الدَّين، ومسكن آل باحفص في (صبابير)، وقاعدة آل سويدان

(عتود)، وبـها مقـدم الطائفة، وهو اليوم سنة ١٤٤٠هـ: أحمد باطالب، ومرجع آل سُويدان، والأبارقة إلى قبيلة حمير، ويكونون ثلث الحلف الدِّيني.

٣- وباحفص: مُحمَّدي، من قبيلة المُحمديين الساكنين بوادي المحمديين المعروف بأرياف المكلا، وهم من قبيلة سيبان.

وممن اشتهر من آل باحفص:

١- الشيخ أبوبكر باحفص من علماء القرن الثامن الهجري، ذكره ابن جندان كما (في مختصر الدر والياقوت، ص٧٧).

٢- والشيخ أحمد بن أبي بكر باحفص العَمْدي، (ت ٧٨٤هـ)، ذكره (شنبل في تاريخه، ص١٨٥).

٣- والشيخ محمد بن أبي بكر باحفص، (ت ٧٨٥هـ)، ذكره (شنبل أيضًا في تاريخه، ص١٨٥)، ولعلهما من أبناء الشيخ أبي بكر المذكور أولًا.

٤- والشيخ عبدالله بن يحيى بن أبي بكر باحفص العمدي، (ت ٧٨٦هـ)، ذكره (شنبل في تاريخه ص١٨٦)، والعمدي نسبة إلى وادي عمد، ولا أدري هل المذكورون يرجعون إلى المشاجرة، أم إلى باحفص الدِّيني، وكلاهما مرجعه إلى حمير، والمعروف أن وادي عمد هو وادي قضاعة، ومرجعها إلى حمير، أو هم من قبيلة أخرى؟

باحَمْرَة:

بفتح الحاء، وسكون الميم، وفتح الراء: شرج صغير في جهة جنوب الضليعة، قريب من (عَتُود): بفتح العين، وضم التاء، ومن قرية (الأقحلين).

وسكانه من آل (باسَفَن): بفتح السين، والفاء: مرجعهم إلى آل سُويدان من الدَّيْن الحميريين.

وفي القرية مسجد، ويسيل ماؤها في (حجر).

باحَيَارَة:

بفتح الحاء، والياء، والراء: قرية صغيرة تتبع الشُّعَبَات تقع خارج حدود ريدة الدَّيْن غرب الضليعة، وهي ضمن سوط آل هَميم، وتتبع مديرية الضليعة من الناحية الإدارية، وسوط آل هميم يقع ضمن سوط بلْعَبيد الممتد من حضرموت إلى شبوة.

ويسكن (باحيارة) آل باظَفَر: بفتح الظاء، والفاء: من قبيلة آل هميم، ويرجعون إلى آل بلعبيد.

باخُرْبَة:

بضم الخاء، وسكون الراء، وفتح الباء: من شروج لُبْنة بارشَيد، يقع شرق الطَّويلة، والطويلة تقع شرق الحيسر.

سكانها من آل بارَشَيد: بفتح الراء، والشين من قبيلة نُوَّح، وفيها آل ابن مالك وهم مشايخ آل بارشيد، ومرجعهم إلى قبيلة نُوَّح.

ومصطلح الشيخ عند قبائل حضرموت يختلف عن الشيخ في قبائل شمال اليمن، فالشيخ في قبائل اليمن هو رئيس القبيلة، وأما عند قبائل حضرموت فهو من يحتكمون إليه، ممن له منزلة روحية لكنه يكون من غير القبيلة، وأما رئيس القبيلة الذي يحتكمون إليه، وهو منها فيسمونه بالمُقدَّم.

ورتبة الشيخ عند الحضارمة أعلى من رتبة القبيلي، والقبيلي هو من يسكن في تجمعات قبلية ويحمل السلاح، ويكون منتسبًا في الغالب إلى القبائل الكبرى كحمير، أو همدان، أو كندة.

والقبيلي له ثلاثة أحوال: الحال الأول أن يبقى على قبولته، والحال الثاني أن يتشيَّخ بأن يطلب العلم، أو يتصوف، فترتقي درجته، ويطلق عليه لفظ (الشيخ)، والحال الثالث: أن يتمسكن: بأن يعيش في الحواضر، ويترك حمل السلاح، كما هو حال أغلب قبائل كندة.

وشيوخ قبائل الشَّرق كالحموم: آل (باعبَّاد)، وشيوخ قبائل القِبلة: آل (العمودي)، وشيوخ قبائل العوابثة المذحجية: آل (باوزير).

وفي القرية مسجد، ولا حصن بها، ولا مدرسة، ويدرس أولادهم في الطَّويلة.

ويأتيها الماء من القُوْر، ومَصَبُّه في وادي دوعن.

باضَان:

بفتح الضاد: شرج يقع في جنوب الرَّيدة قريب من الضليعة، ومن (عَجَاز)، و(غابة باجَعَيم)، ومن (صبابير).

وسكانه من آل باضان، ويرجعون إلى باقاري من الدَّيْن، من ثلث الأجاردة، ومن آل باعُجْري: بضم العين، وسكون الجيم: وهم من آل باضان، كذلك، وآل بَلْكَسَر: بفتح الباء، والكاف، وسكون اللام بينهما، وفتح السين، من آل باضان، وفيه من المشايخ آل ابن مالك، ومرجعهم إلى نُوَّح، وهم مشايخ آل بارشيد النوحي.

وفي القرية مسجدان، وحصون، وكريفان، ويدرس أولادهم في مدرسة (عمر بن الخطاب) بقرية (عَجَاز) المجاورة، وبعضهم في الضليعة.

ويشتغل أهلها بالرعي، والحرث، والبيع والشراء.

وكانت بالشرج امرأة من آل ابن مالك تعالج بالطب العربي، ولديها خبرة عجيبة في علاج الأمراض، اشتهرت في ريدة الدَّيْن، وفي القرى والمدن المجاورة؛ بل وصلت شهرتها

إلى وادي حضرموت، بل إلى الحجاز، توفيت في السنة الماضية (١٤٣٩هـ).

وقول المقحفي (في المعجم، ١/ ١٢٨): «آل باضان من قبائل وادي دوعن بحضرموت لهم قرية تعرف باسم (شرج باضان) الواقعة بالقرب من مدينة الضليعة». غير دقيق؛ فآل باضان من قبائل ريدة الدَّين كما عرفت، والريدة تقع أعلى وادي دوعن، وكانت في النظام السابق قبل الوحدة تتبع وادي دوعن من الناحية الإدارية، أما اليوم فالضليعة مديرية مستقلة.

باطُرَيِّق:

بضم الطاء، وفتح الراء، وكسر الياء المثقلة، على صيغة التصغير على لهجة الحضارمة؛ قرية تقع في الجهة الحَجَرية - أي في الجهة الغربية الجنوبية للريدة، بين الضليعة ويبعث؛ سُمِّيت بذلك لأنها على الطريق الذاهبة إلى عقبة (المِدْلاة) فوق (يبعث).

وهي غرب الضليعة، وتبعد عنها بنحو (١٥) كلم.

وسكانه من آل بابَدَر: بفتح الباء، والدال: ومرجعهم إلى آل باقاري من الدَّين من ثلث الأجاردة.

وفي القرية مسجدان، أحدهما قديم، والآخر حديث، ولا توجد بها مدرسة إنما يدرس أولادهم في الضليعة، أو في (دُقَيْم بَلْحَرَك)، وبها حصنان.

باطَوِيْل:

بفتح الطاء، كسر الواو، وسكون الياء: نقاب -جمع نقبة- بعد الحضيراء (الخضيرة)، تقع شمال الرَّيدة على الطريق القديمة وأنت ذاهب إلى عقبة قيدون، كانوا في القديم يحفرون النقاب على الطرق لأجل شرب المسافرين.

باظَفَار:

بفتح الظاء، والفاء: شرج من شروج براورة بلد السَّادة آل الجيلاني يقع في الجهة القبلية -الغربية- لبراورة.

سمي بذلك لأنه تنبت فيه (الظُّفرة): بالضم: نبات حرِّيف كالظفر يشبه قشور الأناناس، ينفع القروح، ويستخدم في علاج الرُّكب يُسحق، وتضمد به الرُّكبة.

كان به حصن وانهدم، وهو حجل زراعي، ومراع، ويزرع في حجله البُر الهلباء، والذرة، والمسيبلي، والدُّخن (نوع من الذرة)، وتوجد في مراعيه أشجار العَوسَج، والقَرَظ، والقَتَاد، والشُّحط، والسِّدر، والضُّب، والسُّمُر، والنُّتش.

ومحلُّه مظنَّة لوجود الأرانب البريَّة، ولهذا يقصده القناصون، والصيادون.

ويستقي باظفار من شرج بَرِيْرة - بسكون الياء- ويصب في الحَتَّار، ثم في الحَنَكة، ثم في شرج المِلاح.

باعَمَر:

نقاب في الطريق الذاهبة من الضليعة، وبراورة إلى دوعن إلى عقبة الخريبة، تمر بالزَّعفرانة، ثم بجول شَعْفور فوق الخريبة، ثم تنزل منه إلى عقبة شعفور بالخريبة، وهي طريق رجل، قديمة، وتسلكها أيضًا الجمال، والحُمُر، ويرتادها المسافرون والتجار ينقلون البضائع من وإلى سوق الخريبة، وهي عقبة وعرة ليست بالسَّهلة كسائر عقاب الخريبة، ورحم الله الشاعر القائل:

تَعَبْتِيني عقابش كبيرة يالخريبة

باغَنَيْم:

بفتح الغين، والنون، وسكون الياء، وضبطها العلَّامة علوي الحداد في (الشَّامل، ٢/ ٥٠٣): «بكسر ففتح فسكون»، والأمر فيه سهل، لأنهم ينطقونها بين الفتح والكسر.

قرية وشرج من شروج آل بايومين تقع في الجهة الغربيَّة للرُّيدة قريب من (الأسيودات).

وسكانها من آل باكَرْشُوم: بفتح الكاف، وسكون الراء، وضم الشين: ومرجعهم إلى آل بايومين من حلف الدَّين، من الثلث الكندي.

وفي القرية مسجد، ومدرسة يدرس فيها أولادهم مع أولاد القرى المجاورة كالأسيودات.

وفي القرية حصن، وكريفان للماء.

ويشتغل أهلها بالرَّعي، والحرث، والبيع والشراء، والسَّفر.

وذكرها أخونا الدكتور محمد يسلم عبدالنور في فهارس (الشامل) ضمن فهرس القبائل، والصواب أنها قرية، وليست قبيلة.

*وباغنيم: أيضًا اسم نقاب واقعة في الطريق من براورة إلى (باغنيم)؛ سُمِّيت بذلك لأنها تقع في طريق باغنيم.

باقَرَادِيْد:

بفتح القاف، والراء، وكسر الدال، وسكون الياء على صيغة الجمع؛ كخرطوم وخراطيم: شرج من شروج الضليعة، يقع في الجهة الشرقيَّة للضليعة على بعد (٣٠٠) متر، وهو عبارة عن أحجال زراعية تابعة لأهل الضليعة.

ويأتيه السيل من (الأكارع) الواقع في الجهة الشرقية منه، ولا يوجد به حصن.

باكُبَيْدَة:

بضم الكاف، وفتح الباء، وسكون الياء: تصغير كَبد: قرية تقع على رأس الأقحل في الجهة الشرقية الشمالية، بالقرب من بلدة (الوليجات)، ليس بينهما إلا نحو عشر دقائق بالرجل، وكذا من بلدة (باويس)، وهي ضمن سوط الأبارقة.

وهي واقعة على الطريق القديمة الذاهبة إلى دوعن، وفي المثل: (ما تعرف الطريق إلا من باكبيدة)؛ يعني طريق دوعن.

وسُمِّيت بكبيدة لأنها وسط الجبال، وفي (تاج العروس، ٩/ ٩٠- ٩١): «والكَبد: وسط الشيء، ومعظمه، وفي الحديث (في كبد جبل) أي جوفه من كهف، أو شعب». اهـ.

وتوجد في هذه الجهات من مسميات البلدان ما هو على مسمى أجزاء الإنسان، أو الحيوان: كالكُتيِّفة، والوُريِّكة بالتصغير، وكلتاهما من شروج لُبنة بارشيد، والضلعة: حسر في الطريق إلى دوعن سيأتي ذكرها في حرف الضاد، وفخيدة قرية في وادي عُوَج (الهُوتة) بأرياف المكلا.

وسكان (باكبيدة) من آل (باقَحْدُوم): بفتح القاف، وسكون الحاء، وضم الدال من الأبارقة من ثلث الدَّين الحميري، وآل (باحَسَر).

وأغلبهم -يعني آل باقحدوم- سافروا منها إلى الهند، ولا يوجد اليوم بها سوى أسرة واحدة منهم مع آل باحسر، باعوا جزءًا من أرضهم لباحَكُوم من بلاد دوعن.

وفي القرية مسجد، وكريف، وبها حصن.

ويشتغل أهلها بالرعي، وفي الحجل.

ويسيل ماؤها في شعب قيدون بدوعن.

باكَلَّة:

بفتح الكاف، وكسر اللام المثقلة: نقاب تقع فوق حجل براورة من الجهة الشمالية على الطريق الذاهبة إلى الزُّروب، وإلى الوليجات، والذِّياب.

بامَجْبُور:

بفتح الميم، وسكون الجيم، وضم الباء: شرج يطلق على الحنو، يقع في شمال الرُّيدة قريب من (صبابير).

وسكانه من آل (بامَجْبُور): ويرجعون إلى آل سُويدان من الثلث الحميري للدَّين.

وقول المقحفي في (معجم البلدان، ١/ ٨٣٠): «وديارهم - يعني قبيلة آل سويدان في الشِّحر بحضرموت» غير صحيح؛ بل يسكنون ريدة الدَّين.

وذكر ابن جندان آل بامجبور في قبائل كندة كما في (مختصر الدر والياقوت، ص٣٧)، وقال: «من سكان بلاد الدوعن، وهم أصحاب الصفق في الأسواق». اهـ فعلى ما ذكره تكون هناك قبيلتان بالاسم بنفسه، إحداهما من حمير، والأخرى من كندة، فهو من (المتفق والمفترق في الأنساب)، هذا إن كان ما ذكره صحيحًا.

فيه مسجدان، وكريف للماء.

ويشتغل أهله بالرعي، والحرث، والتجارة.

بامَقْحُوف:

بفتح الميم، وسكون القاف، وضم الحاء: من شروج القثم، يقع في الجهة الشرقية للرُّيدة، قريب من الغُوَيْل، وشرق السُّويرقة الواقعة على الطريق المعبد المسمى عند الناس بالخط، وتبعد بامقحوف عن الخط بنحو ثلث ساعة.

وفيها مسجد.

ويسكنها آل بامقحوف، وهم من (عيال علي بامِسَلَّم): بكسر الميم، ففتح، فتشديد اللام المفتوحة: من قبيلة القثم، ومرجع القثم إلى قبيلة (الخامعة)، والخامعة يقول أهل الأنساب إنها من سيبان، وهم -الخامعة- خمس ديار: باصرة وفيهم بيت الرئاسة، وباقديم، والقثم، وبارشيد بكسر الشين، وباسلوم.

والقثم أربعة بيوت:

آل بامغرومة، وآل المقدم، وآل الصُّقعان، وعيال علي.

وبيت عيال علي يشمل عدة فروع: منهم: آل باوقَّاش بتشديد القاف، وابن جُرَيِّد: بتشديد الياء المكسورة، وآل باسِت، وآل بامقحوف، وآل باجُبَير، وعيال مبارك، وآل بامسلَّم، وآل بَلْعجم، والأخيران يسكنان في لجرات من بلاد دوعن.

وكانت التقدمة في بيت بامغرومة.

والقثم أصحاب إبل، وحدثني شيخنا القاضي سعد باشكيل أنه في أيام النظام السابق حصل خلاف بين القثم والدَّين حول حجر الأراضي، وذلك أنَّ الدَّين كلما رأوا رَهُوة وهو المكان المنخفض من الأرض الذي يجتمع به ماء السماء حجروها لأجل أن تكون شرجًا، فعطَّل ذلك على أصحاب الإبل، واشتكوا عند مأمور دوعن، فكونت لجنة لحل المشكلة مكونة من المأمور ومن مسؤول أمن الدولة، ومن قاضي دوعن، وهو شيخنا سعد باشكيل فقاموا بزيارة جميع الشروج في السيطان، وحلوا المشكلة، وألغيت كثير من الشروج المصطنعة.

وبامقحوف يأتيها السَّيل من العَبْلا، ومن باجوف، وتصب في وادي دوعن.

بامَنْصُور:

شرج يقع في الجهة الشمالية للرُّيدة قريب من الزُّروب، ومن براورة، بينه وبين براورة نحو خمس دقائق بالسيارة، وعشرين دقيقة بالرجل.

وفي الشرج دار واحدة، ومسجد، ونخيلات، وهو لبامنصور من الأشاعلة الكَرَب، وكان في القديم ملكًا للأبارقة، فاشتراه بامنصور، ثم بعد ذلك باع جزءًا منه لباخربوش صاحب (إلمر)، وبينهما في ذلك منازعات طويلة في المحاكم استمرت نحو خمسة وعشرين سنة، وهي من عجائب المحاكمات وغرائبها.

ويسكن -بامنصور- اليوم في الشرج من مدينة المكلا.

وينبغي التنبيه إلى أن هذا الاسم (بامنصور) يوجد في قبائل عدة أخر؛ فهو من المتفق المفترق في الأنساب:

٢- فبامنصور: كندي، ذكره ابن جندان في قبائل كندة كما في (مختصر الدر والياقوت، ص١١٥).

٣- وبامنصور: سومحي (ومرجعهم إلى سيبان)، ومسكنهم في يُوَن من وادي حجر.

وذكر العلامة علوي بن طاهر الحداد في (الشامل، ٣/ ٧٨٥) بلدة (جريف آل بامنصور) في الوادي الأيسر من دوعن، فلعل مرجع هؤلاء إلى كندة، والله أعلم.

وممن اشتهر من آل بامنصور الكندي الشيخ علي بن عبدالله بامنصور، وعقيل بن مسلمة بامنصور ذكرهما ابن جندان في الكتاب المشار إليه سابقًا (مختصر الدر، ص١١٥).

وذكر الشِّلِّي في (المشرع الرَّوي، ٢/ ٧٢) عمر بامنصور تلميذ السيد أحمد بن علوي جحدب باعلوي.

باوَيْس:

بفتح الواو، وسكون الياء: شرج يقع في الجهة الشرقية الشمالية للرُّيدة، على الجهة الشرقية من بلدة براورة بالقرب من الوليجات، ومن باكبيدة، وقد سبق في (باكبيدة) أن بينها وبين بلدة (باويس) نحو عشر دقائق بالرجل.

وهي واقعة – كباكبيدة - على صبر الأقحل، وتقرب من حدود سوط القثم.

وسكانها من آل باسالم من الأبارقة، وآل باقحدوم كلاهما من الثلث الحميري للدِّين.

وفي القرية مسجد، ولا مدرسة بها إنما يدرس أولادهم في مدرسة باكبيدة الابتدائية القريبة منهم.

ويصب ماؤها في الغُوَيل من شروج القثم، ثم في وادي دوعن.

بايَوْمَيْن:

شروج بايومين تقع في الجهة الشمالية الغربية للرُّيدة تمتد حول رأس وادي الخميلة، ورأس وادي الشعبة.

وتشمل قرى عدة، منها: الحِجلَين: وهي قاعدة آل بايومين، وباغنيم، وبَلْجنف، والنُّخيلات، ومَدْهُون، ودفيقة، وزَيْد الهابطي، ودَلَثْلة، والصُّل، وبَجيْدة.

وآل بايومين يرجعون في النسب إلى قبيلة كندة، ذكرهم ابن جندان في قبائل كندة كما في (مختصر الدر والياقوت، ص٢٢٢)، وقال: ومسكنهم في الأصل ريدة الدِّين، وهم وآل إلياس على جد واحد ... ثم قال: ويرجع نسبهم إلى سعيد بن حويل بن سعد بن أبي يومين... إلخ.

ثم ذكر من اشتهر منهم؛ وهو الفقيه علي بن سلّوم بايومين (ت ١٠٩٥هـ).

وقوله: (وهم وآل إلياس على جد واحد)، صحيح، وقبيلة إلياس من قبائل الدِّين، وتسكن في (عَتُود)، كما سيأتي بيانه في حرف العين بإذن الله.

ويذكر أهل هذه الجهات حكاية مفادها أن ثلاثة إخوة من كندة ذهب أحدهم إلى ريدة الدِّين، وقال لإخوته: سأمكث يومين وأرجع؛ لكن لما وصلها، طاب له فيها العيش، فاستقر بها، فقيل له: بايومين.

وذهب الثاني إلى حجر، وقال: (سأدغر): أي سأدخل عليهم، وأنا قائم، ثم سأرجع، بمعنى أنه لن يجلس بها؛ بل سيرجع إثر وصوله، فمكث واستقر بها، فقيل له: ابن دغار، وذهب الثالث إلى دوعن، واحتفظ بها فقيل له: ابن محفوظ.

وينبغي التنبيه إلى أن الدِّيْن ليست قبيلة واحدة؛ بل هو حلف مكوَّن من ثلاث قبائل؛ هي: (الأجاردة، وحمير، وكندة)، وسيأتي مزيد إيضاح لهذا عند الكلام على ريدة الدِّين في حرف الراء.

والظاهر أن العلامة علوي بن طاهر الحداد يعتقد أنهم -يعني الدين- قبيلة واحدة، بدليل قوله في (الشامل، ٢/ ٥٠٣): ويقال إنهم - يعني آل بايومين- من كندة، وصريخهم للدين». اهـ والصواب أن آل بايومين من حلف الدين، ولا ينافيه كونهم من كندة.

ومن آل بايومين: آل باكرشوم، وآل عِفشان بكسر العين، وآل بلُكسر بفتح اللام المثقلة، وآل ابن مبارك، وآل بامصيِّم بتشديد الياء المكسورة، وآل باشميل، وآل بَلْجنف، وفيهم - أي

آل بلجنف التَّقدمة والرئاسة.

ثم صارت إلى بلكسر، ثم إلى بامصيم، ومقدم آل بايومين اليوم -سنة (١٤٤٠هـ)- سعيد باصواب ساكن في النَّخيلات تحت الحِجلين.

بَجُود:

بفتح الباء، وضم الجيم: شعب فيه مزارع ورمام، وفيه أملاك لآل جبير الساكنين بلدة الرَّضْحَين بوادي عمد.

ويقع بعد الحِجلَين في الجهة الغربية للرَّيدة.

وفي (تاج العروس، ٧/ ٣٩٨): «وبَجَدَ بالمكان بُجُودًا: أقام به»، وفيه: «البَجْدة: بفتح فسكون: الأصل، والصحراء، والتراب، وبجودات: مواضع، وربما قالوا: بَجُودة».

ويسكن في بَجُود قِلَّة من الناس من آل باكرشوم، وابن سالمين.

وبجود يأتيه الماء من (غيضة المشايخ آل العمودي)، وتصب بعد ذلك في وادي عمد.

بِجَيِّدة:

بكسر الباء، وفتح الجيم، وكسر الياء المشددة: قرية تقع في الجهة الغربيَّة للرَّيدة بعد الحِجلَين قريب من (مَدْهون)، ومن (المِقْتلة)، وربما زيد فيها الألف واللام التعريفية، فيقال: (البجيدة).

ويسكنها آل باسَنَام: بفتح السين، والنون: من الدَّيِّن، وآل باشُميل: بضم الشين، وفتح الميم، وسكون الياء: من آل باقضاعة ومرجعهم إلى آل بايومين من الدَّين من الثلث الكندي.

وذكر ابن جندان آل باشميل في أنساب كندة، كما في (مختصر الدر والياقوت، ص ١١١)، وذكر أنهم من سكان دوعن؛ لكن ذكر العلامة علوي بن طاهر الحداد في (الشَّامل ٢/ ٧٤٠) أنَّ العلامة القاضي محمد بن أحمد باشُميل نسب نفسه إلى الأزد في الكتاب الذي ألفه عن طلبهِ للعلم».

وفي القرية مسجد، وكريفان.

ويشتغل أهلها بالرَّعي، والحرث، والبيع والشراء.

بَرَاوَرَة:

بفتح الباء، والراء الأولى والثانية، والواو بينهما: وضبطها العلامة علوي بن طاهر الحداد في (الشَّامل ٢/ ٥٠٣) بكسر الواو: وهي من كبريات قرى ريدة الدَّين، ويقال لها أيضًا (حوطة السادة آل الجيلاني)، و(جول السادة):

يا مُسَافر على عَقْبَة بضَة
سَلِّمُوا لي على كُل مَن عَبَرَ
سَلِّمُوا لي على الجُول النَّدي
برَّة الهاشمي أرض المَسَرَ
نسَّم الله على مَن به ضَجَرَ

وقول المقحفي في (معجم البلدان ١/ ١٥١) إنها: «قرية في منطقة الضليعة». غير سديد، فليست هي في الضليعة؛ وإن كانت تابعة لها من الناحية الإدارية في النظام القائم اليوم، وهناك مناطق خارجة عن حدود ريدة الدَّين فضلًا عن الضليعة تتبع الضليعة في هذا النظام؛ كالمناطق الواقعة في سوط القثم، وسوط المعوس، وسوط آل هميم.

تقع براورة على ظهر الأقحل في الجهة الشمالية للرَّيدة، تبعد عن الضليعة بنحو ربع ساعة بالسيارة، ويحدها من الشرق الوليجات، وعَنَق بَلْشرف، ومن الغرب الأخشاب، ومن الجنوب لبيضين، وبريُرة، ومن الشمال الزُّروب، وشرج بامنصور، ومدخلها من الطريق المعبد -خط الإسفلت- من عند محطة باحنحن تتجه جهة الشمال في طريق غير معبد، ثم تنحني إلى جهة القبلة فتأتي منه على كريف باماخش، ومنه تنزل على براورة في جهة الشمال.

وتعد براورة خُبَة، والخُبَة هي الأرض الواسعة بين عطفة جبلين يحيطان بها مِن بُعْد، ويقابل الخبة الحَنَكة: وهي الأرض الضيقة بين عطفة الجبلين.

وسميت بذلك إما نسبة إلى البَرَّ:

براورة

بفتح الباء؛ لكونها واسعة الأرجاء، ومنه سُمِّيت الصحراء بَريَّة، وتجمع على براري، وإما من البرِّ بالكسر؛ لأنها برَّة بأهلها.

وكانت براورة في القديم ملكًا لبَلْشَرَف من الأبارقة، ثم اشتراها منهم السَّيد الجيلاني.

وقَدِمَ جدهم الجيلاني من (روضة بني إسرائيل) بوادي ميفعة جنوب شرق شبوة وأصله من بغداد، وما يزال جماعة من آل الجيلاني في الروضة يلقبون بالبغدادي، قدم رحمه الله على مطيَّة له يقودها عبده يبحث عن أرض للسكنى، فبركت ناقته في بريرة أولًا، ثم قامت بعد ذلك وبركت مرة أخرى في براورة في المكان المعروف اليوم بالمقبرة، ولم تُطعه هذه المرة في القيام، فاستبرك بالمكان، وقال قولته المشهورة: ناقة الحيِّلة من بريرة إلى براورة: أي المحلة.

وكان بها حصن قديم للأبارقة وسط البلاد، فذهب إليه السَّيد، فاستضافه من في الحصن، ووضع قشر البُن على الغطاء (طبق مصنوع من الخُوص)، وأخذ يعرضه على النار، ويحمص عليه البُن، والغطاء لا يحترق، وقال للسَّيد هات ماء للقهوة، فذهب السَّيد وجاء بالماء في الخُبْرة (سَلَّة الرُّطب): وعاء مصنوع من الخُوص)، فلم يتقاطر منها الماء، فلما رأى ذلك قال للسَّيد: لا يصلح سيفان في جفير: أي في غمد واحد، وترك للسَّيد المحلة بها.

ويقال: إن السَّيد كان في حجله (مزرعته) يومًا، فجاءه سائل فأعطاه وأكرمه بسَبُول -السَّبولة سُنبلة القمح أو الذرة-، ثم جاءه من مكان آخر، فأكرمه، ثم جاءه من مكان ثالث

كريف باماخش

فأكرمه، وقال له: ما ألتعك من سائل -أي ما أثقلك-، فقال له السائل: وأنت ما أكرمك من سيِّد، ثم رد عليه سَبوله، فعرف أنه الخضر، فتمنَّى أن يملك سبعة شروج، فاستجاب الله له، وبلغه أمنيته، بل أصبح آل الجيلاني أكثر من يملك الشروج في ريدة الدَّين، بل لهم أملاك خارج بلدتهم براورة ملكوا في المكان القريب من (شرج بامنصور) ثم باعوه لابن دحمان العمودي من أهل الشُّعبة، وملكوا في (الذياب) وفي (الحنو)، وفي أماكن وبلدان عدة.

ويسكن براورة السادة آل الجيلاني، وفيها آل بافَرَج، وآل باسُوَيلم.

وآل الجيلاني يرجع نسبهم إلى أبي صالح نصر بن أبي بكر عبدالرزاق بن علَم الأولياء، وشيخ بغداد والإسلام عبدالقادر بن أبي صالح عبدالله الجيلاني، المولود بجيلان الواقعة بإيران سنة (٤٧١ هـ)، والمتوفى سنة (٥٦١هـ)، وهو حسني من ذرية الحسن المثنى بن الحسن السبط بن الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنهم وأرضاهم، وهناك أسرة أخرى في حضرموت من آل الجيلاني يرجع نسبهم إلى آل باعلوي الحسينيين.

وآل الجيلاني الحسنيين الذين في براورة ديار عدة: آل البامحمد، وآل باصالح، وآل باجيلاني، وآل باحمد، والبابكر، والبامسيبلي، والبامرضاح، والباحسين، والباهادي، وبعضها ألقاب كـ(بامسيبلي)، و(بامرضاح).

ويشتغل أهلها بالتجارة في بلدهم، وفي دوعن، وفي روكب، وجول مسحة، وبالزراعة، والرعي، والتدريس في المدارس الحكومية في بلدهم براورة وخارج بلدهم، وقسم منهم مسافرون في السعودية.

وتشتهر براورة بالغَرْيَل وهو ثمرة مستديرة تشبه البطاطس الصغيرة تنبت أسفل الأرض بإذن الله وبدون بذور، وله طعم لذيذ، يقال إنه نفع السادة أيام المجاعة، ولهذا قيل لهم سادة الغريل، ويقال إن هذه الثمرة لا تنبت في شيء من بلدان الريدة إلا في براورة.

وبها خمسة مساجد: الجامع الكبير، ومسجد صالح بن علوي تحت حصن باحسين، ومسجد الباهادي تحت الحصن، ومسجد الفاروق، ومسجد صغير وسط البلاد.

وبها خمسة حصون: حصن باحسين، وحصن المجموعة: وهم الباصالح، وبامحمد، وباحمد، وباجيلاني، وحصنان لباهادي، وحصن قديم كان للأبارقة في وسط البلاد هدمه باتيس أيام النظام

حصون براورة

السابق وبنى مكانه مدرسة.

وفيها مدرستان: مدرسة قديمة تسمى بمدرسة (١٤ أكتوبر)، أقيمت في محل حصن قديم للأبارقة هدمه باتيس أيام النظام السابق، ثم أنشئت مدرسة حديثة في جهة الشرق تسمى عندهم بالشَّارقة، ومدير المدرسة هو السيد سالم بن صالح الجيلاني.

وبها ثلاث مقابر: المقبرة الشرقية، والمقبرة الغربية، ومقبرة قديمة كانت للأبارقة أسفل البلدة، وهي مهجورة اليوم.

شروج براورة وخليانها: بريْرة، وباظفار، والمِلاح، والحَتَّار، والحَتَّارين، وأسفل الحجل، وأم مُسلَّمة، والثَّرار، والرُّوح، والحنيْوة، والشَّريج، وخُبيَّات الزِّير، والخُبين، والحَنَكة، والخُبيَّة، والشُّعب، وحاجب الغتِر، والوَلَجة، ودُقَيْم الهَام، وخُبَة حسين، والظُّهور، والعُروض، والشَّراح، وسواقي بَلْصَقَع، وسواقي الأثل، والسَّرسُور.

كرفان براورة: كريف باماخش وهو أكبرها وعليه الاعتماد في نقل الماء في غير الشرب مدت إليه أنابيب المياه، ووصلت إلى كل بيت، وكريف المشروع بناه فاعل الخيرات والمبرات الشيخ أحمد بغلف، وكريف بامرضاح، وكريف أم مسلمة، وكريف الصدور، وكريف دقيم الهام، وكريف عطف الثرار، وكريف نقبة الصَّلب، وكريف عمر بن صالح، وكريف صالح بن علوي، وكريف ابن سعيد، وكريف المهجوس.

حَيْلات براورة: حَيْلة حمد بن علي في الملاح، وحيلة الحجل، حيلة حمودة، وحيلة الحَنَكة، وحيلة باظفار، وحيلة بريرة، وحيلة مُصَيقُورة في العروض، وحيلة الحمراء في المِلاح.

ومن أفاضل آل الجيلاني المنحدرين من براورة:

١- العلامة السيد عمر بن أحمد الجيلاني، ذكره العلامة علوي الحداد في (الشامل ٢/ ٦٢٢)، وقال: «ومن أهل الصلاح والاستغراق في الله، والذهول عما سواه الحبيب الصالح العابد الزاهد العالم عمر بن عبدالله الجيلاني كان من تلاميذ الشيخ عبدالله باسودان، وابنه الشيخ محمد». اهـ.

وقوله: عمر بن عبدالله الجيلاني: صوابه: عمر بن أحمد.

٢- الطبيب عبدالهادي بن عبدالله بن عمر بن أحمد الجيلاني: والد العلامة حامد، كان طبيبًا حاذقًا استقدمه من الهند السيِّد عبدالرحمن بن شيخ الكاف، وفتح له مستشفى في تريم، ذكره العلامة ابن عبيدالله السَّقاف في (إدام القوت، ص ١٥٠) باسم عبدالهادي بن محمد بن عمر، وصوابه: ابن عبدالله بن عمر.

٣- علامة وادي دوعن السيِّد الفقيه الورع حامد بن عبدالهادي الجيلاني (ت ١٤١٤هـ)، ذكره العلامة ابن عبيدالله السقاف في (الإدام، ص ١٥٢)، فقال: «طلب العلم بتريم، وله نباهة، وذكاء على تواضع وسيما صلاح، وقد انتفع به أهل الخريبة انتفاعًا كثيرًا». اهـ.

ومن ورعه رحمه الله أنه إذا قُدِّم له تمر، ثم قيل له: إنه تمر حَجَر أخرجه من فمه، لِمَا عُرِفَ عن كثير منهم الاستيلاء على أموال الوقف خصوصًا النخيل، وقد حدَّثت بهذا شيخنا الشيخ سعد باشكيل مدير الأوقاف السابق فحدثني أن أهل الغيل لا يأكلون تمر وادي بامردوف؛ لأن السلطان القعيطي استولى عليه ظلمًا، وهو من أملاك آل ابن عمر باعمر، وأخبرني أيضًا أن في ميفع المشهورة بزراعة الحبحب أرضًا زراعية كبيرة من أراضي الأوقاف مغصوبة إلى اليوم.

٤- ابنه مفتي الشافعية بمكة المكرمة شيخنا الفقيه العالم الرباني عمر بن حامد الجيلاني، ولد بالخريبة في حدود سنة (١٣٧٢هـ)، وأخذ عن والده، وعن غيره من علماء الخريبة وتريم، ورحل إلى مكة سنة (١٣٩٠هـ)، وأخذ بها عن بعض شيوخها، وهو

اليوم مفتي الشافعية بمكة، وله رحلات كثيرة في الدعوة والتعليم.

٥- أخوه مفتي دوعن العلامة عبدالله بن حامد الجيلاني، أخذ عن والده، وقرأ على العلامة محمد بن سالم بن حفيظ، وعلى السيد محمد بن علوي المالكي، وعلى أخيه العلامة عمر الجيلاني كما ذكر لنا ذلك ابنه الفاضل (حامد) حفظه الله تعالى.

بَرِيْرَة:

بفتح الباء، وكسر الراء الأولى، وسكون الياء، وفتح الراء الثانية، كاسم الصحابية بريرة بنت صفوان مولاة عائشة رضي الله عنهما؛ لكن أهل هذه الجهات ينطقونها بكسر الراء الثانية على لهجتهم.

وضبطها العلامة علوي بن طاهر الحداد في كتابه (الشامل ٢/ ٢٠٥): «بكسر، ففتح، فتشديد الياء المكسورة»، وما قاله غير صحيح، والصواب ما ذكرناه، ولعل العلامة الحداد ظن أن ضبطها كضبط (بُرَيِّرة): -تصغير بَرِيْرَة على لهجة الحضارمة- وهي قرية أخرى للسَمُوح (السَومحي) من سيبان تقع بالقرب من الفَرْضَحة والدَّهْماء، وهذه أشهر وأذكر، وكان كثيرًا ما يزورها نائب لواء دوعن باصرة في عهد السَّلطنة القعيطية.

وبَرِيْرة: شرج يقع في الجهة الشمالية للريدة، قريب من (الأبيضين)، ومن بلدة براورة في الجهة الجنوبية منها.

وتعد بريرة أكبر شرج زراعي في ريدة الدَّين، وكان في الأصل ملكًا للسادة آل الجيلاني أهل براورة، ثم إنهم باعوا أجزاء منها لقبائل بامسعدي، ولباعمرو، وبامسدوس، وبارزيقة، والملك الأكبر فيها لآل الجيلاني.

وبريرة مشهورة بكبرها، وعرضها، وإذا شربت وصل خيرها لجميع الريدة، وفيها يقول الشاعر:

لا يَا بَرِيْرَة تعبتينا تَعَب

ذه السَّنَة جيب صرَّابش منين

و(لا) بمعنى ليه، أي لأي شيء، و(صرابش) بمعنى حُصَّادك، (جيب) بمعنى نأتي، و(منين): بمعنى من أين؟ والمقصود أنه إذا شربت بماء السماء، فإن الناس يتعبون من حصادها لكبرها، ولا ينتهي حصادها إلا في أربعة، أو خمسة أشهر، ويستفيد من حصادها الكل؛ إذ يأتي لزكاتها من كان في دوعن، ووادي عمد، والضليعة، وحجر.

وإذا اخضرَّت يأتي إليها النُوَّاب - مربو النَّحل- ويضعون بها جبوح النحل، ويتبارك النحل، ويزداد جناه، وكذلك في وقت الاخضرار تكون مظنة لوجود الأرانب البريَّة.

وهي مشهورة بجودة بُرِّها المسمى بالهلباء، ويزرع فيها كذلك الدخن، والمسيبلي، والذرة البيضاء، والدِّجر، والجرجير، والكثة، وبها أشجار السَّمُر، والضَّب.

وبها أوقاف لإفطار الصائم بالمساجد، وأوقاف على (المقهاية) لإطعام الغريب، و(المقهاية) في عرف هذه الجهات بناية مخصصة لاستضافة الغريب.

وتسقى بريرة من جهة (ميراد باعمرو)، و(ميراد باسودان)، ومن (سواقي عيون الأبايض)، وتصب في شرج (باظفار).

وقد سبق أن ناقة السيِّد الجيلاني جد السادة آل الجيلاني عندما قدم من بلدته (الروضة) -روضة بني إسرائيل، أو حوطة بني إسرائيل- التابعة لشبوة بركت في بريرة فاستبرك بذلك.

وفي الجهة البحرية لبريرة قرية صغيرة يسكنها آل بامَسْعَدي: بفتح الميم والعين، وسكون السين بينهما من الدَّين يتبع المسادسة، تقدر بيوتهم بنحو العشرة، لهم في بريرة حجل، ولهم حصن قديم فوق بيوتهم، وفيها مسجد، وكريفان للماء، ويشتغلون بالرعي، والحراثة، ويدرس أولادهم في بلدة (براورة) القريبة منهم.

وكان واحدٌ من آل بامسعدي سافر هو وابنه عُبيد إلى السعودية، ثم خرج الأب إلى قريته بريرة، واستمر الابن في غربته، واشتاق الأب لرؤية ابنه، ومضت على ذلك مدة طويلة تقدر بنحو ستٍّ وعشرين سنة، ولم يخرج الابن، وأصبح الأب شيخًا كبيرًا، فأرسل الأب له قصيدة في شريط كاسيت، مع رجل وقال له سمِّعْه ابني لعله إذا سمعها يشتاق لرؤيتي وينزل: قال في بداية هذه الأبيات:

وانْشِدْ على عبيد وتخبرَّ

خاف هو باينشدك منِّي

وبغيت باشوفه ذا اليوم

منْ قبل لَعْوَرْ يواجهني

ستة وعشرين له مُدَّة

ما هو بالوهم في عقلي

واليوم شيبة على المُوكَى

ولعاد شي عزم في عظمي

لا جيت بعزم وبا عنده

ما يوجد النول في يدي

لا عندك النول ما يوجد

با وجِّد النول من عندي

با بيع في المال والنُّشرة

من كسب يدك وشي من كسبي

البيت زرته وحجيته

من فضل مالي ونا زكّي

رمضان صومه ونا شهّد

والفرض لا جا ونا صلي

لكنها لم تؤثر فيه، ولم ينزل إلا بعد موت أبيه بمدة، ونزل إلى المكلا، ومعه نقود كثيرة، وضعها تحت رأسه، فسرقت من تحته، فكانت سببًا في جنونه، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

البُرُوح:

بضم الباء، والراء: شرج من شروج الضليعة، يقع في الجهة الجنوبية الغربية للضليعة، وهو عبارة عن أحجال زراعية تابعة لأهل الضليعة.

وفوقه حصن قديم غير مسكون، يقال له: حصن باحوت.

وفي (تاج العروس ٦/ ٣٠٧): «البراح: كسحاب: المتسع من الأرض لا زرع بها». اهـ.

البلَاد:

يطلق هذا الاسم في جهات الريدة على (الضليعة)، لكونها حاضرتها، ويطلق على الضليعة أيضًا اسم (الريدة).

والبلاد لغة: جمع بَلَد، وبَلْدة: وهي مساحة واسعة من الأرض مُعيَّنة بحدود، أو سكان، كما في (تحرير التنوير) لابن عاشور.

والتعريف في البلاد هنا للعهدية: أي بلدة الضليعة، وليس للجنس.

*والبلاد أيضًا اسم لقرية في الشَّعَبات تقع في الجهة الغربية للرَّيدة خارج حدودها ضمن حدود سوط آل هميم من قبائل آل بلعبيد يسكنها آل باظَفَر من آل هميم، فيها مسجد، وخمسة حصون.

بَلْجنَف:

بفتح الباء، وسكون اللام، وفتح الجيم، والنون، وأصلها (بالأجنف)، وأهل هذه الجهات ينطقون الأجنف: لجنف بحذف الألفين، وفتح اللام، وسكون الجيم، ولما أدخلوا عليه (با) حذفوا ألفها، وسكنوا اللام، وفتحوا الجيم فصارت: بَلْجَنف، وأوردها العلامة علوي بن طاهر الحداد في (الشامل ٢/ ٥٠٣)، فقال: «وبالجنف بسكون الجيم، وفتح النون – الأجنف». اهـ، والصواب أنهم ينطقونها: بلجنف، وليس بالجنف.

وشرج بلجنف يقع ضمن شروج آل بايومين بالقرب من الحجلين في الجهة الشمالية الغربية للريدة، ومنهم من يسميه بـ(جور بلجنف)، والجور بمعنى الحي، أو الحارة، أو الرَّبع.

ويسكنها آل بلجنف، فصيلة من آل باكرشوم، وهم بيت التقدمة والرئاسة في آل بايومين.

وينبغي التفريق بين (بلجنف)، وبين (بَجْنف)، فبجنف، ويقال: باجنف: نُعماني يعيشون في وادي سلمون، وفي جبال نعمان، وفي (نحر البجنف)، وهو رأس قبائل نُعمان.

البَيْد:

بفتح الباء، وسكون الياء: خلاء غير محجور فيه مراعي، لا يستطيع أحد أن يمنع أحدًا من الرعي فيه، ويسمى أيضًا بالخِطَمة: بكسر الخاء، وسكون الطاء: وتجمع على خِطَم.

والبيد مثل: الخُبيَّة، والخُبيْن، وخُبيَّات الزِّير، وعطف الصَّفارة، وخطمة نَسْر؛ وتقع فوق حَبْرة آل ماضي.

والفرق بين البيد، والجول: أن البيد فيه مراع للنَّشْرة -الأغنام والإبل-، بخلاف الجول، ويجمع على بيود، قال شاعر الرِّيدة والسِّيطان صلاح باخريبة:

والقاف قفَّتْ وقالتْ لي سَنَة مُقْفَلَة

ولْعَاد بنِّد الأرض هي والبيُود

بَيْن الأرْضَاح:

الأرضاح: بسكون الراء، وفتح الضاد: جمع رضح، والمراد بها الصَّفاة الملساء الكبيرة المستوية التي تكون في أماكن مجرى السَّيل يُرضح عليها العُشَر، ثم تدبغ به الجلود.

وقد سبق ذكر هذا في (الأرضاح) من حرف الألف.

و(بَيْن الأرْضَاح): هو شعب يجرى فيه السَّيل القادم من (براورة)، ومن (بَرِيْرة) يلتقيان فيه، وهو يصبُّ في شِعب (المِلاح) من شعاب براورة.

وسميت بـ(بين الأرضاح) لكون الشعب يقع بين عدة أرضاح، ويماثلها في الاسم (بين الجبال) قرية معروفة تتبع أرياف المكلا، سميت بذلك لوقوعها بين الجبال، و(بين اللصوب) قرية تقع بعد وادي المسنا ضمن أرياف المكلا، سميت بذلك لكونها بين اللصوب، واللصب عند الحضارمة هو مجرى أكبر من الشعب، ودون الوادي، وهي كلمة عربية فصيحة، ففي (تاج العروس ٤/ ٢٠٧): اللَّصْب: شق في الجبل أضيق من اللَّهْب، وأوسع من الشَّعْب ... أو هو مضيق الوادي، والجمع لِصاب، ولَصُوب)، وهناك قرية في أرياف المكلا قريبة من ثلة باعمر تسمى اللَّصُب بها أوقاف لآل باوزير، واللُّصَيب: تصغير لَصْب قرية تقع في (مجرى باجوف) من ريدة الدَّين، ذكرناها في (باجوف).

44
العدد (14)
أكتوبر
ديسمبر
2019م

الوالد (علوي بن يحيى) وتأمُّلات في لهجة تريم

حَظِيت (حـضرموت) بـتراث حـضاري زاخر، مترامي الأطراف، قَلَّ أن يوجد في غيرها من الحضارات العربـية خاصَّة، والإنسـانية عامَّة، يتمثَّل في جوانب عدَّة: سياسية، واقتصادية، واجتماعية، ودينية، وثقافية.

غير أن تراثها اللهجي ربـما لم ينَلْ حـظَّه الوافر من اهتمام الدراسـين بهذا التراث. ومع هذا بـرز في المجتمع الحضرمي، ولا سيما في الماضي القـريب، من تصدَّى لدراسة هذا التراث، وإن كانت دراسته -في نظري- تمثل دراسة مقتضبة، غير وافية، ومحصورة في إحدى لهجات إقليم (حـضرموت)، هي لهجة (تريم)، فهي على الأقـل يمكن أن تُدرَج في ضمن الإرهاصات الأولى، في مجال دراسة اللهجات الحضرمية...

نذكر منهم (لا على سبيل الحصر) السيد محمد بن علوي العيدروس، الملقَّب بـ(سعد)*، الذي أصدر مؤلَّفًا، صغيرًا، موسومًا بـ(كلمات في الدارِجَة بمدينة تريم)، طُبِع عام (١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م)، ووزَّعته (دار الفقيه المقـدَّم للنشر والتوزيع) في أبوظبي - الإمارات العربية المتحدة، و(مكتبة تريم الحديثة)، في حضرموت - الجمهورية اليمنية.

وما أن ظفرتُ به، ووقفتُ عليه، حـتى دفعته إلى سـيدي الأديب، المشـارك في العلوم وأهله، الوالد (علوي بـن أحمد بن عمر بن يحيى)، الذي يُعَدُّ من أعز أصدقاء مؤلِّف الكتاب، وأكثر المقرَّبين لديه.

الوالد (علوي) ومشواره الأدبي والعلمي:

د. محمد علوي بن يحيى

هو سـيدي الوالد: علوي بـن أحمد بن عمر بن عبدالله بن عمر بن أبي بـكر بـن عمر بـن طه بـن محـمد بـن شيخ بـن أحـمد بـن يحيى بن حسن (الأحـمر) بـن علي (العنّاز) بن علوي بن محمد (مولى الدويلة) بـن علي بـن علوي (خالع قسم) بـن الفقيه المقـدَّم محـمد بن علي باعلوي... وينتهي نسبه إلى سيدنا علي (زين العابدين) بن أبي عبدالله الحسين (سِبط رسول الله) بن علي بن أبي طالب (كرم الله وجهه)، زوج فاطمة (الزهراء) ابنة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم).

وُلِد في ١٠ من ذي الحـجة سـنة ١٣٥١هـ في (تريم) الموافق ١٩٣٢م، وهي السنة نفسها التي تمَّ فيـها بنـاء قـصر والده العلّامة الثري (أحـمد بـن عمر بـن يحـيى)*، المشهور بقصر (المنيصورة).

ونشأ في صغره، تلميذًا في رباط تريم، نشأة علمية صِرفة، ودرس في صغره عددًا من متون علم النحـو، كـ(المقـدمة الآجرومية)، ومتممتها، مع حـفظه (ألفية ابـن مالك)، إلى جانب دراسته عددًا من متون الفقه.

وقـد سـنحَت له فرصة ثمينة للدراسـة في الجامع الأزهر الشريف، بـمصر، بـدعم، وتشجيع من خاله العلامة المحـدِّث الحبيب (علي بن محمد بن طاهر بـن يحيى)، بـيد أنَّ صروف الدهر، ومعوقاته حالت دون مواصلة تحصيله العلمي هناك.

وقد تتلمذ في صغره، على عدد من الشيـوخ الأعلام، أمثـال الحبـيب العلامة النحـوي (عمر بـن علوي الكاف)، والحبـيب العلامة (محمد بن أحمد الشـاطري)، والأسـتاذ (توفيق أمان)، والحبيبَين العلامتَين (أحمـد بن زين بن حسن بلفقيه)، والأستاذ (محمد بن هاشم بن طاهر)، وهما أكثر من جالسهما. وقد تتلمذ على أولئك الشـيوخ في (جمعيَّة الأخُوَّة والمعاونة)، في منطقة (الخليف)، التي أُنشِئت في ذلك الوقت لتدريس علوم مختلفة.

قصر والده العلّامة الثري (أحمد بن عمر بن يحيى)، المشهور بقصر (المنيصورة).

ثم دَرَس في المرحلة الوسطى في مدرسة (الكاف)، تحت إدارة الأستاذ (شيخان بن عبدالله الحبشي)، وإشراف الأساتذة السادة (عمر بن علوي الكاف)، و(محمد بن هاشم بن طاهر)، و(أحمد بن زين بن حسن بلفقيه)، و(محمد بن أحمد الشاطري)، كما تتلمذ على عدد من الشيوخ الآخرين، خارج المدرسة المذكورة، منهم خاله الحبيب العلامة (علي بن محمد بن طاهر بن يحيى)، والأستاذ السيد (علي بن عقيل بن عثمان بن يحيى) والأستاذان (زين العابدين بن أحمد الجنيد) و(سالم الخُرد). كما عمل مدرّسًا، لسنوات عِدّة، بمدرسة (جمعيّة الأخُوّة والمعاونة).

الأستاذ السيد محمد بن هاشم

وممّن أخذ عنهم في (مكّة) الحبيب العلامة (علوي بن عبّاس المالكي)، وكان ذلك خلال مكوث المترجَم له هناك، ما يقارب سنتين ونصف.

ثم عاد إلى (تريم)، وما كاد يحطُّ رحاله فيها، حتى اضطره ظرف ما ليفارقها، مولّيًا وجهه شطر مدينة (عدن)، عام ١٩٦٠م، غير ناوٍ المكوث بها. غير أنّ الله سبحانه وتعالى قدّر له أن تكون هي محط إقامته الدائم؛ وذلك حينما وُفّق في الحصول على وظيفة مدرّس في مادة (اللغة العربية)، في إحدى مدارسها، المعنيّة بتدريس أبناء الجالية الهندية بعدن، وتُدعَى (المدرسة الجُزراتيّة)، بإعانة من الفنان اليمني السيد (أبي بكر سالم بلفقيه)، الذي كان يعمل مدرّسًا فيها. وكان، قبل ذلك، قد خضع المُترجَم له لامتحان مقابلة، امتحنه فيه الشاعر والأديب اليمني (لطفي جعفر أمان)، الذي كان يشغل منصبًا رفيعًا في إدارة التربية والتعليم بعدن.

واستمر مدرّسًا في هذه المدرسة حتى عام ١٩٧٧م، انتقل بعدها للعمل مسؤولًا في مستودع الكتب المدرسية، التابع لدار المعلّمين، لمدّة تقارب الأربع سنوات.

ثم انتقل للعمل في قسم مصوغات الذهب، التابع لشركة (النصر) للتجارة الحرة بعدن، حتى عام ١٩٩٥م.

شغفه بالأدب والشعر:

وقد كان المُترجَم له، في صغره، ميّالًا إلى قراءة الكتب، عمومًا، وقراءة كتب الأدب والشعر، خصوصًا، حتى آخر عهد له بالحياة الدنيا، في (١٧ من يونيو ٢٠١٨م/ ٣ من شوّال ١٤٤٠هـ)، وكانت له بعض المحاولات الجادّة في نظم الشعر، ولا سيما الوصفي منه... نقتطف من بعض تلك القصائد هذه الأبيات من قصيدة قالها في ٢٢ من جمادى الآخرة سنة ١٣٧٤هـ (حوالي عام ١٩٥٤م)، في الجلسة العامّة لنادي (الشباب) الثقافي والرياضي بـ(تريم)، بمناسبة إدخال لعبة (كرة الطائرة) لأول مرة. ووسم قصيدته بعنوان (نكتة الشهر)، وهذا نصها:

مهلاً أخي يا مُخبِرَهْ ... أمرًا يَزيدُ الكَرَكَرَهْ

واحفظْهُ عندكَ بَيْنَ هاتيك النكات النادرَهْ

واقصُصه للأحباب في ... مَرَحِ اللياليْ السّاهِرَهْ

• • •

(نادي الشباب)، كما علمتُ، لهُ فروعٌ صائرَهْ

فرعُ الرياضة بينَها ... ويضمُّ (ركنَ الطائرَهْ)

من لعبة مشهورة ... نشأتْ أخيرًا زاهرَهْ

روحُ الرياضة رمزُها ... وأساسُ عدَّتها (الكرَهْ)

ولها تهيّأ ساحةٌ ... وحدودُها فمقدَّرَهْ

ومن اللوازمِ شبكةٌ ... في القلبِ تُبسَطُ ناشرَهْ

طَورًا ترى الكرةَ ارتمتْ ... فيها وطَورًا عابرَهْ

تتواترُ الضرباتُ ال ... أيديْ فتندفعُ الكرَهْ

وتطيرُ فوقَ الساحِ بينَ اللاعبينَ مسيرَّهْ

وترى المراقبَ واقفًا في الجنبِ ينفخُ صافرَهْ

والكلُّ مغتبطٌ بها ... وقلوبهُم مستبشرَهْ

في كلِّ ليلهْ لعبُها ... تلقى الجموعَ القاطرَهْ

تمشي لتشهدَ كلَّ ما ... سرَّ العيونَ الناظرَهْ

وثمّة مشاركات له في الشعر الحُميني (المنظوم بلهجة تريم)، منها قصيدة، اشترك في نظمها، هو وصديقه (علوي حسين السقاف)، تحكي واقعة حال حصلت في الستينيات من القرن العشرين، وتوافق بالتاريخ الهجري (٢٣ ربيع الأول ١٣٨٠هـ)، يقول فيها:

بكينـــا اليـــومْ سَيَـــارَهْ ... عزاءْ للســـــكَرْتارَهْ
عدَنْ بـــالأمسْ قـــد ذاعَتْ ... وشـاعتْ بـينـنا اخبـارَهْ
وقـالوا الســاعيَه(١) غَرْقَت ... ودقَّت فوق قيشـــاره
عليها حمَّلوا شُحـــــنَهْ(٢) ... كبـــــيرهْ باسْمْ تجارَهْ
بـــضائعْ كلُّها رَصَّهْ(٣) ... وفيهـــا اكيـــاسْ دَوَّارَهْ
ومن جُـــلة حُولَتْهـــا ... رَحْمهـــا اللهْ سَيَـــارَهْ
كبـــيرهْ (جيبْ) يا حَسرَهْ ... عليهـــــا آهْ وخْسَارَهْ
تســـاوي فوقْ عشرينْ ... ألـــفْ اصليـــهْ ومختـــارَهْ
خَذاها(٤) (الجَرْوْ)(٥) للـدَولَهْ ... عليها الرسْمْ والشـــارَهْ
ومَشُّوهـــا إلى الـــدَّكَّهْ(٦) ... وحمَّلوها بـــــجرَّارَهْ
وحَطُّوها على الخَشْبـــــهْ ... وشَبْحُوا(٧) فوقْها كـــارَهْ(٨)
وخَلُّوها كما قُبـــــــةْ ... ولِيَّ اللهْ في (شْهَارَهْ)(٩)
وحينْ الـشَلْ والحـطَّهْ ... غـــدَّت كُلّ عينْ نَظَّارَهْ
وفي جَنب الدقَلْ(١٠) قـــرَّتْ ... ورَبْطُوها بـــمعْطَارَهْ(١١)
وحـان الوقـتْ في الخَشبـهْ ... فَرَفْعَتْ للســفَرْ شـــارَهْ
وشَمَّرَتْ في الـــغيْبْ تَمْشي ... كما البـــــدْوانْ في الغارَهْ
تـشُقّ الـــبَحْرْ وامْواجـهْ ... وتلْقَى فيـــهْ معْثـــارَهْ
عَصَّبْ النُوْخَذَهْ(١٢) راســهْ ... رَفَعْ صُوتـــهْ ومزْمـــارَهْ
وحَنّ الطَبَـــلْ والهاجرْ(١٣) ... وشَبّ الـشرحْ(١٤) بحـرارَهْ
وزاد الرقـصْ والرَزْحـهْ(١٥) ... وقَزْحـــهْ(١٦) فُوقْها ثارَهْ(١٧)
وغابْ الحس في الغُبـــهْ(١٨) ... وزادوا في التمهْتـــــارَهْ
وســاعَةْ جا القـــدَرْ عَاكسْ ... وشَنْ عابُوهـــم الغـــارَهْ
ورَجْ سُكَّانْ بـــــو نُوخَذْ ... ووَدّاهُم قـدا (احـوارَهْ)(١٩)
وهَذي أرْضْ بُو فَضـلي(٢٠) ... عليهـــــا يفْرضْ اشْوارَهْ
وُجُوهْ القـــــومْ في حَالَهْ ... من الأخطـــارْ فـــرَّارَهْ
وقـــابَلْهُم على الشـــاطي ... وعارَضْهـم بتنْصـــارَهْ(٢١)
بـــضايعْهُم وخَشْبَتْهُم ... وفُوقْ الفيـــدْ سَيَـــارَهْ
سَحَبْهـا كُلّهـا الـــفَضْلي ... وســوَّى شُغْلْ جَبـــارَهْ
وفَتَّشْهـــم وطـــرَّدْهُم ... وهَدَّدْهم بـــــعْكارَهْ(٢٢)
وقَبـــضْ(٢٣) كُلْ ما مَعْهم ... وخَلَى(٢٤) القـــوْمْ محْقـارَهْ
وفَكَّكْ كُلْ جوْنيـــــهْ(٢٥) ... وناصَلْ كُلْ سَحـــارَهْ(٢٦)
ولا رَحمـــــــهْ ولا شَفْقَهْ ... تخالْ القـــــومْ غوّارَهْ(٢٧)
وقـــالوا سرْحـــتْ العادهْ ... وجـــاهْ الخيـــرْ في دارَهْ
وهذا رزقْ من ربـــــــهْ ... سَقَطْ في وَسْطْ هـــوّارَهْ(٢٨)
سرَدْنـا كـامـلْ القصـــه ... عـــزاء [.....](٢٩)

وانماز المترجَم له (رحمه الله تعالى) بكثرة مخزونه الشعري، الذي حـــوى الجمَّ الغفير من الأوابد، ولا سيما منها شواهد الحكم والأمثال، التي لا تُستعصَى عليه في أيّة مناسبة تدعو إلى أن يتمثَّل بها!

علاقته بسعد وبكتابه:

توطَّدت علاقة المترجَم له بمؤلِّف كتاب (كلمات في الدارجة بمدينة تريم)، منذ مرحلة شبابهما، في (عدن)، عام ١٩٦٠م - وكان المترجَم له، حينئذ، يعمل مدرِّسًا في المدرسة الجُزراتيَّة (مدرسة الهنود)، صباحًا، وموزِّعًا صحـيفة (الأيام)، التي كان يديرها الأستاذ (محـمد علي باشراحيل). مســاءً، على مدى ثلاث سنوات تقريبًا.

وقبيل وفاة السيد (سعد) أهدى صديقـــه عدداً من مؤلَّفاتـه، مـن ضمنهـا الكتاب المذكور.

وحينما اطلع المترجَم له على هذا الكتاب، القيِّم في مادته، وجد فيه ما يدعو إلى إعادة النظر في كثير من ألفاظه، ومعانيه، فيما يخص لهجة تريم. فطلب منِّي أن أعيد قـــراءة هذا الكتاب عليه، وفي أثناء ذلك كان يصوِّب كل ما عَنَّ له أنَّه يحـــتاج إلى تصويب. فاجتمع لديَّ، عقب إتمام هذا العمل، مادة لهجيَّة غزيرة، دفعتني إلى أن أجمعها في مؤلَّف خاص، وَسَمتُه بـ(عَون الرحمن الرحيم في دراسة وتحليل كتاب: كلمات في الدارجَة بمدينة تريم)*. ومنه أقتطف هذه المختارات المتفرِّقة:

• **من حرف (الألف)- أنيِّيه**(٣٠): بمعنى نعم- خاص بالبنات.

يرى الراوي** (علوي بـن أحـمد بـن يحـيى)، أن الصواب في لفظ هذه الكلمة هو (إنْيه)؛ بكسر الهمزة، وحذف أحد الياءين.

• **من حرف (الباء)- بُقْشِه**(٣١): منديل تُربَط فيه الثياب.

يضيف الراوي لها معنى آخر، هو: عملة نقـــدية، زهيدة الثمن، كـ(الفلس)، وتبـــدو للراوي أنها كلمة تركية الأصل، وهي دخيلة على لهجة تريم.

• **من حرف (التاء)- تَنْصُوْرَه**: صوت يطلق في الأفراح الشعبية، والزواجات.

يوضح الراوي معناها بـأن (التَنْصُوْرَه)(٣٢) صوت يصدره الرجال، خاصة، في مناسبات الأفراح. (يقابل التَعابِيْط عند النساء).

• **من حرف (الثاء)- ثِبَان**(٣٣): الفراغ بين الصدر والثوب.

يوضح الراوي أنّ معنى الكلمة هو كيس، بين الصدر والثوب، تستعمله النساء غالبًا؛ لتخبئ بعض الأشياء فيه.

• من حرف (الجيم)- جَعْلَان[٣٤]: مضطرب- مرتعد (الفرائص)، ندَّ، شَرَد (عربية)، جافل.

يضيف الراوي معنى آخر للكلمة؛ هو أنَّ (الجعْلان) -بكسر الجيم- هم العمال، المشتغلون في العمارة الطينية، ومفردها (جعيل)، وقد يجمع التريميون هذه الكلمة على (جعْلاء).

• من حرف (الحاء)- حَتْحُوت[٣٥]: نحيل.

يرى الراوي أنَّ ثمَّة معنى آخر لـ(حَتْحُوت)، هو نشارة الخشب.

• من حرف (الخاء)- خَوَق[٣٦]: فرض الشخصية.

المسموع، بحسب الراوي، أنَّ هذه الكلمة تعني: الفضول، والتدخل في شؤون الآخرين.

• من حرف (الدال)- دُخُوْن: بخور.

يوضح الراوي أنَّ معناها، الدقيق، (بحسب الراوي) هو: عود معطَّر، يُوضَع في مجمرة، يتطيَّب به الرجال. أما (البُخُور) فهو خليط من عطور، ونباتات عطرية، تُشعَل في مجمرة، وتتطيَّب به النساء خاصة. وهو من دقائق الألفاظ المستعملة في اللهجة الحضرمية.

• من حرف (الذال)- ذُبْذُب: أول البُسر.

يوضح الراوي أنَّ (الذُبْذُب) هو ثاني مراحل ثمر النخيل. ومراحله أربعة، هي: الحَرَب (مفرده حَرْبَة)، يليه الذُبْذُب، فالبُسْر (أي البَلَح)، ثم الفَضْخ (ويُسمَّى المناصِف)، وهو موسم خَرْف التمر، أي جَنْيه، بعد نضوجه.

• من حرف (الراء)- رضيح: النوى المكسَّر (عربيَّة).

يزيد الراوي توضيحًا على معنى هذه الكلمة، هو أنَّ (الرضيح) يُعَدُّ غذاء مفضَّلًا للمواشي.

• من حرف (الزاي)- زَخْيَه: كارثة.

صواب معناها (بحسب الراوي): إثارة التراب.

• من حرف (السين)- سُعْرُعْر: جندب.

يزيد الراوي توضيحًا في معنى (السُعْرُعْر)، وهو صغير الجراد. ويلفظ أيضًا (زُعرُعر)، بإبدال السين زايًا.

• من حرف (الشين)- شَمَّه: (عربية) قُبلَة.

ويزيد الراوي معاني أخرى لهذه الكلمة متداولة، بين أهل تريم؛ هي أنها تعني: حفلة بمناسبة الولادة، وهي خاصة بالنساء. وتعني، أيضًا، عجينة من التُنباك، يضعه جماعة من الناس بداخل الفم، أسفل الفك. وهي عادة مُضِرَّة بالصحة.

• من حرف (الصاد)- صَوَر: تبلُّد ذهني.

يوضح الراوي أنَّ معناها المشهور، بين سكان تريم، منذ مدة طويلة، هو الصوت المزعج. أمَّا المعنى الذي أورده المؤلف لهذه الكلمة، فهو معنى لكلمة أخرى، تُلفَظ (صُوَر)؛ بضم الصاد، لا بفتحها، كما ضُبِطَتْ، في الأصل المطبوع.

• من حرف (الضاد)- ضِرِس: حاسد.

ينبِّه الراوي على أنَّ هذه الكلمة تُضبَط، بكسر الأول، والثاني؛ يقال: ضِرِس منِّي، أي: حسَدَني. أمَّا إذا فُتِحَت الضاد، والراء، (ضَرَس) فتعني: تحسُّس في الأسنان. و(الضَرْس): السِن (أيًا كان نوعه، وهذا في لهجة تريم)، وجمعه: ضُرُوس.

• من حرف (الطاء)- طاسِه: كوب ماء خزفي.

يزيد الراوي، على معنى هذه الكلمة، أنَّها لو سُبِقَت بالحرف (با) تصير نوعًا من الحلوى يُصنَع في تريم، من السكر المصبوغ بألوان مختلفة.

• من حرف (الظاء)- ظَرَك: أساس البيت.

يوضح الراوي أنَّ المعنى المعروف، لهذه الكلمة، هو: شحم الغنم.

• من حرف العين- عَطْرَزَة: انفجار.

يصوب الراوي معناها، وهي: اندفاع سائل بقوة من فتحة صغيرة. وقد يلفظها أهل تريم بصورة مقلوبة، فيقال (طَرْعَزَة).

• من حرف الغين- غَرْفِيْنَة: كثير.

يوضح الراوي أنَّ هذه الكلمة، بهذا المعنى، يستعملها أهل تريم، أمَّا أهل سيئون فيستعملون كلمة (دَغْشِيْنَه).

• من حرف (الفاء)- فَيْلِي: كذب.

يصوِّب الراوي لفظ الكلمة، وهو (فَلِي)؛ بفاء مفتوحة، فلام مكسورة، وتعني: التنقيب في شعر الرأس، عن القَمْل، ونحوه.

• من حرف (القاف)- قَرْمَعَه: انكسار.

هذا المعنى غير معروف، لدى الراوي، وإنما المعنى المعروف هو: الضرب المبرِّح، وتُلفَظ، أيضًا، (كَرْمَعَه).

• من حرف (الكاف)- كِلِس: مُكتئِب.

يضيف الراوي معنى آخر، إلى المعنى السابق، هو: قليل النُور، يقال: مكان كِلِس، أي: نُوره خافِت.

• من حرف (اللام)- لَفْلُوف: من لا يُعتمَد عليه.

يوضح الراوي أنَّ أصل معنى الكلمة هو: زائدة جلدية.

• من حرف (الميم)- مَهُو: سر مشمَّس.

كذا ورد معنى الكلمة، في الأصل المطبوع (سر مشمَّس)، والصواب: بُسر مشمَّس، ويوضح الراوي أنَّ المَهُو، في هذه الحالة، يُعَدُّ متغيرًا، تالفًا، غير صالح للأكل.

• من حرف (النون)- نَبْزُوز: قليل.

يرى الراوي أنَّ معناها الدقيق هو: قطعة صغيرة، من قماش، ونحوه.

• من حرف (الهاء)- هَرْفَتَه: خلط الكلام.

الصواب، لدى الراوي، أنَّ معنى الهَرْفَتِه هو: كلام مبالغ فيه.

• [الكلمات التريمية المبدوءة بحرف (الواو) لم ترد في كتاب الحبيب (سعد)؛ لسبب مجهول].

• من حرف (الياء)- يتْقَزَّح: يقفز هنا، وهناك.

يرى الراوي أنَّ صواب المعنى هو: يتسكَّع، وثمَّة كلمة أخرى تُستعمَل، في تريم، بمعنى: يقفز هنا وهناك، هي: يتْرَزَّح.

الهوامش:

* هو السيد محمد الملقَّب بـ(سعد) بن علوي بن عمر العيدروس. ولد في ربيع الأول ١٣٥١هـ، بمدينة (تريم) حضرموت، ونشأ بها، وأخذ عن الكثير من علمائها. ثم سافر إلى عدن في ١٣٧١هـ للتكسُّب، ومكث فيها قرابة العشرين سنة، غير أنه لقي هناك معاناة شديدة. فعاد إلى تريم، وعُيِّن فيها إمامًا لمسجد (السقاف)، وكانت له إسهامات وأيادٍ كثيرة في الخير، الذي انتفع منه أهل تريم، وغيرها. توفي في التاسع من ذي القعدة ١٤٣٢هـ، وهو يناهز من العمر ٨١ عامًا، مخلفًا وراءه من المؤلفات (١٢٠) مؤلفًا، في مواضيع مختلفة.

* انظر ترجمة سيرته في كتابي الموسوم بـ(شرف المحيّا في تراجم عدد من علماء وأدباء آل يحيى)، ص٩٩- ١٢٥.

(١) نوع من السفن يشبه العبّارة.

(٢) بضاعة.

(٣) مرصوصة بعضها فوق بعض.

(٤) أخذها (فيها قلب مكاني).

(٥) الجرو: وكيل السلطان (حسين الكثيري)، في سيئون.

(٦) رصيف الميناء في مدينة (المعلّى).

(٧) غطوها بغطاء ممطوط، ومشدود عليها جيدًا.

(٨) الكاره: غطاء أبيض غليظ، كالذي يتخذ لأشرعة السفن.

(٩) تقع مدينة (شهارة) شمال محافظة (عمران)، في (الجمهورية اليمنية)، وتبعد عنها نحو ٩٠ كيلومترًا.

(١٠) الدقل: العمود الذي يثبت فيه شراع السفينة.

(١١) المعطارة: حبل سميك يربط به الشراع.

(١٢) النوخذة: قبطان السفينة.

(١٣) نوع من الطبول الكبيرة مفتوحة الطرفين.

(١٤) نوع من الرقص الذي يخالطه التصفيق، والجَلَبة.

(١٥) الضرب بالأقدام على الأرض في أثناء الرقص.

(١٦) القزحة: نوع من الرقص الشعبي.

(١٧) الثارة: هنا بمعنى الثوران.

(١٨) الاستغراق في الرقص.

(١٩) أحواره: يقصد بها مدينة (أحور) الساحلية، في محافظة (أبين).

(٢٠) السلطان الفضلي الذي كان يحكم محافظة (أبين)، إبان استعمار الإنجليز (عدن)، ما بين عامي (١٨٣٩م)، و(١٩٦٧م).

(٢١) استقبلهم بصياح، وغضب، وقد يستعمل التريميون كلمة (تَنْصُوره)، بدلًا منها، أو لعل الناظم استعمل هذا اللفظ؛ ليوافق قافية، وروي القصيدة.

(٢٢) بمشكلة أو بتهمة.

(٢٣) استولى.

(٢٤) ترك.

(٢٥) كيس كبير يعبأ فيه الأرز، أو السكر، أو نحوهما.

(٢٦) ناصل: فكك، أما السحّارة: فهي صندوق كبير يصنع من الخشب وتخزن فيه البضائع.

(٢٧) التغوُّر: الدخول في الشيء، يقال: غار في الأرض إذا دخلت أقدامه فيها. ينظر: (القاموس، مادة: غور).

(٢٨) هوَّارة: حفرة كبيرة.

(٢٩) كلام غير واضح في الأصل المخطوط.

* الكتاب الذي آمل إتمام حواشيه، وإخراجه، حوى الكثير من الألفاظ ذات الأصول العربية، الفصيحة، كما حوى أيضًا ألفاظًا ذات أصول أعجمية.

(٣٠) يبدو أن هذه اللفظة منحرفة من الكلمة (إنْ) التي من معانيها حرف الجواب (نَعَم)، كما في قول أحدهم لعبدالله بن الزبير: لَعنَ اللّهُ ناقةً حملتني إليكَ، فقال: إنّ وراكبَها. (انظر: مغني اللبيب: ١/ ٢٣٧)، شرح وتحقيق: د. عبداللطيف محمد الخطيب، ط١، ٢٠٠٠م، الكويت.

** الراوي (في علم اللغة الحديث): هو الذي ينقل اللهجة المحلّية، نقلًا أمينًا، بحسب ما سمعه من كلام سكانها الأصليين، ويفضَّل أن يكون من كبار السن.

(٣١) تجمع على (بقَش)، بمعنى: فلوس (مال). وهذه الكلمة ما زالت متداولة حتى الآن في تريم.

(٣٢) يحتمل أن أصل هذا الصوت كان يستعمل هتافًا للنصر ونحوه، ومنه جاءت كلمة (تنصورة).

(٣٣) ثَبَنَ الثوب يثبُنه ثَبْنًا وثِبانًا، بالكسر: ثَنَى طرفَه، وخاطَه... وإذا لَفَق حُجْزَة سراويله من قُدّام، والثَّبين والثِبان، بالكسر، والثُّبنَة بالضم: الموضع الذي تحمل فيه من ثوبك، تثنيه بين يديك، ثم تجعل فيه من التمر، أو غيره... والمِثْبَنَة: كيس تضع فيه المرأة مرآتها وأداتها. ينظر: (القاموس، مادة: ثبن).

(٣٤) الجُعَالَة (مثلثة)، وككتاب، وقفل، وسفينة: ما جعله له على عمله. ينظر: (القاموس، مادة: جعل). والجدير ذكره أن معنى (مضطرب) لم يرد في (القاموس)، فهو ليس بعربي فصيح.

(٣٥) لم يرد شيء في الجذر (حتت) في المعجمات المشهورة، كـ(أساس البلاغة)، و(القاموس)، و(المصباح)، يشير إلى معنى (النحيل)، غير أن هناك إشارة، على سبيل المجاز، وردت فيما يخص معنى (نشارة الخشب)، وهو ما أورده (الزمخشري) في معجمه، بقوله: «تَحاتَّتْ أسْنانُه: تناثَرتْ». (أساس البلاغة، مادة: حتت). وكأنّ نشارة الخشب نُزِّلت منزلة الأسنان في التناثُر!

(٣٦) من معاني (الخُوَق): الحُمْق، يقال: ناقة خُوقاء، والخُوقاء: الحَمقاء، وتُجمَع على (خُوق)... والأخْوَق: الأعور... وتخوَّق: تباعد، وخَوَّقَه: وسَّعه، فتخوَّق. ينظر: (القاموس، مادة: خوق). ومن خلال هذه المعاني تبين أنها في مجملها تحمل دلالة العيب والنقص، ولعل هذا أدى إلى انزياحها، فيما بعد، لتدل على معنى قريب منها، في لهجة (تريم)، هو (الفضول)، ونحوه. ويضيف (أ. يحيى بن العلّامة علي بن محمد بن يحيى) معنيين آخرين لها، هما: التصرُّف الشاذ، وتُطلَق على الخَرَف الذي يصيب المسنِّين.

49
العدد (14)
أكتوبر
ديسمبر
2019م

وثيقة تاريخية

رؤساء رتب تريم

ما بين سنة ١١٧٧هـ وسنة ١٢١١هـ

أحمد صالح الرباكي

مدخل:

شهدت مدن حضرموت خلال القرن الثاني عشر الهجري وما بعده نظامًا سياسيًا لم يكن جديدًا عليها قد عاشته من قبل ذلك ما يعرف بإمارات أو دويلات المدن(١)، وفي هذا القرن عاد النظام مرة أخرى في شكل حكم الحاميات اليافعية، وهي دويلات صغيرة ومتعددة، تنهض إحداها وتنخفض أخرى، توزعت على معظم القرى والمدن الحضرمية، ثم تدرجت بعض هذه القبائل ضمن الحاميات الصغيرة بدءًا بالحارة وانتهاء بالإمارة، وأدّت دورًا كبيرًا في الصراع السياسي داخل حضرموت.

بعد انتصار السلطان عمر بن صالح بن هرهرة في معركة بحران الفاتح من محرم ١١١٨هـ كان من نتائجها أن أعاد للسلطان بدر بن محمد المردوف الكثيري كرسي حكمه وإرث آبائه، وصفت له كل المدن والبلدات ووفّى بطلبه، ولتأمين تلك الانتصارات فقد أعاد ابن هرهرة توزيع القوى اليافعية على مدن حضرموت وقراها التي كانت موجودة سابقًا في حضرموت، ومن دخل معهم من الأقوام التي جاءت معه، ولهذا قام بتوزيعهم توزيعًا عسكريًا في أساسه، وتوزيعًا أمنيًا في مهمته حيث وزعهم كحاميات لنشر الأمن، واقتسموا البلدان ثلاثة أقسام: شبام وهينن بثلث، وسيئون ومريمة بثلث، وتريم بثلث لكونها ركيكة في ذلك الزمن، وتريس لابن النقيب شيخ يافع وعاقلهم(٢).

ومن ناحية التوزيع العسكري فكان حسب المكاتب - تقسيم عسكري معقد ساد في بلاد يافع على أساس المغنم والمغرم، وما زال معمولًا به إلى هذا اليوم- فخرجت مناطق حضرموت بقسمة شبام وتريس وهينن لمكتب الموسطة، وسيئون ومريمة لمكتب الضبي، وتريم لمكتب لبعوس، وفوقها بنادق غرامة المشهورات إلى جانب آل همام الناخبي الذين كانوا بها من سابق، إلى جانب مناطق حضرموت الأخرى، فكانت الهجرين وبلدة القزة لمكتب اليزيدي وعاقلهم البطاطي، ومنطقة الريدة وغيل بن يمين لمكتب كلد ومكتب يهر، والمكلا صارت للكسادي من مكتب الناخبي(٣)، بل وجدت يافع نفسها بيدها أمر حضرموت، فقام كل فريق منهم بأمر ما تحت يديه، فآل أمر المكلا إلى بني ناخب، وأصبح أمر غيل باوزير لابن همام، وجفل للرباكي، ومريمة لبني بكر، ولحروم للقعيطي، وسدبة للجهوري والبكري، والهجرين لليزيدي، والقزة للبطاطي، وغيرها(٤).

وتوزعت في مدن حضرموت وقرها ساحلًا ووواديًا وهضبة كحاميات عسكرية، ومارست دور الحاكم في مناطقها عقب سقوط الدولة الكثيرية، وتطور البعض منها إلى شكل إمارة، حتى بدايات الربع الأخير من القرن الثالث عشر الهجري عندما تكونت السلطنة القعيطية والسلطنة الكثيرية ثانية(٥).

وكانت تريم كما مر ضمن حكم الرتب البعسية التي توزعت على المدينة، إلى جانب ابن همام الناخبي، وكان له الأمر النافذ بتريم، ولعل وجود حصن تريم المعروف بـ(الرناد) بأيديهم حتى انتهاء إمارتهم لهو دلالة كبيرة على أهميتهم، وعلو نفوذهم، وقد قاسمهم أمر مدينة تريم إخوتهم من لبعوس، متمثلًا في أسرة ابن غرامة المنصوري وابن عبدالقادر العمري، وبقية فخائذ لبعوس (ابن متاش - ابن شاطر - الزغلدي - الضباعي)، فانقسمت بذلك تريم إلى ثلاث مناطق حكم رئيسة، فكان بن همام

في منطقة الخُلَـيْف، وعيديد في الغرب والجنوب الغربي من المدينة، وابن غرامة وله الحوطة والسحيل والرضيمة في الوسـط، وابـن عبدالقـادر في النويدرة في شـمال المدينة، وبـن هرهرة أهل السلطنة ولهم حـصن مطهر خارج تريم جنوبًا[٦].

الوثيقة:

والوثيقة المنشورة في هذا المقال وثيقة مهمة، وتأتي أهميتها في عدها لأسماء وقبائل رؤساء الرتب اليافعية في مدينة تريم في أواخر القرن الثاني عشر، وبدايات القرن الثالث عشر الهجري، حيث لا يوجد مصدر تاريخي قبلها يعدد بالاسم رؤساء الرتب في زمن معين.

الرسالة التي يبدو أنها بصفة عاجل تتعلق بتجاوز أحد الجنود على بـعض منسوبـي الإمام الحـداد طالبًا فيها العدول عن ذلك ومحاسبة المتسببين، وبالرغم من أن مرسل الرسالة غير مذكور، فإن لهجتها وألفاظها تبدو أنها من شخصية اعتبارية موجهة إلى سبعة من رؤساء رتب تريم وحامياتها وحكامها الفعليين.

تكشف الوثيقة حرص قادة الحاميات والإمارات على الأمن والسـلام المجتمعيين رغم أن الحـادثة صغيرة والأشخاص من عامة الرعية مرتبطين بشخصية دينية مهمة غير أنه يتبين الحـرص التام على الأحـلاف التي وقعت بين الأطراف للحفاظ على أمن المدينة واستقرارها، بـل وربـط إدامة تلك الأحـلاف بـمعالجة هذه القـضية والامتناع عن تكرارها.

تاريخ الوثيقة غير مبين بالرسالة غير أنها بالتأكيد بين سنة ١١٧٧هـ و١٢١١هـ.

رقم الوثيقة: الموسوعة ١- بني بكر	نوعها: رسالة
المجموعة: ناصر علي الفقيه بن عز الدين البكري	تاريخها: بدون تاريخ (بين ١١٧٧- ١٢١١هـ)
صادرة من: نصاب (ليست منطقة إقامة كاتب الرسالة وإنما وجوده بها في أثناء الإرسال)	واردة إلى: تريم حضرموت
المرسل: مجهول	المستلم: رؤساء رتب تريم

النص:

(الحمد للّه وحده، المشايخ الكرام الشيخ الأكرم (قحطان بـن مطهر هرهرة)[٧] والشيخ الأكرم (حسـين بـن صالح الضباعي)[٨]، الشيخ (عبـداللّه بـن مقبل الضباعي)[٩]، والشيخ (عبداللّه بن أحمد غرامة)[١٠]، والنقيب (لحمان بن حسين بـن همام)[١١]، والشيخ (عبـداللّه بـن محـمد بـن عبدالقادر)[١٢]، والشيخ (علي بـن سعيد متاش)[١٣]، وكافت رتبة تريم بعسي وهمامي، عافاهم اللّه آمين.

السلام عليكم ورحمت اللّه وبـركاته، صدرت الاحـرف من (نصاب)[١٤]، والأعلام سارة، أخبار الجهة ساكنة بـعون اللّه الكريم والسـلف الصالح، ولا يخفى بـأنكم حـلفاء الأول والتالي، وبلغنا ما جرى من الاقـدام من يافع على مناسيب الحبـايب آل الحـداد وأخدامهم وهم جبـرين مجللين

محترمين سابق ولاحق وخرجت سواق وفعـ..... حد من مناسيبهم إلى (الحاوي)[١٥]، وعلا أخدامهم بطلاب دراهم ولا حد فيها لا منصب ولا سلـ(طان) ولا يافعي وحصلت من ذلك عندنا المشقة العظيمة، وهذا أمر ما يمكن ولا يرضي الله ولا رسوله ومنصب الحبيب (عبدالله حداد)[١٦]، وانسابهم وطوارفهم وأخدامهم وما يلوذ بهم }ما{ شي يعذرنا منه قط أبدًا، فإن انتوا على ما بيننا وبينكم من العهد فما راح على نسابت الحبايب آل الحداد سيد وخادم يسلم إلى يد النقيب (يحيى بن صالح) واقبال منكم برضى شايع لمنصب الحبيب عبدالله حداد في اقدام... إلى (الحوطة) وإن عندكم اختلاف فيها ..... جوابكم صدر النقيب يحيى منوح عليكم للوفا وصدر خط شاهد فيه على الامرصاص وعلامتنا ومرا..... بعلامة الحبيب الشيخ (سالم بن أحمد)[١٧]، وعلامتكم يا مشايخ يافع تنطرح فيه، وصدرت كتب للجميع من الامرصاص، ومنا وبلسان النقيب يحيى بن صالح ومن معه كفاية والسلام).

الهوامش:

١) بامطرف: محمد عبدالقادر، في سبيل الحكم، دار حضرموت للدراسات والنشر، المكلا، ط١، ٢٠٠٨م، ص١١.

٢) بن الشيخ أبي بكر بن سالم: محمد بن سقاف، بستان العجائب ومطلب الراغب في مناقب المتأخرين من المناصب والحبائب، مخطوط بمركز النور بتريم برقم ٤١، نسخة بحوزة الباحث، ص١٨٢- ١٨٣.

٣) نفسه، ص١٨٣.

٤) البكري: صلاح عبدالقادر، حضرموت وعدن وإمارات الجنوب العربي، مكتبة الإرشاد، جدة، ١٩٦٠م، ص٩٩.

٥) البطاطي: عبدالخالق بن عبدالله بن صالح، إثبات ما ليس مثبوت من تاريخ يافع في حضرموت، مطابع دار البلاد، جدة، ط١، ١٩٨٩م، ص٩- ١٠، الموسطي: طارق، وآخرون، الموسوعة اليافعية، دار الوفاق للدراسات والنشر، عدن، ط١، ٢٠١٥م، م٨، ج١٢، ص٣٢٤- ٤٦٥.

٦) السقاف: عبدالرحمن بن عبيدالله، بضائع التابوت نتف من تاريخ حضرموت، مخطوط، ثلاثة أجزاء، نسخة بحوزة الباحث، ج٢، ص١٧١.

٧) قحطان بن مطهر هرهرة: من رؤساء الرتب اليافعية في تريم في النصف الثاني من القرن الثاني عشر الهجري ورد اسمه في رسالة موجه إليه من السلطان أبوبكر بن عمر هرهرة المتولي سلطنة يافع سنة ١١٥٨هـ، (وثيقة ضمن مجموعة ناصر علي عز الدين) كان مرتبًا في حصنه المعروف والمشهور إلى اليوم بحصن مطهر جنوب المدينة.

٨) حسين بن صالح الضباعي : هو حسين بن صالح بن علي بن داود بن احمد بن عبدالله الضباعي كان حيًا سنة ١٢٠٨هـ، فقد ورد في وثيقة أخرى لدينا (مجموعة ناصر علي عز الدين) وعاش إلى سنة ١٢١١هـ، وأما ابنه الشيخ علي بن حسين بن صالح بن علي بن داود الضباعي، فمن مشايخ لبعوس وشيخ مكتب لبعوس وأحد الرؤساء الذين جاؤوا من يافع إلى حضرموت فيما بعد حين أرسل الجمعدار عوض بن عمر القعيطي رسالة لنجدة أهل يافع بحضرموت، وكان وصولهم إلى حضرموت في شهر محرم سنة ١٢٦٥هـ، وصفه ابن حميد في (العدة المفيدة) بأنه «مقدم في قومه رئيس لهم، لين العريكة، حاذق شاطر»، وهو والد الشيخ سالم بن علي الفقيه الذي أخذ علوم الشرع عن علماء مدينة تريم. (إفادة من الأخ عبداللاه الضباعي ٢٠١٩م، العمري: نادر، الموسوعة اليافعية، م٧، ج١٠، مكتب لبعوس، ص٩٧، ١١٩؛ والكندي: ابن حميد، تاريخ حضرموت المسمى العدة المفيدة، ج١، ص٤٠٢، ٤٢٦.

٩) عبدالله بن مقبل الضباعي: عبدالله بن مقبل بن علي بن داود بن أحمد بن عبدالله الضباعي نجل شيخ مكتب لبعوس بيافع الشيخ مقبل (عاش إلى سنة ١٢١٤هـ حسب آخر وثيقة ذكر فيها)، وكان عالمًا بالشريعة فقيهًا فاضلًا ومرشدًا، ورجل خير خلف ابنًا اسمه علي، وأما شقيقه الشيخ حسين بن مقبل من مشايخ لبعوس، وشيخ مكتب لبعوس خلفًا لأخيه عبدالحبيب بن مقبل مثل مكتب لبعوس في مبايعة السلطان حسين بن صالح بن هرهرة وتنصيبه سلطانا عل يافع بني مالك في شهر ذي الحجة سنة ١٢٥٧هـ وتولى خلفا له في مشيخة لبعوس الشيخ سالم بن علي بن حسين الفقيه، الذي أخذ علوم الشرع عن علماء مدينة تريم. ينظر: الموسوعة اليافعية، م٧، ج١٠، مكتب لبعوس، ص٩٢- ٩٣، ٩٧، ١٣٨، إفادة من الأخ عبداللاه الضباعي، ٢٠١٩م).

١٠) عبدالله بن أحمد غرامة: عبدالله بن أحمد غرامة المنصوري البعسي، ورد اسمه في رسالة موجهة إليه من السلطان أبوبكر بن عمر هرهرة، المتولي سلطنة يافع سنة ١١٥٨هـ، وهو أخو سالم وعوض بن أحمد.

١١) لحمان بن حسين بن همام: لحمان بن حسين بن محمد بن علي بن أحمد بن همام الناخبي، تولى نقابة تريم في عهده، ومحل حكمه حصن تريم المشهور بـ(الرناد). (الموسوعة اليافعية، م٨، ج١٢، ص٧٤).

١٢) عبدالله بن محمد بن عبدالقادر: عبدالله بن محمد بن عبدالقادر العمري البعسي، أمير إمارة آل بن عبدالقادر في النويدرة شمال المدينة.

١٣) علي بن سعيد متاش: علي بن سعيد متاش البعسي، صاحب حصن متاش المشهور، (المسمى نافي حاليًا)، في شعب متاش بين النويدرة ودمون.

١٤) نصاب: من مدن محافظة شبوة، كانت عاصمة للسلطنة العولقية -العوالق العليا- في عهد السلطنات. (المشهور: أبوبكر العدني بن علي، الطرف الأحور في تاريخ مخلاف أحور، مركز الإبداع الثقافي للدراسات وخدمة التراث، عدن، ط١، ٢٠٠٧م، ص١٠٧).

١٥) الحاوي: ضاحية شرقي تريم سكنها الإمام عبدالله الحداد، كانت منفصلة عن تريم وأدخلت في سورها الأخير سنة ١٣٣٠هـ. (عبدالرحمن بن عبيدالله السقاف، معجم بلدان حضرموت المسمى إدام القوت في ذكر بلدان حضرموت، دار مكتبة الارشاد، صنعاء، ٢٠٠٢م، ص٥٣٠).

١٦) عبدالله بن علوي الحداد، ولد ليلة الخميس ٥ صفر سنة ١٠٤٤هـ بتريم، وتوفي سنة ١١٣٢هـ.

١٧) سالم بن أحمد: سالم بن أحمد بن علي بن أحمد بن علي بن سالم المهاجر بن أحمد بن الحسين ابن الشيخ أبي بكر بن سالم، تولى المنصبة سنة ١١٧٧هـ، وتوفي سابع شهر رمضان سنة ١٢١١هـ بعينات. (بستان العجائب، ص٧٦- ٨٩).

52
العدد (14)
أكتوبر
ديسمبر
2019م

حداثة العاميّة في ديوان "بخيتة ومبخوت" للشاعر "س. س. الجريري"

(٢ - ٢)

أ.د. عبدالله حسين البار

والأعلام في شعر الجريري قسمان. قسمٌ منها مرذولةٌ سيرتها، شائهةٌ صورتها في خلد الشاعر ووجدانه على الرغم من شعبيّتها، وعلى الرغم ممّا في نفسه من تفاعلٍ مع قضايا البسطاء من أهل هذا المجتمع، ومن أمثلة أولئك الأعلام (عميرة بنت بو عامر)، التي غدت رمزًا للسقوط الذي ساقها إلى التمرّغ في أوحال المجتمع حتّى لم يَسَعْ كلُّ ذي قلبٍ يقظٍ وأنفٍ حميٍّ إلا انتباذها والنأي بنفسه وبأهله عنها وعن مثيلاتها.

ولكي يجسّد لك دلالة العلم الرمزيّة يكتفي بتلقّط الصور الدالة على مقصديّة الرمز وما يتلألأ من إيحاء دلاليّ في ثناياه دون اكتراثٍ بتقديم صورة رمزيّة مضادة تتمثل بنيةً تقابليّةً مع صورة عميرة ومثيلاتها. لكنّه يستعيض عن ذلك بجلاء موقفه الحاسم منها ببتر العلاقة بها والتهديد بالويل إن رآها قريبة منه أو من بعض مَنْ يحبّ:

ونا بحوي على أهلي ومتسلّب معي مسبت
وميزر عزّ لسلوبة وعندي للشرف سيفين
ومقصورة عميرة دحقتش في دارنا حرمت
ولي هو بيننا غلّق ولا شي لش علينا دين

وهنا لا يجد قارئ القصيدة صورة للمرأة تغاير صورة عميرة هذه وتبدو في النص صورة للمعنى السامي للأخلاق والقيم النبيلة. أتراه يصنع ذلك لانشغاله بذمّ الموجود المشهود فانصرف عن التغنّي بالمأمول المنشود؟ ربّما.

وليس ببعيدٍ عن عميرة بنت عامر (عبود) الذي (طبعه الحتم إلا وإلا)، وهو يجلو صورته من خلال هذه المفارقة بين انفراده عن الجماعة عند الشدّة والفزع، والتحامه بهم عند الرخاء والطمع. ثمّ من خلال بعض المفردات الدالة على الهجاء المباشر والذمّ الصريح.

وعلى الرغم من اتسام هذا العَلَم بالمحلية فإنّه يومئ به من طرف خفيّ إلى مَنْ جاء من خارج الدائرة المحليّة ليدرجه في سلّة (جعفر بو كمر، والشعملي، وبوشعمل، وقشرة الحنشان...)، وكلّها أعلامُ إيحاءٍ دالة على التردّي والسقوط.

قسمٌ ثانٍ منبثقةٌ صورته من قاع المجتمع يأسى الشاعر لآلامها ويشجى لمعاناتها ما دامت أشباهًا عواديها. ومن أولئك (بخيتة ومبخوت، وسمر) التي نهشتها أنياب الختل ومزّقتها أظافر الطمع ولم يألم لمأساتها غير الشاعر الذي تخفق في ضلوعه آلام المساكين الضعفاء الحيارى. وإنّ في قصيدة (حكومة باحريز) التي تراءت فيها خديجة رمزًا لهم ولمعاناتهم في هذا الوجود الاجتماعيّ البائس الذي يحرم فيه المسكين من الظفر بأقلّ احتياجاته الإنسانيّة ناهيك بأكثرها تعقيدًا دلالةً على صنيع الشاعر س. س. الجريريّ في توظيف الأعلام في قصيدته، واستدلٍّ على الغائب من الشاهد، فالأشباه تتناظر والنظائر تتشابه. لكنّي أقول إنّه لا يستخدم الأعلام ليطرّز بها متنه الشعري تطريزًا ظاهرًا لا جوهرَ له

ولكنّه يوظّفها فيه لينتج المعنى وتستقيم من خلالها الدلالة المبتغاة. وهذا ملمحٌ من ملامح الحداثة الشعرية التي استخدم شعراؤها التقنية لوظيفتها في النص وليس لما تتسم به في ذاتها من سمات ومعنى.

التداخل الأجناسي في قصائد الديوان:

ومن هذا الباب ما نجده في الديوان من تداخل أجناسي بين نصوصه. فالأصل في الشعر عند كثيرٍ من الشعراء أنّه غناءٌ تترقرق فيه الرؤى وتتجلّى المواقف، لكنّ من الشعراء من تجاوز هذه الغنائيّة إلى شيءٍ من السرديّة أو المشهديّة المسرحيّة، وإنّ منهم مَنْ أوغل في اللقطة السينمائيّة لتتضمّخ القصيدة بتقنياتٍ جماليّةٍ تتجاوز بها اللغة وظيفتها (التعبيرية) لتنساب في فضاءٍ تتعدّد فيه وظائفها وتتسع الدلالة حتى لا تكاد تحيط بها الصفة إلا قليلًا.

وفي شعر العاميّة الحضرميّة عَزَّ مثلُ هذا التداخل الأجناسيّ في قصائده مسرّحةً كانت أم مساجلةً أم قصيدًا مغنّى إلا فيما ندر، وعلى صورةٍ جزئيّةٍ محدودةٍ لا تكاد تتجاوز حدودها القصيدة الواحدة بين عشرات القصائد الغنائيّة المحضة. وأضرب لك أمثلةً شاردةً، هذا حدّاد بن حسن يقول في إحدى أغنياته:

قال الفتى قلبي الليلة سمع عنقا
وناحت العصر بالأنغام
يا غارة الله شو في صوتها رقّة
باللحن تشجي
وبلحنها خلّت العاشق ضوى مغروم

يومئ هذا المفتتح بتهيؤ النصّ لبنيةٍ سرديّةٍ تتوالى فيها الوقائع والمواقف وتتنوّع فيها الشخصيّات وما إلى ذلك ممّا يقتضيه البناء السرديّ في النصّ، لكنّ الشاعر

الشاعر سعيد سالم الجريري

اكتفى ببيتين بعد ذلك البيت لينفرط عقد السرد في القصيدة وتستمر اللغة في وظيفتها التعبيريّة على ما هو مألوفٌ في أشباهها. وقريبٌ منها ما صنعه المحضار في أغنيته (ما زلت يا طير متعلّي ما تعرف الساحل القبلي من حيث يتحصّل الياقوت). وهنا يتجلّى معنى التداخل الأجناسيّ في قصائد هذا الديوان.

وفي توغل قصائد الديوان في توظيف التداخل الأجناسيّ ما يصل بينها وبين أنماطٍ من شعر الحداثة العربية اتخذت من البناء السردي وسيلةً تتجاوز غنائية النص، وأداةً في تمثّل المعنى وجلاء الدلالة.

وقد عمد الديوان إلى ذلك في نصوصٍ مثل (ورطة/ كنيكونة/ فتوى/ دشكا/ ...). وهنا تبنى القصيدة بناءً سرديًّا دون أن تخلي أبعادها من تعبيريّةٍ يدلّ عليها استخدام ضمير المتكلم، واستخدام التشكيل الاستعاري للغة، وما أشبه هذا او دنا منه من حيث إن السردَ أليقُ به استخدامُ ضمير الغائب واستخدامُ التشكيل الكنائيّ في النص.

والسرد في القصيدة لا يقوّض عناصرها من حيث هي (بنية) ولكنه يعيد تشكيلها من حيث هو طريقة في (البناء)، وبين المصطلحين فرق. فالبنية ثابتة جامدة، والبناء متجدّدٌ متحوّلٌ.

البنية شغل البنيويين الشاغل، والبناء هدفُ لنظرات الأسلوبيّين والسيميائيّين ومن سار على دربهم من تابعي المناهج اللسانية في النقد.

والشاعر س. س. الجريريّ حين يستخدم البناء السردي في قصيدته لا يغفل عن الاحتفاظ ببعض خصائص لغتها ليتذكّر القارئ أنه يقرأ شعرًا ولا يطالع نثرًا، ولست أعني بهذا استخدام الوزن والقافية فقط ولكنها أمورٌ تتجاوزهما إلى طبيعة اللغة التي تمنح النص هُويته الإبداعيّة. وخذ على ذلك مثلا قوله في مطلع قصيدته (ورطة):

من حكاية خيبة الحلوة سمر
حس في قلبي كما قبص الجحام
يومها حلوة وتملاه النظر
مثلما البدر المنوّر في التمام
زوجوها العود جعفر بو كمر
واندفن عمر البنيّة يا حرام

فالناظر إلى قوله: (حس في قلبي كما قبص الجحام/ مثلما البدر المنوّر في التمام/ اندفن عمر البنيّة/ يا حرام)، يجد استخدامًا لضمير المتكلم، ويجد علاقة التشابه استعارةً وتشبيهًا، ويجد أسلوب التعجب وكلها عناصر لغوية تمنح وظيفة انفعالية تعبيرية هي أدخل في عالم الشعرية من حيث إن التماثل أو قل التناسب قانون إنتاجها. لكنّ القارئ حين ينظر إلى قوله: (الحلوة سمر/ يومها حلوة وتملاه النظر/ زوجوها العود/ جعفر بو كمر) يجد استخدامًا لضمير الغائبة والغائب، ويجد علاقة التجاور الناتجة عن استخدام الكناية في (جعفر بو كمر) حيث إن المال الموجود في (الكمر) هو للصرف والإنفاق لا للحفظ والادخار،

ويجد فيه هذا التشويق بمعرفة التفاصيل التي احتوتها الحكاية، وكلُّها عناصرُ تمنح وظيفةً مرجعيّةً هي أدخل في عالم السرديّة من حيث هيمنة السياق على النص. وإنْ هذه الأبياتُ الثلاثةُ إلا مفتتحُ لأبياتٍ تاليةٍ تتضمّن تفصيلات الحكاية التي أجملها في ذلك المفتتح.

والشاعر ينوّع في مفتتح قصائده ذات البناء السرديّ فيجيء به تارةً على هيئة نداء يلفت المنادى إلى القصة التي يرغب في عرضها كما في قوله:

يا بو الفتاوي جيت بستفتيك

جد لي جزاك الله بالفتوى

مبلي انا الله لا يبليك

وصبرت جم عا كم كم بلوى

وبليتي محزاة لو بحزيك

كل ما انقضت حزوة أتت حزوة

وفيها مشابه من اختصام الأرنبة والثعلب إلى الضبّ الذي فصل بينهما في ساعة الشكوى. لكنّ س. س. الجريريّ لم يُظْهِرْ صاحبَه أبو (الفتاوي) على أرض الحدث، ولم يُسْمِعْ صوتَه الآخرين لأنه ليس بحاجةٍ إلى فتوى في الأصل، فالحكم مخزونٌ في وجدانه ومعلّقٌ بجنانه وإنما همُّه من القصيدة الإعلانُ عن جوهر التجربة وجلاء صورة الآخر كما كشفت عنه وقائع الحدث.

وقد يفتتح القصيدة ذات البناء السردي بالحكمة الموغلة في التجريد ثم ينزاح عنها إلى الحدث المتعيّن كما في مطلع قصيدته (كنيكونة):

الصدق عملة قال شاعر في الزمن ذا نادره

والله لكل صادق ولي كل من صدق الله معاه

الصدق عنوان التقى والمتقي الله ناصره

والصدق قد نجّى محمد والذي صدقوا كماه

ثم يقتضب القول لينسرب إلى جوهر الحدث فيلجأ إلى صيغة تعرفها الذائقة الشعبية لارتباطها بطرائقها في إنشاء القول وأعني بها قوله (بالمختصر بحكي لكم قصّة لقتها البايرة).

وهو يجيد استخدام مثل هذه اللوازم السرديّة ويحكم نسجها في ثنايا القصيدة، ومن أمثالها قوله (قل بتت البتّة) وهي صورةٌ من صور القفز في الزمن كما يقول علماء السرديّات لكنهم لم يقعوا عليها لأنّ مبدعي السرد عندنا لم تلفتهم هذه الصيغة

وأمثالها، ولو أنها وجدت عبقريًّا في السرد مثل يوسف إدريس لصاغ منها البدائع. على أنّ هذا استطرادٌ أتجاوزه لأقف عند قصيدة (دشكا)، وهي على شعريّتها سرديّة بامتياز، تجد ذلك من كثرة استخدام الفعل الماضي (تكرر في الأبيات خمسًا وعشرين مرة)، ووفرة استخدام الكناية في إطار علاقة التجاور كما في قوله: (أطقم دواشك ما كماها عالحدود/ تسلم وتبقى للسقل ما دمت عالبنكا/ جا عند بو ناصر فرج لي يندر الهشكا/ با يلعبوا تربين بالجوكر وباليكا). وهو يزاوج في طريقة عرضه للحكاية بين أسلوب الإخبار والرواية عن الحدث، وأسلوب (التمسرح) لتتجلى الشخصيات في مشهدٍ مسرحيٍّ فيبرز الحدث وتتكشّف بواطن الشخصيات من خلال الحوار. فإذا كان (المتكلم) هو راوي الحدث وجزءٌ من نسيجه فإنّه لا يخلو من لطافةٍ في السجايا، ومسالمةٍ في الطبع، على بساطةٍ في مباشرة الحياة دون تكلف أو تعقيد: (نا الا على العادة هنا ومساهن البشكا). وهو لا يخلو من غفلةٍ عمّا يجري حوله من وقائع، ولذلك يفجؤه حدوثها حين تتجلى أمامه: (قلت: الخبر، إيش الخبر؟ حشدوا حشود، وتقفل الشارع، وفي كل زاوية دشكا)، ويفزعه سماع تفاصيلها حين يخبره بها شاهدٌ من أهلها: (فرقزت: يا ساتر، وملقي له حرس؟)، لكنه لا يخلو من سخرية وتهكم تنمّان عن إحساس صافٍ بالحياة (والتالية هشكا، ويا داحس دحس، آه لو جنوده يعرفوا دله وبس، با يلعبوا تربين بالجوكر وباليكا)، وهي سخرية تذكر بما اتسم به شعر أمل دنقل من تهكم وسخرية. وليس في هذا ما يضير، فالرؤى حين تتداني يسهل على أصحابها اقتراض التقنيات ووسائل الأداء لجلاء الرؤية وإبراز المواقف.

وإن في القصيدة براعة شعرية عمد فيها النص إلى تحويل دلالة (الدشكا) من تكوينٍ حديديٍّ مصنوع إلى تكوينٍ طبيعيٍّ مخلوق، تنتقل به الآلة من حقل حربيٍّ إلى حقل جنسيٍّ ليزيد معنى السخرية ودلالة التهكم عمقًا في نفس المتلقي.

لقد كان في مقدور الشاعر س. س. الجريري أن يقول المعاني التي تضمنتها تلك القصائد ذات البناء السردي بيتًا

بيتًا في غناءٍ يعبّر عن موقفه من ذاك الذي جرى ويجري في واقعه المعيش لكنه أبى فتخيّر لقصيدته تشكيلًا شعريًا مضمخًا بالسرد مما منح قصيدته هُويّةً إبداعيّةً متميزة.

جدل الشفاهي والكتابي في الديوان:

تمثّل الديوان وعيًا كتابيًا بامتياز، لا من جهة استيعاب صاحبه للمكوّنات التي بها يصير النص كتابًا فحسب ولكن من خلال معطياتٍ في لغته أهمُّها استخدام بنية الفصل دون بنية الوصل في كثيرٍ من المظانّ، وإن لم تخلُ جمله من استخدام صور الوصل في مظانّ أخرى. ومن هنا جاء الحديث عن جدل العلاقة بين الشفاهيّ والكتابيّ في نصوص الديوان. وإنّ من مصادر الكتابيّة فيه المنزع الإبداعيّ الذي انتهجه الجريريّ عند صياغة القصيدة، وأعني به طرائق الحداثيّين في صوغ الشعر وسبكه وحبكه، فترسّم خطاهم وإن استقلّ عنهم بلغته وطرائق تشكيلها. وإنّ من صور الكتابيّة في شعره بناء القصيدة بناءً سرديًا كما سلف عرضه في فقرةٍ سابقةٍ، فالسرد يقتضي ترتيبًا في عرض الحدث ورسم المواقف وجلاء الشخصيّات، وهو أمرٌ لا يُمْكِن منه غيرُ الكتابة، وإذا جاز وأسعفت الشفاهة منه فلسذاجةٍ في عرضه وسطحيّةٍ في مدلولاته. هذه واحدةً، وثانيةً من صوره استخدام (التشعيب) في عَروض النصّ. والأصل أنّ البيت في القصيدة ذاتِ الشطرين أن يستقلّ كلُّ شطر بوزنه وجمله وتستقيم له الدلالة على ذلك النحو من التشكيل، لكنّ للشعراء أمزجةً تتأبّى على الانصياع لما يقوله النقّاد وعلماء الشعر إذ هم ملوك الكلام يصرّفونه أنّى شاءوا وكيف شاء لهم الإبداع فيخرجون عما اشترطه النقّاد من قبل فيأتون بالبديع من القول. أتراه لهذا تحدّى أبو تمّام عمود الشعر فجلّى واستعصم به آخرون من بعده فتقاصروا عن صنيعه؟ ربّما. على كلّ حالٍ عمد الجريريّ إلى التشعيب في قصيدته توكيدًا لمنزعه الحداثيّ في الكتابة فجاء نصّه عند إنشاده موزّعًا في عددٍ من الجمل المتفرّقة على عددٍ من السطور. وهو ما لا يتمّ إدراكه إلا حين يعيد المتلقّي كتابة الأبيات على السطور مرّةً أخرى. وذلك على نحو من هذا المثال، قال:

بحري أنا ... والبحر يا عالم شراع
نسمة هوا ورياح خير امباركة
وإن عاكستني أو طرا أطاري وصاع
موجة على موجة طريقي سالكة
سدّي فضا ربيّ وآفاقي وساع
والبحر بحر الله ما هو الخانكة

هذه الأبيات المنتظمة في بحرٍ واحد، ويستقلّ كلّ شطر فيها بحرفٍ رويّ، تستحيل عند تيقّظ الوعي الكتابيّ إلى عدد من الجمل وتتوزّع على عدد من السطور على نحو يدنيها من كتابة قصيدة التفعيلة عند شعراء الحداثة العربيّة في عصرها الحديث، وذلك على النحو الآتي:

بحري أنا
والبحر - يا عالم -
شراع
نسمة هوا
ورياح خير امباركة
وإن عاكستني
أو طرا طاري
وصاع موجة على موجة
طريقي سالكة
سدّي فضا ربيّ
وآفاقي وساع
والبحر بحر الله
ما هو الخانكة.

ومن أمثاله التي خرج فيها النصّ من دائرة الشّفاهيّة إلى دائرة الكتابيّة قوله قصيدةٍ أخرى:

فاضية!! لا تصبح ما فيها مهبّي
يسمعك لا صحت ويفك الحصار
ما بقت عزوة ولا داير وعصبي
وين أهل الحي؟ لا صاحب وجار
فرفروا صحابك وقع يا كوس هبّي
وش معك في الكوس بن عمّ الغبار.

هنا تنتظم الأبيات كأمثالها في بحر واحد، وتتقسّم إلى شطرين، ويستقلّ كلّ شطر بحرف رويّ وقافيةٍ. لكنّ إنشادها يفضي إلى تقسّمها على نحو كتابيّ آخر ومغاير لما أُلِفَ من أمثالها، فتغدو على الهيئة التالية:

فاضية!!
لا تصبح
ما فيها مهبّي يسمعك لا صحت
ويفك الحصار
ما بقت عزوة
ولا داير وعصبي
وين أهل الحي؟
لا صاحب وجار
فرفروا صحابك
وقع يا كوس هبّي
وش معك في الكوس بن عمّ الغبار؟!

من ذينك المثالين -وسواهما- نتبيّن كيف أنّ الشّفاهيّة أسهمت في إنتاج الكتابيّة في النصّ فتماهت مع وعي الشاعر بوظيفتها في توكيد

انفصاله عن الوعي الجمعيّ المحيط به واستقلاله بذاته رفضًا وانتماءً، حبًّا وكراهيةً، وإلا ما معنى لقائه الأخير مع أبي موسى الأشعريّ؟

لكن -ولا بدّ هنا من لكن- هذا الشعرُ منظومٌ بالعاميّة الحضرميّة كما جاء في غلاف الديوان، والأصل في الشعر العاميّ أنّه شفاهيٌّ بامتياز، فهل خلت قصائد الديوان من تلك الشّفاهيّة؟ الواقع أنْ لا. فلقد تجلّت هذه الشّفاهيّة فيه على صورٍ، منها الإطناب في استخدام الصفات كما في قوله:

خديجة بنت بوها خشمها كالسيف لي يقطع
وهامة عالية ما يذلّها حد أو يوطّيها

فقوله: (لي يقطع) زائدة لا يحتاج إليها المعنى لأنّ الأنف الذي كالسيف يظلّ على هيئته قطع أو لم يقطع. و(الهامة) التي لا تذلّ ولا تنحني تبقى عاليةً إلى أبد الآبدين. ومن هنا فلا حاجة إلى هذا الإطناب على المستوى الكتابيّ في النصّ، لكنّ الشّفاهيّة تقبل به وتؤثره دون سواه.

ومنها استخدام حرف العطف من بنية الوصل بين الجمل. واقرأ معي هذه الأبيات من قصيدته (حكومة باحريز):

وقع لي من حصاة الواقعة من قبل ما توقع
على روس اليتامى ما قدرت البرّ نجفيها
ولي هم ذخر في وهمي تناسوا والتهوا بقطع
وتبعوا الفانية كلين داوي في ملاهيها
وحد يفقع وحد يزمل ويتنصرّ ويتبرّع
وضحكوا يوم قلت ترفّعوا بانت مناشيها
ونسيوا بو فرج وسعيد ومريزوق وربيّع
وضاع الصوت في الزحمة وفي حوسة ملاويها
ولا شي بي زعل راضي عَلَيْ ربيّ، ولي يشفع
محمد سيد الكونين أولها وتاليها
ولكنّ البنية صوتها لعلع ولم أهجع
شكت من قلة التقدير.. هل في الأرض واليها؟

ستّةُ أبياتٍ تكرّر فيها حرف العطف (الواو) سبع عشرة مرّة ممّا يشي باتصالها مبنى ومعنى، والوصل بين الجمل باستخدام بنية العطف صورة من صور الشّفاهيّة في النصّ. لكنّ النازع الكتابيّ عند الشاعر هو الذي جعله ينزاح عن هذه البنية في الشطر الأخير من البيت السادس من هذه الأبيات فيعمد إلى بنية الفصل لتتداخل الجمل دون استخدام حرف من حروف العطف فقال: (شكت من قلة التقدير.. هل في الأرض واليها؟). وفي هذا وأمثاله ما يشي بتداخل العلاقة بين الشّفاهيّ والكتابيّ في قصائد الديوان.

ومن صور الشّفاهيّة المحاكاة الصوتيّة لبعض اللهجات المحلّيّة كما في قوله: (ما تفكّرينا في غنمكم والعجول)، وطريقة نطق الفعل هنا (مشقاصيّةً) خالصة.

ومن صورها استخدامُ القوالب المكرورة في شعر العاميّة الحضرميّة من مثل الافتتاح بالحمدلة أو البسملة أو الصلاة على المصطفى المختار عليه الصلاة والسلام واختتام القصيدة بمثل تلك الصلاة عليه، كقوله مفتتحًا قصيدةً:

الحمد لله ألف وصلاتي على من أرسله
بشرّ وأنذرنا وهو يشفع لنا يوم الحساب

وكقوله مختتمًا قصيدةً:

بيموت مطمّن على أهله زكين
وختامها صلّوا على طه الأمين

ومن صورها أيضًا استخدام أسلوب التعجّب في النصّ وله صورٌ لا تخفى على لبيب فلتنظر هناك وحسبك من القلادة ما أحاط العنق.

ولا تخلو قصائد الديوان من استدعاء بعض نصوص سبقت في تاريخ اللغة العربيّة الفصيحة أو العاميّة الحضرميّة كما في قوله: (نا نعرفك رايد ولا يكذب أبد رايد هله) الذي يستدعي قول الرسول عليه الصلاة والسلام: «إنّ الرائد لا يكذب أهله». وقوله: (وش معك في الكوس بن عم الغبار) يستحضر قول باحريز: (جبت الفوايد لول والا الكوس بن عم الهبوب). وقوله: (وقال ما عندي كما العيدة خصار) لا يبعد عن قول الشاعر الأول (العطيشي): (خاطبك في المظبي تقول لي العيد زينة والعنوب)، وليس المثل العربيّ ببعيدٍ عن قول الاثنين معًا. وفي قوله:

قال إيش تقولي يا كنيكونة انقلبتي ساحرة
والا نسي حاشاه موسى عند أخوالش عصاه
والا سر قستيها على غفلة وطرتي طايرة
ولعاد فكّرتي بموسى بين ذولاك الحواه

دندنةٌ حول قصّة نبيّ الله موسى وسحرة فرعون وعصاه التي لقفت ما أفكوا لأن الله لا يصلح عمل المفسدين. أمّا قوله في القصيدة ذاتها: (وبدت كنيكونة تفصّل له من عطارد كساه) فناظر إلى نصّ المثل الحضرميّ: (يفصّل من السماء قمصان)، أي أثوابًا للصلاة. وكفى بهذا خبرًا عمّا في نصوص الديوان من هذا المكوّن الأسلوبيّ أشباهًا ونظائر.

جمالية الكراهية في الديوان:

وهل الكره جميلٌ ليلد إنشائيّةً جميلةً؟ الواقع أن نعم، ولكن حين يخبر الشاعر مضايق الكلام إليه، فيجيد طرائق سبكه، وجلاء محاسنه، فيغدو صورةً للكلام السّامي فلا يسفّ. ولعلّه لشيءٍ قريبٍ من هذا تكلّم نقاد الحداثة عن شعريّة القبح عند شعرائها على الرغم من قدم

وجود صور منها في تاريخ الشعريّة العربيّة، فهذا امرؤ القيس يقول:

ترى بعر الآرام في عرصاتها

وقيعانها كأنّه حبّ فلفلِ

ويقول:

لها ذنبٌ مثل ذيل العروس

تغطّي به فرجها من دبرْ

والقبح لا يخفى في صورة (بعر الآرام وذنب الدابّة الذي تغطّي به فرجها من دبر)، ومع ذلك قبلته ذائقة المتلقّين منذ الجاهليّة حتّى يوم الناس هذا، ولم يأنف من ترديده كلّ ذي بصر بالشّعر.

أضف إلى هذا أنّ الكراهية هنا حافزٌ من الحوافز المحركة للإبداع شأنها شأن الحبّ وإن تخالفا في الاتجاه وتعاكسا في الغاية. وما شعر المديح والهجاء إلا صورتان من صورهما. وما وُجِدَ شاعرٌ مَدَحَ إلا عَرَفَ السبيل إلى الهجاء، وحسبك بالحطيئة وابن الروميّ وأبي الطَيّب أمثلةً شواردَ في هذا المقام.

ومن المعلوم في تاريخ الشعريّة العربيّة أنّ الحطيئة رفع من شأن بني أنف الناقة حين قال فيهم:

قومٌ هم الأنف والأذناب غيرهم

ومن يساوي بأنف الناقة الذّنبا

وقد كانوا يرون في لقبهم هذا سبّةً فاتشحوا بعد مدح الحطيئة إيّاهم ثوب فخر وازدهاء. وهو نفسه الذي أخزى الزبرقان بن بدر وقد كان جمّ الاعتداد والتباهي بنفسه حين هجاه بقوله:

دع المكارم لا ترحل لبغيتها

واقعد فإنّك أنت الطاعم الكاسي

ومثل ذلك كثير في شعر أبي الطيب ممّا هو معلومٌ ومدرك. وفي هذا وهذا ما يدلّ على أنّ الشاعر حين يقتدر على القول يقبل على المدح إقباله على الهجاء، ويجمع بين النقيضين في نفس واحدة لأنّ الله فطرها على ذلك النحو من الانشطار، قال تعالى: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ [الشمس: ٧- ٨].

فهذا الاستقطاب الضدّيّ هو معنى من معاني الوجود، فما من نهار إلا ويعقبه ليلٌ، وما من حياةٍ إلا ويأتي عليها الفناء، وما من أمرٍ يرضينا إلا ويتلوه ما يسخطنا منه وعليه، ولذلك قال الله تعالى: ﴿ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ [الحديد: ٢٣]، ليتساوى الأسى والفرح في وجدان الإنسان، وتتوازن عواطفه دون اضطرابٍ، فيحيا مطمئنًّا في هذا الوجود الموّار بشتى المتناقضات.

والكراهية ليست بنية دلاليّةً منتجةً هنا ولكنّها محفّزٌ من محفّزات القريحة على النظم وصوغ الشعر، ولذلك تعدّدت الصور، وتنوّعت أساليب الأداء، والمقصود بالذم واحد، هو (الشعملي) و(أبو شعمل)، وهو (قشرة الحنشان)، وهو (الغريم الذي اشترى أبو الفتاوي بالربط)، وهو أسّ الذين امتصوا (منيحة سالمين ثم رهنوها فباعوها بكل برودة)، وهو (عبود العيف لي عيّل في الطويلة والمكلا)، وهو (اللي تحيّل وصفّر العدّاد)، وهو (الجرد الذي في الدار يتخطر)، وهو (العاوي الأحمر)، وهو (الغريم الذي يزور بو ناصر ذي يندر الهشكا)، وهو (قليل الخير)، وهو (علي فعفع الذي لقّى الفعفعة مهرة وأفلح فيها دائمًا):

علي فعفع مجرّب في البلد ولعاد با يخدع

دجاجة عزّكم ربّ تخطخط في مراعيها

وهذا الذي يظهره النصّ موضوعًا لكراهية الذات الشاعرة هو واحدٌ من خصومها -وله أشباهٌ- يستوي في ذلك أن يكونوا سياسيّين أو آخرين من غير هذه الدائرة لقيت منه الذاتُ عنتًا أو لم تلق منه عنتًا، لا يهمّ هذا هنا فالأهم أنّها تكرهه وتأبى أن تمنحه صورةً من صور الولاء، فكان البراءُ منه غايةً، والإعلانُ عن البراء منه مفخرة، ولا تتوانى الذات عن الاعتناء بإعلانها هذا البراء، وتجويد الصور الدالة عليه حتّى يعي المتلقون منها ما تشتهي منهم أن يعوه.

ولقد أفضى الإيغال في هذا الحافز إلى شيء من التشفّي بمآل خصوم آخرين كانوا يصنعون بهذه الذات وأهلها في زمنهم المنصرم ما يصنعه المعاصرون من خصومها بها وبهم وإن اختلفت الغاية وتغيّر الأسلوب، وأنت مدركٌ ذلك من قراءتك لقصيدة (حوت) وقصيدة (سرحت البغلة)، وهما تتحدثان عن كائنٍ واحدٍ وإن تنوع الرمز فيهما.

اسمعه يقول في (حوت):

حوت في السحية جدح زقلته في الغبّة المراكب

خمّ في السحية وعافت ريحته حتى الصراصير

حوت كم دوّخ عباري جالها من كلّ جانب

لا ظهر لفّوا الشبك في صرفخة مثل المصاقير

كان ما مثله في الحيتان يصرطها قناطب

قال هذا البحر بحري با لقي فيه المناكير

حوت كنّه اليوم قده الا محوّت يا عجايب

يرحمك يالحوت شي قدها تهاويلك خبابير.

الحوت هنا رمزٌ ومرموزه معروفٌ يدركه المتلقّي حين يستغرق في قراءة النصّ ويعمد إلى تأويله من خلال تلقّط العلامات المبينة عن مقصديّة النصّ.

وإنّ راكب البغلة في قصيدة

(سرحت البغلة) هو ذلك الحوت في القصيدة السالفة، فالمدلولُ واحدٌ والدالُ مختلفٌ وإن اتحدت القصيدتان في بحرهما والقافية.

هنات هينات:

من يقرأ كتاب الموشّح للمرزبانيّ يهوله ما تضمّنه من مآخذ أخذها النقّاد في قديم الزمان على الشّعراء منذ امرئ القيس وأضرابه في الجاهليّة حتّى أبي تمّام وأمثاله ممّن تقدّموه أو جاءوا بعده في عصور الإسلام. وليس بالنقد عيبٌ حين يومئ إلى بعض هنات النصّ ما دام مندرجًا في باب الودّ ونائيًا بنفسه ولغته عن شواظ الحقد، ودلّ على موضع الهنة دون تعدٍّ أو تجاوزٍ فلم يصنع ما صنعه العقّاد والمازنيّ حين أخرجا كتابهما (الديوان في الأدب النقد) فكالا للشعراء من الشتم والتجريح ما يبرأ منه النقد ويعفّ عنه قلم الأديب الناقد.

من هذا الباب ألج بالقارئ إلى بعض المظانّ ظهرت فيها بعض الهنات الهينات من مثل قوله:

وصلّوا عالنبي المقصود لي يقصده ما يرجع
وعا آله عدد ما بلغت اخديجة أمانيها

فهنا لبسٌ في قوله: (ما يرجع)، فهل المقصود لا يرجع خائبًا فعزّ عليه تبيانه لاحتكامه للوزن والقافية؟ أو المقصود بـ(ما يرجع) عدم العودة إلى حيث انطلق؟

وأقول في قوله: (عدد ما بلغت اخديجة أمانيها): لقد أقللت صلاتك على الرسول عليه الصلاة والسلام وكان ينبغي أن تكثر منها عددًا لأنّك تعلم كما نعلم أن خديجة وأمثالها من المساكين الحيارى قلّ أن يبلغوا أمانيّهم في هذه الحياة الظالم أهلها.

ومثله قوله:

بردت أعصابه وهرجه مخملي
وانقلب عصفور ذيّاك الغراب

البيتُ جميلٌ كلّه لولا (ذيّاك) التي أشار بها إلى الغراب وهي لا تليق به ولعلّها أليق بالعصفور منه لما فيها من معنى التحبيب.

ومثله قوله:

فتح بازار ثمّن كلّ شي باللي بغى قدّر
ولقّى للكلاب اسعار شي عيني وشي منقود

وما الفرق بينهما إذا كان العين هو النقد؟ وبعثُه عينًا بعين أي حاضرًا بحاضر.

ومن هذا ما نجده في بعض معارضاته لقصائد الشعراء الذين سبقوه مثل الشاعر العاميّ الكبير سعيد فرج باحريز الذي عارض الجريريّ قصيدته المشهورة (بغيت الصدق والواقع...) بقصيدتين افتتح بإحداهما ديوانه واختتمه بالأخرى. ولوضع القصيدتين في هذين الموضعين من الديوان دلالة لا تخفى على دارسي عتبات النصّ من حيث إن باحريز كان في شعره كلّه وفي هذه القصيدة خاصّة مثلًا أعلى للرفض والتحدّي والانتصاف من الظالم انتصارًا للمظلوم. وقد نسج الجريريّ قصيدتيه على وزن القصيدة الباحريزيّة وقافيتها وحرفي رويها صدرًا وعجزًا. لكن ثمّة تباينًا بين القصائد الثلاث في جوهر الهندسة الشعريّة، فقصيدتا الجريريّ تنهجان نحو التخصيص، وانحصار الدلالة في دائرة المعروف والمحدّد ولا تكاد تتجاوز الحدث ولا الشخصيّة فجاءت تعبيرًا مباشرًا عن مقصودٍ متعيّن. أمّا قصيدة باحريز فقد أوغلت في العموم متجاوزةً الخصوص، ونظرتْ إلى الإنسانيّ ذي الصفة المطلقة دون الانحصار في السياسيّ أو الاجتماعيّ ذي الصفة الآنية، قال:

ووحدة قال بو سالم خيرٌ من عشر ما تنفع
وزنها يا بن الصوري وفكر في معانيها
وللأيام سكرتها تبت وتقول لك برجع
كما لي يخرج الكلمة ويرجع ما يوفيها
ومن غراك لا تغتر ومن طمعك لا تطمع
ولا شفت السما سودة تعوذ من مناشيها.

وإنّ في ارتباط بعض أبياتها بالذات المتكلّمة قد منحها تعبيريّة حميمة افتقدتها قصيدتا الجريريّ:

ونا ما بخرج الزامل بلا سكين بتبرع
وكل رقبة طويلة راس لها آفة توطيها
صبر بيجي لها فارع من الشارع وبايفرع
وكل من سرّح النُّشرة بيده بايضويها.

ويستخدم الجريريّ لفظة (المنترة) على نحو يخالف ما جرى الاستخدام بها في شعر باحريز. قال الجريريّ:

ولي كوره في الشربة يشوف المنترة مطلع
ويحلب شاة باصالح وهي ماشي لبن فيها

وقال باحريز:

عمري في التسعين لكنّي شبي في المنترة
والشمس تشرق قال بو سالم ويعقبها الغروب

(المنترة) عند الجريريّ نزولٌ فغدت عند المغفّلين صعودًا. و(المنترة) عند باحريز سند يصعب على الضعفاء صعوده فيتباهى أمثاله بتحقيق ذلك الفعل.

فأيّ الشاعرين مصيبٌ في استخدامه هذه المفردة في شعره؟ أم تراها من ألفاظ الأضداد فيصحُّ فيها أن تكون للصعود وللنزول معًا؟

هذا سؤالٌ أدع الإجابة عنه لآخرين، وإن وددت الإشارة إلى أنّ كلّ صعود لا بدّ له من نزول، وكلّ نزول يعقبه صعود لازم، هكذا هي الحياة، وذلك هو قانونها، فهل تعي ذلك أذنٌ واعية؟

59
العدد (14)
أكتوبر
ديسمبر
2019م

أثرُ المجتمع السلبيِّ، في تشكيل الصُّورة الشعريّة

قراءة في انفصال شِقَّي التصوير واتصالهما، في ديوان (ربيع الهوى) لعبدالقادر الكاف

بين يدي الدراسة:

صُنفَ الشاعرُ عبد القادر الكاف، من بعضِ النقّاد، بأنه ثالثُ ثلاثة -بعد حدّاد والمحضار- أثْروا ومدّوا آفاق الأغنية الحضرمية، إلى جغرافية واسعة مناكبها عربيًّا، متجاوزة حدود الوطن، وإن كان لكلٍّ واحد من الثلاثة نهجُه الخاصُّ به في رسم ملامح النّص، وطرائق تشكيل لغته الخاصّة، إلا أنّ عبد القادر الكاف اختطَّ لنفسه مسارًا موسومًا بيسر الوصف، وقصر الوحدات البنائية المشكلة للنص عامّة، ومحدودية أبيات النصِّ الواحد، وتنوّع قوافي مقاطعها، سواءً على مدى البيت الواحد، أو على مسار أبيات النصّ كاملاً.

زهير برك الهويمل

ربما كان باعثُ ذلك النهج مواءمةَ حيويّة الشباب وكوامن الرغبة في التحرّر والحركة، وحبَّ التنويع والبساطة واليسر، وعدم الإغراق في عامية المعجم الحضرمي، والاكتفاء منه بما كان مشتركًا من ألفاظٍ في نطاق الشعر الغنائي الشعبي، وهو في ذلك يرسم بُعدًا عاما لمسار الأغنية الحضرمية، وإبدائها في أثواب موشّاةٍ بتطريز أنغام قصيرة الخُطا، خفيفة الوزن، رشيقة المقام، فأفاد من خبرته اللحنية، وحسه الموسيقي، في إيجاز الجمل الشعرية، بتوشيحاتٍ سلسة النغم، مستوعبةً مادة الشعر، في أيسر ما يكون الوصف دونما عناءٍ، أو تكلُّف كما هي روح الشباب الجامحة بالحركة، والتغيير بما تمتلكه، من طاقة تستقوي بها على إراوء تعطشها المشبوب، من ينابيعَ مختلفةٍ، بطرائقَ قددًا.

يمكن لدراستنا أن تأخذَ بُعدين متقابلين تترصّدُ فيهما أثر المجتمع السلبيِّ -حضورًا وغيابًا- في تمام الصورة الشعرية، واتصال شقيها، وانفصالهما وعدم تمامها، على النحو الآتي:

أولًا: مرحلة حضور المجتمع السلبيّ، وعجز اتصال شقي التصوير:

نماذج متنوعة على آلية عجز اتّصال طرفي التصوير:

تعني الدراسة بالمجتمع السلبي، أنّه مجتمعٌ شعريٌّ حاضرٌ داخل اللغة الشعرية، مثبّطٌ يحول بين لقاء الطرفين العاشقين. بلا شك لكلّ مغامرة عشقيةٍ حسّادٌ، أو بمصطلح شعري محلّي عواذل، وهو ديدنٌ جرى في الشعر ويجري إلى يومنا هذا، قد يكون هذا المذهب تهيُّؤًا يتهيّؤُه الشاعر، وقد يكون ذريعةً يرمي إليها فشلَ علاقة أو تجربة غراميةٍ ما، فيخرج منها ناصعَ الحبِّ، نقي العلاقة والذنب والخيانة، تاركًا تلك الصفات للموصوفة المترفّعة عن إجابة استجداء اللقاء. وقد يكون الحساد والعواذل الواشون حقيقةً مصاحبة للحالة الوجدانية، والعاطفية المرسومة شعرًا بنصٍّ أو نصوص.

يحضر المجتمع السلبيُّ في لغة نصوص الديوان بماهياتٍ مختلفة، نوجز منها النماذج الآتية: (غيروكم +

غيروا مجرى هواكم + اســـــتغلُّوا + انزعوكم: ٤/ ٣، لاموني + عاتبـــوني + خاصموني عذالي: ٥/ ١، غروك أصحاب الوشايات: ٦/ ٣، عذالي: ٥/ ١، الحاسد: ٧/ ٢، ترضي أعادينا: ٩/ ٢، غروه أهل الحسد + وعلموه الغرور: ٢٨/ ٣، أو لقوا غيرنا ولعاد ذكرونا: ٢٩/ ٣، يا حاســـد على عينك: ٣٢... إلخ).

لا يكتفي المجتمعُ السلبيُّ بالوشاية، والتثبـيط في شـعرية ديوان (ربـيع الهوى)، بـــــل يتدخّل كطرف ثالث، يتوجّسُ الشـــاعرُ من إذعان المخاطَب المحبوب له، واتّباعه. فيرسم حالةً من عدم الثقة، التي كثيرًا ما تساور خُطاه العشقيّة، فتخلق شرخا في بـنية الصورة التشبيهية أو الاستعارية، موازيًا لشرخ العلاقة الناتج بينهما، وإن كانت صادرة عن وعيٍ علائقي ضمنًا، إلا أنّ هذا التعالقَ يكون من طرف واحد، كما في قوله:

يـا ورد لك قلبي مشدود مايل راثي لأحوالك كذا مختار سائـل
ليه هكذا بالغصب هم يقطفونك فأنت في قلبي هنا لك قـدر عالي
با غير حتى من اللّي يوصفونك، (الديوان: ٢).

وأنت تقرأ هذا الورد في مطلع المقطع تخاله الموصوفَ (المحبـوب) ذاته، لكنّك تتفاجأ، بـعجز اتصال طرفي تلك الصورة الاستعارية التي ارتسمت في تلقيك، حين تصل إلى قوله، مخاطبًا الورد:

اتذكّر المحبوب ساعة أشوفك لأن من صورته بانت وصوفك
والقلب لا يحيا في لحظة بدونك

حضر المجتمع السلبي في: بـالغصب هم يقـطفونك، فتبدّى انفصال وجهي التركيب الاستعاريّ الذي بـدا في بـاكورة المقطع، الماثل في اللغة الشعرية للسياق، لكنّه كما أســـلفنا وإن ظهر فله في بـــاطن المخاطِب صورة متصلة التكوين، أسهم المجتمع السلبي في عدم تبدّيها، وهي التي تتفلّت متهيبةً التماهي البارز في قـوله في ختام المقطع: والقـلب لا يحيا في لحـظة بـدونك، في الجوهر المضمر(القلب) ثمة اتصال حين قـال (بـدونك) فالمضاف إليه الكاف هنا يُماهي الطرفين، ويصلهما، حين قـصد بـه المحبـوب، فهو الذي تنتفي حـياة القـلب بـدونه، وليس الورد، لكنّ ذلك المُعطى (في القلب) ليس في الظاهر؛ لأنّ بيئة الحساد تعتّم احـتمال اليقـين لدى الشاعر فيميل عن البوح إلى الإضمار.

الشاعر/ عبدالقادر الكاف

ليســت وجهةُ الدراســةِ التكهُّنَ إذا ما كان المجتمع السلبـيُّ حقيقـةً، أم ذريعة يُخفي السياق إخفاق اللقاء وراءها -بـديوان ربـيع الهوى- بقـدر ماهي أسـلوبٌ جرى ويجري في نصوص الديوان، بكثرة، حتى أضحى أثره جليًا في إبـراز صورة شعريّة، منفصمة الشقين، (مشبه ⟷ مشبه به)، و(مستعار ⟷ مستعار له)، في لغة الديوان، فلا تتبـدّى الموصوفة (عنقـاء)، كما عند حدّاد حين قال: (قلبي الليلة سمع عنقـة)، بل نرى حمامةً في شعر ربـيع الهوى، لكنّ دلالتها لا تُحيل على المحبوبة:

طيري يا حمامة على جنح السلامة
وهاتي لي علامة من المحبوب، (الديوان: ١٤).

وهكـذا تتجلّى التوصيفات الأنثويـة مثـل: (الطيـور + الزهور + القمر + النجوم + الياسمين) في قوله:

الطيور حتى الطيور انتشت مِن لِقانا غرّدت في سرور
والزهور كلّ الزهور رشّت الأرض من حولنا بالعطور
والقمر والنجوم في سمانا نوّرت دربنا هنّت لقانا
والصّبا هب نوده حامل الياسمين، (الديوان: ٧٦).

تتبدّى في صور غير عاكسـة للأنثى المحبوبـة، بـل تضعها اللغة في هيئة حقيقـية، خارج نطاق الشـعرية التصويرية للنص؛ لتخلقَ بيئةً مشبّعة بالرّقة والجمال، وإن بـدا عليها انشطارٌ تشبيهيٌ، إلا أنّ سياق عرضها نابعٌ عن تصوير كامنٍ في الشق المضمر لدى الشاعر، تتهيّبُ اللغةُ الشعرية البوحَ به، في نهجٍ يشي بعلاقةٍ غير متكافئة الطرفين في الودّ والجد للقاء. فبدت تلك المشبهاتُ بـها الخارجة عن التشبيه شـهودًا، شاركت الطرفين فرحتهما، في مُضيّ السـياق لحشـدِ تأييديٍّ يُقنع بـه المخاطِبُ ذاته أولًا والمتلقـي ثانيًا، بـوجود وصحـة هكذا علاقـة، وكأنه يجابـهُ المجتمع السلبـيَّ بهذا التأييد أو الحشد.

حقيقـة أن الطير ظلّ يمارس دور الشـقّ المشـطور من الصورة التشبـيهية المنفصمة في معظم التصويرات، إلا أنه يمثل عامل مدٍّ للمسافة العلائقية بـين الطرفين؛ لأنّه يقطع مسافاتٍ بـعيدةً مراميها، رابـطًا حبل الودّ وإرسالَه، لاعبًا دور (رسـول الهوى) وإن من طرفٍ واحـدٍ في سبـيل التفتيش عن اللقاء العصيّ وتودّد حدوثه:

قطّعتْ قلبي ألا يا طير يا شادي بالنلاحين
شوقتنا إلى حبايب سكنوا الوادي
بالله يا طير عرّج لا قدك غادي للبساتين
على الحبايب وبلغهم تودّادي. (الديوان: ١٧).

فليس الطير هنا مشبّهًا به، للموصوفة، أو اسمًا مستعارًا لها، ولا حتى للمخاطِب، بل هو عنصرٌ من بيئة الحالة الغرامية، ارتقى عن غيره من العناصر كال(الزهر + الغصن + ... ليؤدي وظيفة الرسول المحمّل بطاقات الغرام والوجد، إلى الطرف المفقود. حتى إنّ الرسالة المحمولة: (التودّاد)، ترتقي إلى مستوى البرهان على حقيقة الألم والحرقة من شدة البين، فتكون الرسالةُ دموعًا، وهل هناك أصدق من الدمع شهادةً على الشوق والهوى؟:

وأنت يا طير يا عابر لا ذيك الروابي خذ معك دمع غالي
لو وصلت الحمى بدري انثرها دموعي حيثما أهله يسمرون

وهكذا يتنامى التعلق بالطيران من لدن المخاطِب، في دلالة على استمرار البين من لدنها والتعلُّق والصبّ من لدنه، راسمًا للعشق مسارًا واحدًا، فلم يعد الطير رسولًا كافيًا لإحياء الحالة الشعرية، والوجدانية، لذا تمنّى -ولم يدخل الصورة التشبيهية كمشبهٍ- أن يصبح طائرًا، يكفي الطير مهمة الإرسال والوساطة، فيحدث اللقاء المنشود:

ريتنا طير يا بيّت محلّق وطاير
فوق دور المحبّين

(ريتنا) بالحضرمية تعني (ليتنا)، تفيد التمني، والتمني لا يتحقّق، كما أنّ الفعل (يا بيّت)، المسبوق بالباء التسويفية الحضرمية، أي: (سأبيت) رسم ظرفًا زمانيًا ليليًا ثريًا بالوجد والهوى، لكنه ليس مسرحًا زمانيًا مناسبًا لطيران الطير، في آلية يدخل فيها الطير في حالة شعرية تمنح التوصيف رقيًا في النسق، يرتفع به الطير من لغة وصفية إلى تصويرية. هكذا وإن دنا طرفا التشبيه، أو شقا الاستعارة في الصورة العشقية، فإن ثمة توجُّسًا يساورُ السياقَ فلا تنجح الصورةُ في تحقيق التماهي - بحضور المجتمع السلبي في النّص.

هكذا ظلّ الشكُّ في المحبوب سمةً ملازمة، وعدم الإخلاص في الحُبّ ديدنًا يساير أحداث النص الشعري في ديوان (ربيع الهوى)، وكأنّ الربيعَ الذي يفتّشُ عنه هوى الشاعر هو العثور على لقيا يدعمها حبٌ صادقٌ لا تشوبه شوائب الخيانة، ولعلّ ديمومة البحث والتقصّي على مدى الديوان، هي من أثرت المنتج الشعريّ لدى الشاعر بهذا الكمّ من الجمال الموسوق، والمعبّر عن خلجاتٍ لا تتناهى بلقاءٍ، وصدق لا يُجابَه بوفاء. فطُفنا في ما يزيد على مئة صفحة بواحاتٍ من ربيع مضمخ بالهوى بمختلف تجلياته.

عدم اكتمال الصورة في نص (مع السلامة):

بالنظر إلى نصّ (مع السلامة) الديوان: (٢٥)، نقرأ في هذا العنوان دالًا لمدلول الفراق والبين، وحينما نقرأ أسماء كال(الحمامة + القمر + أنغام + ألحان) في النّص فهي ليست سواء أسماء حقيقية خارجة عن نطاق التصوير الذي من الممكن أن يرسم المحبوبة:

معْ نسيم الصبَّا أرسل لي التحية با انتظرها أنا في بُكرتي والعشيّهْ
أو ربُطْ لي رسالة في جناح الحمامهْ

ثم يقول:

باالذكرك كلّما شفت القمر في الدّجى بان أو سمعت الوتر نسنس بأنغام والحان
كيف بانساك وانت في فؤادي علامهْ؟
أنت أنت مقدَّر لي من الله ومكتوب وانت وحدك قلبي في محبّتك مقطوب
والذي قال عنّك، ما استمَع لي كلامه

نلحظ هنا حضور المجتمع السلبي، في قوله: (والذي قال عنّك)، أي الذي تقوّلَ فيك الأقاويل الباطلة، لم أعرْهُ أذُنًا صاغية من لدنّي، لكنّ أثر هذا القول جرى مع بناء التصوير في النّص، وحال دون تبدّي المحبوبة كطرفٍ من طرفي تشبيهٍ، أو استعارة، في النّص، باستثناء أن يكون المحبوب علامةً مُبهَمَة، مغيَّبةً الهيئة الماثلة، داخل الفؤاد، وحينما تقرأ: (أنتَ) تترقَّبُ بعدها مشبَّهًا به، يُكمل الصُّورة البيانيّة فتتفاجأ بتكرارها: أنت أنت، في أسلوبٍ يشي بعجز السياق عن إتمام الصورة البلاغية في حضور المجتمع السلبيّ، والاكتفاء بالسرد الوصفي، الذي يعتاضُ به السياق عن التصوير المزمع رسمه، لولا التوجّس الدائم المصاحب لمثول المجتمع السلبي. فيظلُّ يمضي نحو افتراق الحبيبين العاشقين: النوى نار واللّه تشتعل وسط قلبين، أي قلبين منفصلين، وكأنّ افتراق شقي التصوير (للمحبوبة)، وعدم تماهيهما إلماحٌ بافتراق المتحابّين ذاتيهما.

نص (لا تحاول تعيده)، والانفصال الأعظم:

يبلغ الانفصال في نصّ (لا تحاول تعيده) مداه، وهو المفصَحُ عنه بجدّةٍ لغوية تتكرّر بتكرار الكورس رأسيًا: بعدَ كلّ مقطع، وأفقيًا: على مدى السطر نفسه، بتكرار الاستفهام مرتين: عادنا كيف باهواه بعد ما خان عهدي عادنا
كيف باهواه؟

لم يكن حضور المجتمع السلبيُّ في هذا النص مجرَّد حضور عابر، بل بلغت سلطة ذلك المجتمع بأن أضحى أستاذًا للمحبوب يعلمه كلَّ وسائل المكيدة، والجفاء والصَّد، فبدا المحبوبُ مستسلمًا وتلميذًا راضيًا مطيعًا، مطبّقًا فنون ما تعلّمه من هجرٍ وصدٍّ وكيد، وصولًا إلى حدِّ الخيانة، كما يصرِّح الكورس: (بعد ما خان عهدي)، وفي قوله:

علّمُوه المكيدةْ علّمُوه الجفاء والصَّد لي ما يفيده

حين سلّمهم ايده صار يمشي وراهم في الدروب البعيدةْ

افتتح الشاعرُ نصّه بأسلوب التجريد، الذي طال ما افتتح به الغزليّون قصائدهم، خالقين من ذواتهم ذواتًا أخرى، يبثُّون إليها لواعجَ الهوى، وتباريحَ البين، يقول مخاطبًا ذاته، أو هاجسَه الذي ما فتئَ يهجسُ باسمه ناهيًا إيّاه:

لا تحاول تعيده ذكر اسمه أنا قلبي قنع ما يريده

تتكثّفُ نتيجةُ القول في: (أنا قلبي قنع ما يريده)، هذه العلاقة التقابلية تبلغُ ذُروة التجابُهِ والافتراق في: (حطّم الكاس بيده) (لي مليته بأشواقي)، فبين الفعلين الماضيين (حطّم) من لدن المحبوب، و(مليت) من لدن الشاعر، تتجسّد علاقة محطّمة من طرفٍ أوحدٍ، وإن أبدى المتكلّمُ مثيلها فذلك على المبدأ الفيزوآدمي: لكلِّ فعلٍ ردُّ فعل، مساوٍ له في المقدار ومعاكس في الاتجاه؛ لأنَّ المتكلّم (الشاعر) ما زال قلبُه حيًّا بالحبِّ والوفاء، وإن تنكّر المحبوب لذلك: قد تنكّرْ لقلبي لي على الودِّ ربّاه، لم يعزُ المتكلّم تنكّرَ المحبوب لذات المتكلّم، بل لقلبه، وهو الأمر الذي يؤكد على أنه ما زال يحتضنه باطنًا في أعماق قلبه خلفَ بوح اللغة. وأيضًا في قوله: (مَليته)، في المقابلة السابقة، وإن كانت ماضيةً، إلا أنّ مادتها (الشوق)، المجموع بقوله: (لي مَليته بأشواقي)، فهي مادة لا تنتهي بتحطيم كأس، ولا حتى بقبوله وشُربه.

أما على صعيد البناء التصويري:

لم ترد المحبوبة في هذا النّص، في صورة ذاتيةٍ مستقلة من صوره؛ لأنَّ اقتحام المجتمع السلبي للنّص لم يكتفِ بمنع تبدّي المحبوبة طرفًا من طرفي تصويره حسب، بل لِقُوّةِ حضورهِ هنا أزاحَ -أو قلْ إن شئتَ عكسَ- مشهد التصوير برُمّتِه عن طرف المحبوب، إلى طرف المتكلّم المخاطِب، في خطوةٍ نحو تكثيفٍ ذاتي، واحتفاءٍ أنانيٍّ، في مشهدين تصويريين: الأول قوله: (تنكّر لقلبي لي على الودِّ ربّاه) حيث يتبدّى القلبُ -على النّهج الاستعاريِّ- مُربّيًا، معلّمًا كلّ معاني الودِّ، الذي تنكّر له المحبوب، والثاني: وهو من أجمل التصويرات التشبيهية في قوله: (كنت أنا الشمع يولع، من فؤادي وقيده)، وهي صورة يذوب فيها الظاهر، كلُّ ما غذّاه الباطنُ بألم العشق والبين، فذاك وقودُ اشتعاله، فيذوب كما تذوب الشمعة، مضحيًّا بذاته في سبيل إشعاع دروب الحب لمن أحب، فظلت ال(هي) حاضرةً حتّى وهو يجرّ السياق ويكثفه نحو ال(أنا) كما تقدّم -محاولًا نسيانها- وهل ذلك الحريق في قلبه إلا اشتعالها؟! لكنّ الخيانة تجعل منه أمرًا (ماضيًا)، أي ممسوحًا، كما تصدّر لغة التصوير الفعل (كنت)، هكذا تستوجبُ الخيانةُ أن تُصبحَ العلاقةُ القائمة ماضيًا لأنّها حدثٌ لا يُغتفر، ولا يحتملها قلبٌ أو خَنٌّ، فيجسّدُ استحضارُ الزّمن الماضي ماسحًا يجبُّ ما قبلَهُ من علائق كانت تسمّى حُبًّا، كما ينصُّ الشاعر نفسه في موضع آخر: رحْ معاهم في غواهم أنت والماضي معاك (الديوان: ٦٧)، في نصٍّ رمى السياقُ أحداثه إلى قعر الماضي السحيق منذ مطلعه: ألا أوّل كنت احبّك ألا أوّل، في تكرار مؤكّدٍ على عدم استمرارية الحب بتأكيد نفيه، (ألا أوّل + ألا أوّل)، فعمل المجتمعُ السلبيُّ فيه ما عمل في نص (لا تحاول تعيده)، من جرٍّ لأحداث التصوير نحو العمق الأنائيّ، لم تتبدَّ الموصوفة، إلا جزءًا -تالفًا ذابلًا فاقدًا للحياة وقيمة الجمال المعهودة- من أجزاء صورة ذلك المتكلّم:

جفّ وردك في بساتيني وأذبل ما تبقّت أي ذكرى لك ببالي

جاء ذبول وفناء ذلك الورد، مؤكّدًا آخر على ماضي تلك العلاقة وانتهائها، في امتدادِ بساتينه الواسعة سعة الجمع (بساتيني) فأضحت جميعُها خاليةً من أي أثر للمحبوب القديم، الذي تبدّى صورةً ميتةً خالية من حياة البقاء، والسبب كما هو الحال حضور المجتمع السلبي، الذي تشعّبتْ طرائق خياناتُه مع القريب (هذا) والبعيد (ذاك)، في تنوّع لجهات الخيانة:

رحْ مع هذا وذاك رح فؤادي ما يباك

رح معاهم في غواهم أنت والماضي معاك

فشكّل الرحيل بالماضي اجتثاثًا لكلِّ ما تبقى من علائق ذكرياتٍ جميلة، كانت تغذي حياة ذلك العاشق الصادق، الذي لم يجد إلا الخيانة ثمنًا لصدقِه.

أثر المجتمع السلبي في تشكيل السَّطح والباطن:

إنّ القارئ بعمق لنص (يا للي تريد سعاد) (الديوان: ٨٨)، يلحظ أنّ أثر المجتمع السلبي لم يقف عند انفصام الصورة التشبيهية، في سياقات شعر ربيع الهوى، بل عمل على انفصام السطح عن الباطن، حتّى أنّ الشخصية الشعرية ذاتها، قد فُصمت إلى شقين (شق سطحي،

تكويني مادي + شق باطنيّ، عشقي غرامي)، فلم تظهر الذات الشاعرة شيئًا واحدًا بل شقين منفصلين عن بعضهما يمكن تأمّل ذلك في مقاطع النص:

يا للّي تريد سعاد.. أحمل معك أشواق بو حدّاد.. يا للّي تريد سعاد

هم عشرتي في الحب وكياني هم فكرتي في الشعر ولساني

هم عادهم يوفون بالميعاد

• • •

حبّيتهم من قبل أسناني ما تكتمل في الفم واعياني

ما تفرز احبابي من الحسّاد

• • •

حُبّي لهم باين وشي ثاني مستور ما با يعرفه شاني

في القلب كل ساعة لهم يزداد

تنشطر الذات الشاعرة إلى مكونين هما: المكوّن العشقي: (في الحُب) + المكون الآدمي: (كياني)، المكوّن العشقي: (أشواقي) + المكوّن المادي (بو حدّاد)، والسياق الشعري ينفصل إلى مضمون: (فكرتي) + شكل: (لساني)، علامات قدم الحب: خفي، (قبل بزوغ الأسنان في الفم) + ظاهر: (أعياني)، ماهية الحب ظاهر (باين) + خفي (وشي ثاني مستور في القلب). هذا الانشطار السياقي بين شقين (باطن + سطح)، والذي يغلب فيه تقدم الباطن على السطح، يجلي أثر المجتمع السلبي الذي لم يعد ظنًا، يفترضه التأويل، بل يقينًا يصرّح به السياق في المقطع الأخير:

حُبّي لهم باين وشي ثاني مستور ما با يعرفه شاني

في القلب كل ساعة لهم يزداد

مستور ما با يعرفه شاني، استتر الحبُّ؛ لكي لا يعرفه الشوانئ (المجتمع السلبي)، هنا يضع السياق تفسيرًا، ليس للانشطار بين الباطن والسطح حسب، بل لتقدم الباطن على السطح في النص، إلا في الحالة الأخيرة، تأخر الباطن ليبعده عن حضور الشانئ المصرّح به، فأبعده وأخفاه بعيدًا: حتى لا يرى الحساد تناميه، الذي يزداد كل ساعة: في القلب كل ساعة لهم يزداد. فيبدو التناسب طرديًا بين تنامي ذلك العشق، والتوجّس من الحُسّاد (المجتمع السلبي)، حيثُ بلغ عمق الوجد بداخل ذلك القلب المشطور بين الهوى وتعصّي ربيعه، بسبب ملازمة الحاسدين والوشاة له.

يمكن بيان هذا الانشطار الثنائي بين مكونات الباطن والسّطح بنص (يا للي تريد سعاد) على النحو الآتي:

	الباطن	السطح
١-	المكوّن العشقي: (في الحب)	المكوّن الآدمي: (كياني).
٢-	المكوّن الوجداني: (أشواقي)	المكوّن الآدمي: (بو حدّاد).
٣-	المضمون/ المعنى: (فكرتي)	الشكل/ اللفظ: (لساني).
٤-	خفاء: (قبل بزوغ الأسنان في الفم)	ظهور: (أعياني).
٥-	خفي: (وشي ثاني مستور في القلب)	ظاهر: (باين).

التحدّي الوهمي في نصّ (على عينك):

يقرأ القارئ في هذا النصّ، (الديوان: ٣٢)، تحدّيًا جليًا بين الـ(أنا الشاعرة) والمجتمع السلبي الموسوم بـ(الحاسد)، تنشطر لغةُ النصّ على مقابلة بين هاتين الوجهتين، التي تُظهر الغلبة للـ(أنا الشاعرة)، على مسارين؛ المسار الأول بعدد ورود الضمائر العائدة على الـ(أنا)، على النحو الآتي: حبيبي/ يا سُعدي/ على شاني/ أنا/ مسحت/ أقسم لي/ يوهب حياته لي/ لأجلي/ يدّي/ وأنا/ جدّدت/ عهدي/ بعدي. أي بمعدل (١٣) ثلاث عشرة مرة.

بينما تكرّر المجتمع السلبي، في عبارة: ويا حاسد على عينك، الموزعة على خمسة أبيات، بعدد خمس مراتٍ، يتجلى في لفظتي: (حاسد) اسمًا، و(عينك) ضميرًا، فيكون حصيلة تعدّد المجتمع السلبي (١٠) عشر مراتٍ، في انتصار لغويٍّ للـ(أنا)، وهو الانتصار الذي يؤكده السياق في تحقق اللقاء، من أول النص، بقوله: تلاقينا والقمر شاهد، فيكون اللقاء بالمحبوب، هي النتيجة الحاصلة من تلك المواجهة، بين الـ(أنا) والمجتمع السلبي، الأمر الذي يفسّر حدة المواجهة لدرجة المجاهرة بالتحدّي: للمخاطَب القريب: تلاقينا <--> على عينك، هذه النتيجة تعطي دلالةً حتمية على أنّ عدم اللقاء إن حدث يكون سببه المجتمع السلبي، المخاطَب بقوله: على عينك، أو الحاسد، سمه ما شئت.

لكنّ بشيء من التعمق في القراءة نلحظ عدم تكوّن الصورة الشعرية للمحبوبة، في هذا النص بأكمله -والتي أضحت دالًا على الوصال ذاته في قراءتنا- وهو ما يشكّكُ في حقيقة حدوث اللقاء الذي ادّعى النص حدوثه، ثمّ إنّ تكثيف حضور المجتمع السلبي وتحديه، بهذا الثراء اللغوي، يُبطنُ ربيًا كثيفًا خلف لغة الـ(أنا)، ربيًا يتغيّا بمقداره مجابهة الحاسد المهيمن على شعرية الشاعر، فيبطن قرب المخاطَب توجّسًا دائبًا يساور أعماق الـ(أنا)، حتى لكأنّ سياقات التحدي تلك ما هي إلا خوفٌ مبطّن أكثر منه تحدٍّ موح بانتصار حقيقيٍّ لعلّةٍ ظلت ملازمة لشعرية ربيع

الهوى، أسمتها قراءتنا المجتمع السلبي، والتي قد يكون قناعًا لشكٍ دائم، أو عدم الثقة بذات الشعر في بلوغ مراميها العشقية.

ثانيًا: مرحلة غياب المجتمع السلبيّ، واتصال شقي التصوير:

يشكّلُ غياب المجتمع السلبيّ حياةً للصُّورة الشعرية، ونمائها في ديوان (ربيع الهوى)، وهي تؤدي وظيفتها الشعريّةِ في النَّص، على النقيض تمامًا من حضوره، الذي ظلّ يبني حاجزًا يمنع اتصالَ شِقي التصوير التشبيهي والاستعاري.

نص (في العشيّة) مثالُ اتّصالِ لطرفي التصوير:

أعطى غياب المجتمع السلبيّ اطمئنانًا شعريًا، وفُسحةً في تنوُّع أنماطُ وآليات الصور في نص: (في العشية) (الديوان: ١)، فتارةً تأخذُ صورة المحبوبةِ بُعدًا مرئيًا، كما في قوله:

في العشيةِ نظرت الزين كامل سنينه خلته البدر أشرق حين لألأ جبينه
أهيف القد مثل غصن البان

خلته البدر + أهيف القد مثل غصن البان، صورتان تشبيهيتان، مرئيتان، واحدة علوية كونية، وجهها الإشراق والرِّفعة، والأخرى أرضية، وجه شبهها النحالة والرشاقة.

وقد تأخذ الصورة الشعريّة مسارًا سمعيًا ومرئيًا، كما في قوله:

حركت قلبي المسكين نغمة سلامه حين سلّم رمتني من عيونه سهامه

تجلت المحبوبة في هذه التصويرات الاستعارية، المسموعة والمرئية، حيث تلقّى القلبُ أثرَ نغمة السلام ذات الصوت الجميل الموسوق، لذا كان مصدر الاستقبال القلب وليس السمع؛ لبلوغ أثرها منه مبلغًا عميقًا، تأسّيًا بقول حدادٍ قبله: (قلبي الليلة سمع عنقة)، ناسبًا السمع للقلب للغاية نفسِها، جاءت نغمة سلامه، بأسلوب التشبيه الإضافي، (البليغ)، ورمتني من عيونه سهامه، بأسلوب استعاريٍ مكنيٍ، ثم يعقّبُ هاتين الصورتين صورةً استعارية أخرى في قوله:

قلت له قف تفضل يا أمير الغزال، وهي صورة مرئية، وقوله أيضًا: راحت عيوني ترعى في عيونه، هنا ترسم هذه الصورة الاستعارية تماهيًا وتلاحمًا بين المخاطِب والمحبوبة، فتتحد العيون من أثر النظر المتبادل إلى حدِّ التماهي، فتُحيي القلبَ لحظاتُ الوصال والتلاقي: زادت القلب دقاته وزادت شجونه.

يختتم هذا التنوّع والثراء للصور الشعرية، في غياب المجتمع السلبي، بقوله في البيت الأخير من النص:

والشرف والحلا والسحر كلُّه سلابه، اجتمعت ثلاثُ صور تشبيهيةٍ مختلفة الهيئات لمشبّه واحد، المشبهات: (الشرف/ مكوّن معنويّ) + (الحلا / مكوّن محسوس) + (السحر / مكوّن تأثيري) المشبه به (سلابه / مكوّن تأثيري).

تلك صورة عامةً يصعبُ فكُّ أجزائها، ووضعُ وصف دقيقٍ لثراء جمالها، فيكفي وصفُها بقوله: إن وصفته ظلمته غير باقول فنّان، حيثُ يجعلُ السياق من هذه المشبّهات تنساق متّجهةً بأثر جمالها المجموع (فتنتها) من بنية التصوير (للمحبوبة)، إلى الناظر (العاشق/ المتكلّم)؛ لتكوّنَ سلاحًا به يضحي المتكلّم قتيلًا أو مصابًا، في انزياح لوجهة أثر التصوير إلى المتكلّم، في مسارٍ يمضي نحو اللقاء أيضًا.

كما هو ملاحظ كيف أثرتْ الصُّور البيانية النصَّ بحياةٍ شعرية باذخة النوال، وصولًا إلى اللقاء والتماهي، في غياب المجتمع السلبي، الذي بغيابهِ تتمُّ الصالحاتُ من اللحظات في بيئة العشق الثريّة.

نص (غزال) لوحة عامة من كثافة الصُّور الجزئية:

يخلقُ غيابُ المجتمع السلبيّ بيئةً حيّةً للتشكّل والتنوع في التصوير بشكلٍ عام وصورة المحبوبةِ بشكلٍ خاص، ويمدُّ نطاقَه في آلية ومحيط التمشهد لمجرياتها، ذات العلوّ، وذات الدنوّ، ذات الثبات، وذات الحركة، ذات التشبيه وذات الاستعارة والكناية، في طرائق متنوعة، حيثُ يرسم عنوانُ النص أوّلَ هذه الصور: (غزال) (الديوان:٣)، التي بلغ عدُدها عشرين صورة، مكثفة في نصٍّ قصير، موزعة على ثلاثة أنماط، يمكن بيانها كالآتي:

غزال (العنوان): نمط تشبيهي/ غزال رمتني سهامه: (نمط تشبيهيّ + نمط استعاري)/ كأنّه تأثر بنور الأصيل: (تشبيهي)/ والجعد أسود مثل الليالي: (تشبيهي)/ أسرني بلحظه: (استعاري)/ خلّا فؤادي يكابد حريقه: (استعاري)/ في مسيره شبيه الحمام: (تشبيهي)/ كما الغصن مائل: (تشبيهي)/ واحتار فكري: (استعاري)/ إيش با تكون النهاية: (كنائي)/ غاب عنّي وأبقى دلاله: (استعاري)/ أسامر خياله: (استعاري)/ قلبي مهيّم كأنّه ظلاله: (استعاري + تشبيهي)/ وحكيت للنجمة: (استعاري)/ قالت عاجايب: (استعاري)/ قد صرت مثلي: (تشبيهي)/ أسرني بلحظه، وخلا فؤادي يكابد حريقه: (استعاري + استعاري).

أي بمعدل: (٨) ثمانية أنماطٍ تشبيهية، و(١١) وأحدَ عشر نمطًا استعاريًا، وكناية واحدة، فالمجموع يبلغُ (٢٠) عشرين صورةً بيانية.

لم يحظَ نصٌّ من نصوص الديوان بهذا التنوع والثراء، مثل ما حظي هذا النّص الذي تشكّلت فيه المحبوبة، في آلية التصوير من فضاءات مختلفة: كونية، ونباتية، وحيوانية، أفقية منها: (غزال)، ورأسية: (حمامة)، وبهيئاتٍ متنوعة المشارب، والتشكيل البنائي، لم يكن هذا النص نصًّا طويلًا، بل على العكس تمامًا شأنه شأن معظم نصوص الديوان قصير محدودة مقاطعه، لذا مثّلت كثافةُ النهج التصويريّ ازدحامًا بيانيًا في بنية شعرية النّص، تُرسمُ من خلاله لوحةٌ عامّة متحركةٌ بالحياة، التي يهبها النهج الاستعاريُّ للجمادات، وتشخيص اللامشخصن، تجرُّ تلك الصورة العامةُ الطرفين العاشقين نحوَ اللقاء، كما هو الحال في الكناية: ذا اللّي جرى في البداية، إيش با تكون النهاية؟، بعد ظهور المحبوبة في صور جزئية فاتنة، وبعد أن سحر حسنُها عقلَه ولبَّهُ واحتار فكرُه وزادتْ شجونُه - كما يقول- بلا شك إنّ النهايةَ ستكون هي الوصال، وهي النتيجةُ الحتميّة التي تُحيل إليها الكناية القائمة عن طريق الاستفهام. ومن ملامح التصوير العام في النّص، ما اختتم به النصُّ من انتهاج لنهج الرومانتيكيين في الاتصال بالطبيعة ومناجاة النجوم والكواكب، التي يرسم من خلالها صورةً عامة لحالته، كما في قوله:

وحكيت للنجمة ما حصل لي قالت عجايب قد صرت مثلي

في الكون كوكب أحبه ولم يصلني بقربه

أسرني بلحظه وخلاّ فؤادي يكابد حريقه

وإن يكُن السياقُ راسمًا حوارًا، بين الشاعر والنّجمة، إلا أنّ قارئًا لا يخفى عليه، إسقاط صورة النجمة على حال المتكلّم نفسِه، فجعل المخاطَبَ نجمةً (أنثى) لأنّ الأنثى غايتُه المنشودةُ من وراء البوح، فهي نجمة حالُها حالُه تبحث عن حبيبها (الكوكب) الغائب، فيرى فيها محبوبته، وكأن الكورس يؤكّد هذا التماهي والاتحاد، حين يقول بعد ذلك: أسرني بلحظه وخلّا فؤادي يكابد حريقه، فهو قولٌ لم يقله الكوكبُ؛ لأنه مقطعٌ يتكرّر بعدَ كلّ بيتٍ من بداية النّص، لكنه هنا صحّ أن يكون تتمّةً لقول الكوكب وسردِه، دون أن ينفصمَ خيطُ ذلك السرد، هنا يتوحّد السياق الصادر عن المتكلم في طرفي الحوار، وكأنّهما شيءٌ واحد. والأمر الذي يجسّدُ مبدأ التماهي والاتحاد، قوله: أيضًا:

وأمسيت أسامر خياله وقلبي مهيَّم كأنّه ظلاله

هذا التماهي الخيالي، والقلبي يشي بحلول المحبوبة في ذات المحبوب حلولًا فكريًا وذهنيًا، باحتواء المتكلم للمحبوبة، في نسق صورته الحاضنةِ لها.

الإعراض عن المجتمع السلبيّ وتجاهله، وتمام التصوير:

قد تكتمل الصورة التشبيهية، أو الاستعاريّة للمحبوبة، ويتصل طرفاها في ديوان ربيع الهوى؟ في حضور المجتمع السلبيّ، لكن بتجاهله المنصوص، والإعراض الحقيقيّ عنه، آنئذٍ نكون أمام صورة حاضرة الطرفين، ويمكن القول خضرة الربيع، كما في نص (يا بو الوشامة)، (الديوان: ٥٩)، الذي يلتقي فيه ربيع الهوى لغةً، وتصويرًا:

لولاك ما كنت أترقّب حلول الرّبيع ولا لأمر المحبة والهوى أستطيع

لولاك ما كنت أتغنّى بالحُب من غير ما انهنّا

ولا أسري الليل لا خيّم ظلامه وانا كما الطير هايم والحمامة

هذا النصُّ كان مطلعه مؤكّدًا على تجاهل المجتمع السلبي، والإعراض عنه:

يا بو الوشامة يا بو الوشامة رُحنا وعُدنا لك بالسلامة

مَن لامنا ما سمعنا كلامه اللّي يحب ما يخاف الملامة

(الديوان: ٥٩)،لم ينقطع خيط التوجّس من المجتمع السلبي، المتصّل بخلد الشاعر في هذا النص، لكن النص جاء داعيًا إلى الإعراض عنه في قوله: من لامنا ما سمعنا كلامه + اللّي يحب ما يخاف الملامة، ذلك اللوم هو صوت المجتمع السلبي، الذي استطاع المتكلّم مجابهتَه، والدعوة إلى الإعراض عنه، فكانت النتيجة، هي اجتماع مثول المحبوبة في صورة تشبيه بليغ: لولاك ما كنت أترقّب حلول الرّبيع، بالتأمّل في كاف الخطابة، في قوله: لولاك، نقرأ قربًا للمخاطَب وحضورًا له، هذا الحضور هو لوحة الربيع المنتظرة؛ لأنه الوصال المتوخّى، وكأنهُ يقول: أنت الربيع، لكنّ كاف الخطاب أعطى التشبيه مبدأ القرب، والقرب هو الحضور، لعله لهذا قرأنا لأوّل مرةً في الديوان لفظي: (الربيع + الهوى) في بيت واحدٍ، وهو من النادر جدًّا، في إشارة إلى تماهٍ وتقارب حاصل بين الطرفين، أما على الجانب الفنّي لصورة المتكلّم فقد رأينا أخيرًا (الطير + الحمامة) كليهما مشبهين بهما -على الأقل لطرف المتكلّم- لأنه هو المتجاوز الحقيقي والمتجاهل لصوت المجتمع السلبيّ، متوجّهًا إلى المخاطَب ناصحًا له: (اللي يحب ما يخاف الملامة).

كما تجلّى التشكيلُ المجازيُّ في قوله:

مشتاق والشوق يا ما أثر وسوّى في قلبي علامهْ

فهو تصويرٌ استعاريٌّ يُشخصنُ فيه المعنوي.

أخيرًا اتصل الطرفان بعد طول انشطار: وانا كما الطير هايم والحمامة. إذ تجسّد التشبيهُ، في أقصر صوره

للمحبوبة، بالتشبيه البليغ المشروح آنفًا، بكامل أركانه الأربعة: المشبه: (أنا)، المشبه به: (الطير + الحمامة)، - وفيه التقاء المذكر بالمؤنث- الأداة: (كما)، ووجه الشبه: الهيام، كما التقى الهوى بالربيع على نطاق بيت واحدٍ، بعد طول انفصال؛ حينما استطاع السياق تجاهل صوت المجتمع السلبي، وتجاوز تثبيطه بعدما كان حائلًا بين لقاء الطرفين.

مع العنوان: (ربيع الهوى):

تميل دراساتنا دائمًا إلى أن يكون تحليل العنوان في نهاية الدراسة النقدية، على خلاف مناهج النقد الحديثة؛ حتى يكون ذلك التحليل خلاصةً يصل إليها البحث بعد، التقصي والتحليل، وقد جاء عنوان الديوان هنا مركّبًا من كلمتين (ربيع الهوى)، وهو تركيب يسميه البلاغيون (التشبيه الإضافي)، الذي يضاف فيه المشبه به إلى المشبه، وهو ضرب من أضرب التشبيه البليغ، كما نقول: لبس فلانٌ ثياب العافية، نكون قد شبهنا العافية بالثياب، فحذفت الأداة ووجه الشبه من التشبيه، وهو ما يُسميه البلاغيون تشبيهًا بليغًا، إلا أنه زاد في الارتباط وقوة التماهي بأن صار المشبه به مضافًا إلى المشبه، وهو الحال في عنوان الديوان لشاعرنا عبد القادر الكاف: (ربيع الهوى)، حين شبّه الجانب المعنويّ (الهوى) بالشق المحسوس (الربيع). هذه الصورة المفقودة كثيرًا في واقع شعرية ديوان ربيع الهوى ظلّ السياقُ الشعريُّ يفتش عنها -كما تقدم معنا- لكنّ الصورة التشبيهية قد لازم طرفاها الانشطار في حضور المجتمع السلبي، الذي ما يلبث أن يكون حائلًا يحول بين اقتراب ذينك الطرفين، واكتمال جمال الصورة البيانية؛ تشبيهية كانت أو استعارية.

حضرت مادة (الهوى) في الديوان كاملًا بمختلف اشتقاقاتها (٥٨) ثمانية وخمسين حضورًا، بينما وردت لفظة الربيع (٤) أربع مرات لفظًا، ومرة واحدة وصفًا، في رسالة توحي بافتقار الهوى لتحقق الربيع، أي الوصال في شعرية الديوان، وبشيء من الوقوف على لفظة (الربيع) في لغة العنوان، نعي أنها دالٌ لمدلول (الوصال)، واللقاء الشافي للطرفين العاشقين، وهو تفسير سياق الشعر نفسه؛ في قوله:

تعال واشرح لي شعورك خلّنا بس اطمئن

تعال واسمع كيف قلبي لا تذكرتك يئن

لو جيت يا تزهر زهور الحبّ في فصل الخريف (ص ٧٧).

هكذا يتجسّد الربيع في السياق: (لو جيت)، أي أن الربيع هو مجيء المحبوب ولقاؤه، بأي زمان يحضر الربيع العصيّ على الحضور، فالربيع ليس ظرفًا زمانيًا محدّدًا بوقت، بل هو لحظة يحصل فيها اللقاء حتى لو كان ذلك اللقاء في فصل الخريف، فإن أزهار الربيع ترتاح مسكًا، ويُشم عَرفُ شذاها، وقد حضر الربيع في هذا السياق من بعيدٍ جدًا من حيثُ فصل الخريف، لذا تتلون الأشجار الجافة والمتساقطة الأوراق بالخريف إلى جناتٍ ذات بهجةٍ تسرُّ الناظرين، حين يمثل اللقاء ببهجته، واخضرار القلوب بجماله. ويكون ذلك بلقيا الأحضان التي كنّى عنها بقوله: تعال واسمع كيف قلبي لا تذكّرتك يئن، إذ لا يتحقّق سماع نبضات القلب إلّا بوصول خد المحبوبة إلى صدر الحبيب، وهو التحاضن النقي العميق، الموحي بعذرية العلاقة بين الطرفين. والمبرهن على صدقها من طرف المتكلم.

لكن لو تأملنا الحرف الذي سبق المجيء في سياق البيت: (لو) يسميه النحاة حرف امتناع لامتناع، أي: امتناع الجواب لامتناع الشرط، فلا ثمة مجيء، ولا ثمّة ربيع تحقق في الواقع الشعري، والسبب دائمًا معزوٌ إلى المجتمع السلبي، أو قناع المجتمع السلبي، الذي يسير مع شعرية النصوص في ديوان ربيع الهوى، والذي يمارس هيمنته على تشكيل ملمح الانشطار بين المشبه والمشبه به في صورة المحبوب، وأنّ الاتصال والتماهي الحاضرَين في عنوان الديوان (ربيع الهوى) ما هما إلا صورة عميقة جدًا في قلب المتكلّم يعجز السياق عن إبرازها حق الإبراز على واقع الشعر، وكأنّ هذا العجز في حقيقة أمره ما هو إلا صدٌ من المحبوب، لا تقر (أنا الشعر) بوجوده، أو لا تحبّ أن يُفصحَ به، ولعلّه هو ما دعا (أنا الشعر) لتوهّم وجود (المجتمع السلبيّ)، الذي يبدو كقناع لهاجس الصدّ الذي ظلّ يقابل مبادرات الوصال الصادرة من أنا الشعر، فظل هذا الظنُّ هاجسًا قارًا في أعماق الشعريّة لدى أنا الشعر، تبرّر الأنا به كمّ الصدود الناتج عن المحبوب، علّها تخفّف أثره لديها، ذلك الصدود الذي جعله يظلّ متمسّكًا بحبّه لقيمة المحبوبة لديه، وتعلّقه بها، وإن أدرك منها عدم الوصال، كما يقول في نص (يابو الوشامة):

لولاكَ ما كنت أتغنّى بالحُب من غير ما انهنّا

وحينَ تخلّصتْ ال(أنا) من هذا الهاجس المبارح لشعريّة النّصوص -كما مرّ في نصّ (غزال)، وغيره- تكلّلتْ الصورة البيانيّةُ بالنُّضج والاكتمال، واتصال شقيها، وهو الأمر الذي يوحي بوصال الطرفين المتحابين ذاتيهما، وتحقّق (ربيع الهوى).

ملف العدد

67
العدد (14)
أكتوبر
ديسمبر
2019م

البحر في الموروث الحضرمي

البحر في الأغاني و الأهازيج البحرية الحضرمية

البحر وأحواله.. في مدونات ربابنة حضرموت

قصص غياب البحّارة
في الموروث المشقاصي المحكي

68
العدد (14)
أكتوبر
ديسمبر
2019م

البحر في الأغاني والأهازيج البحرية الحضرمية

د. عبدالباسط سعيد الغرابي

توطئة:

للحضارم تراث وتاريخ طويل في تعاملهم مع البحر كبحارة أو ركاب (عبرية) وخاضوا غمار هذا اليم، ووصلوا بسفنهم الشراعية إلى موانئ كثيرة على طول ساحل بحر العرب والمحيط الهندي والخليج العربي، وصولًا إلى سواحل شرق آسيا (الهند وباكستان وسيلان)، على شواطئ أفريقيا إلى تنزانيا وكينيا والصومال وغينيا وغيرها، كما جالوا الخليج العربي ووصلت سفنهم إلى سواحل عمان والإمارات العربية وقطر والبحرين والسعودية والعراق وإيران، وطافوا بموانئ البحر الأحمر ميناء مصوع وعصب، ووصلوا إلى قناة السويس، ومنهم من وصل إلى أوربا إلى جنوة وروما ومرسيليا.

ومما لا شك فيه من خلال أسفارهم وتنقلهم أنهم نقلوا تراثهم الغنائي إلى تلك الأقطار، وقد تأثر عدد من أبناء الخليج والجزيرة العربية بالغناء والتراث الحضرمي وأدوه واشتهروا به.

فالسفن الحضرمية قادها ربابنة ونواخيذ تمتعوا بخبرة وشهرة كبيرة من أبناء الديس الشرقية، والحامي، والشحر، والمكلا، والريدة، وقصيعر، وغيرها من هذه المدن الحضرمية.

وما زالت تلك الموانئ تسجل تاريخهم العريق حيث رأيت بأم عيني في أحد شوارع مدينة جدة مدفعية قديمة يفتخر بها سكان جدة مكتوب على هذه التحفة الأثرية مدفعية (عثر عليها البحارة الحضارم في قاع البحر الأحمر) بالقرب من مدينة جدة.

ومن خلال هذه الورقة سوف نقوم بدراسة حصرية للأغاني والأهازيج البحرية الحضرمية التي يرددها البحارة والصيادون في أثناء عملهم في البحر وأسمارهم، وكذلك متى تردد تلك الأغاني أو الأهازيج بحسب ما جاء في بعض المراجع وما ذكره الرواة.

١- السفن الحضرمية:

قبل أن ندخل في بحثنا لأهازيج البحر وأغانيه في حضرموت، سوف نستعرض أنواع السفن التي استخدمها أجدادنا بحسب أحجامها[١]:

١-١: قوارب الصيد الصغيرة:

وتسمى بالغوادف (مفردها غادفة) أو الهواري (مفردها هوري)، وتستخدم هذه الأنواع من السفن في اصطياد الأسماك، كما تعمل على نقل البضائع من السفينة إلى الميناء أو العكس، ويسمى البحرية الذين يعملون على هذه القوارب بالقويربية.

٢-١: سفن الاصطياد الخشبية:

وتسمى بالعباري، وحمولتها أقل من ٨٠ طن، وهي أكبر حجمًا من قوارب الصيد وأصغر حجمًا من السفن الشراعية، تصنع من الخشب، وتستخدم في اصطياد سمك القرش (اللخم)، ويسافر بها ربابينها إلى سقطرى والمهرة وعدن وإلى الصومال.

٣-١: السفن الشراعية الصغيرة:

وتسمى بالزعائم (مفردها زعيمة)، تتراوح حمولتها من ٨٠- ٢٠٠ طن؛ حيث تقوم بنقل البضائع من وإلى الموانئ القريبة في بحر العرب والخليج العربي، أو بنقل البضائع من البواخر أو السفن الشراعية التجارية الكبيرة إلى الساحل في حالة انعدام الرصيف.

٤-١: السفن الشراعية التجارية:

وتسمى بـ(السواعي)، سعتها أكثر من ٢٠٠ طن، والتسمية بحسب الحجم، ولها أسماء مختلفة في دول الخليج، مثل البوم، وفي عُمان تسمى بالبغلة.

٢- طاقم السفن الحضرمية[٢]:

يختلف الطاقم أو ما يسمى بالجوزة عند الحضارم، بحسب حجم السفينة، ونأخذ نموذجًا عامًا لسفن الشحن الشراعية التجارية، ويتكون من:

١- النوخذة (الربان): وهو المسؤول الأول عن السفينة وطاقمها، وهو الذي يعطي التعليمات والإرشادات.

٢- الصرنج (رئيس البحارة) أو نائب النوخذة، وهو يتلقى التعليمات مباشرة من النخوذة ويسندها لطاقم السفينة.

٣- الكراني: هو المسؤول الإداري للسفينة، يرتب إدارة السفينة، ويسجل حمولها، ويستلم النولون أو أجرة النقل، ويقوم بالحسابات الخاصة بالسفينة.

٤- السكاني أو السكوني: وعددهم ٤ - ٥، يقوم بأعمال السفينة الميكانيكية كتشغيل السفينة، والقبض على دفة السفينة وغيرها.

٥- القبضي: العدد من ٣- ٤ مساعد سكاني وأعماله يشبه عمل السكاني.

٦- مقدم قدام: يوجد واحد فقط لكل سفينة عبارة عن بحري يقوم بأعمال مقدمة السفينة والمسؤول عن المرساة والحبال وغيرها.

٧- الوكيل: العدد واحد بحار مسؤول عن معدات السفينة وأدواتها وتموينها.

٨- البحارة: أو البحرية وعددهم ٦- ١٥ تسند إليهم الأعمال من قبل الصرنج أو النوخذة.

٩- الطحان: واحد فقط لكل سفينة يقوم بطحن الحبوب على المراهي أو الرحى.

١٠- صغير درك: ٣- ٤ يقوم بالطبخ ومساعدة البحارة في أعمالهم، وعليه إعداد الحطب وقيادة القارب أو الهوري لنقل البحارة من السفينة إلى البر والعكس.

١١- صغير شربة: ويسمى أيضًا صغير قرص يقوم بالأعمال الخفيفة كتقديم الماء للبحارة.

١٢- النجار: واحد فقط يقوم بعمل صيانة السفينة في أثناء الإبحار.

٣- الأغاني والأهازيج:

٤- الأهازيج:

الأهزوجة مأخوذة من (الهَزَج) وهو كما يعرّفه صاحب (القاموس المحيط) فيقول: «الهَزَجُ، من الأغاني وفيه ترنُّم. وقد هَزِجَ كفَرِحَ: إذا تَغنَّى»[٣]. والهزج فن قديم عرفه العرب منذ الجاهلية ولكنهم أطلقوا عليه مسميات مختلفة. فمن ذلك ما يعرف بترقيص الأطفال، ومنه الرجز الذي كانوا يتناشدونه في الحروب، ومنه الحُداء الذي كانوا يحثون به الإبل على السير. وفي منطقة الخليج والجزيرة العربية تطلق على الهزج مسميات مختلفة، حسب نوعها والغرض الذي تُنشد فيه. فأهازيج البحارة تُعرف بـ(النَهْمة) بفتح النون وتشديدها وإسكان الهاء، وتعني الطرب البحري، ويسمى المطرب البحري: النَهّام والجمع (النَهّامة) بتشديد النون والهاء. وفي اللغة النهام: الأسد بصوته، والناهم الصارخ. بينما في حضرموت تسمى الشلة ويسمى المغني بالشلال، وهناك أهازيج أخرى، مثل التكريم عند الجمّالة، أو حداء الإبل، وشلات البقارة، والفلاحين. ومن الأهازيج الشعبية المعروفة بحضرموت ما يُعرف بـ(الزّامل) وجمعها (زوامل). وكلمة زامل هي مرادف لكلمة أهزوجة، والزوامل هي الأهازيج. قال الزمخشري[٤]: «زملت القوسُ، ولها أزْمَلُ: صوتٌ. والسقاة يَزْمِلون، ولهم زَمَلٌ وهو الرّجَز، وتزاملوا: تراجزوا. قال الشاعر:

لن يغلب النازع مادام الزَّمَلْ

فإن أكب صامتًا فقد خَمَلْ».

١-٣: الأغاني وأهازيج البحر في حضرموت:

يمكن تقسيمها إلى نوعين:

١-١-٣: أغاني البحارة وأهازيجهم:

والمقصود بهم أصحاب السفن الشراعية الكبيرة أو أصحاب السواعي، وقد ذكر الكلدي (٢٠١٣م) مجموعة الأهازيج التي يرددها البحارة في أثناء عملهم للتسلية والحماس والتخفيف من معاناة العمل، فهي تختلف بحسب العمل فمثلًا:

١- عند رفع الشراع في وقت الصباح،

يقال:

يا الله صباح الخير رزقك على الله ياطير

٢- عند رفع شراع القلمي[٥]، يقال:

موسمنا في البحر نسم دياميه

والقفافي صاحت من زوعة ارياحه

٣- عند إنزال الشراع، يقال:

هليوه... هليوه... هليوه

٤- عند طي الشراع:

مليوه... يا مليوه... يا اللاه يا مليوه

ويتخللها صفق بالأيدي، ورزح بالأرجل.

٥- عند سحب المرسى (الباورة أو البروصي) من قاع البحر:

يا اللاه يا ملي يا سي يا سي

٦- عند رفع المرسى (الباورة) من قاع البحر يرددوا:

يا شابش يا ملي شابش

٧- عند الشحن والتفريغ:

يا باشا خفيرك نايم

٨- عند تنظيف السفينة واستخراج الأوساخ العالقة بجدار السفينة الغاطس في البحر، يقال:

يا ريت الشجر كلهن ليم يا محسن الليمان

٩- عند طلاء جدار السفينة بالشحم والنورة:

يا اللا فك الرُمان واحتزم باللاس... فك الرُمان

١٠- عند سحب السفينة من مكان إلى آخر، يرتجزون:

يا اللا بندوه مطايب الريح

بندوه مطايب الريح

١١- عند شد حبل الديمان[٦] المرتبط بالشراع، يرددون:

يا اللا ياسي ديمان سي.... يا سي ديمان سي

١٢- عند نقل الفرم[٧] من الساحل الى السفينة يرتجزون:

يا داخل الجنة سلم على يوسف

وقل له بالكلام الزين

١٣- عند التزويد بالمياه، يقال:

يا اللا من الحالي شل القربة

١٤- عند التزويد بالحطب، يغنون:

يا محسن وقيدك يا عويد السمر

١٥- عند رفع عود الدقل (الصاري) وإنزاله، يقال:

يا الله يا مسهل يا مسهل

يا الله يا مسهل يا مسهل

١٦- عند طي أي حبل كبير:

يا اللاه يا سالم يا سالم يا سالم يا سالم

١٧- عند تثبيت مقدمة شراع اليوش:

يا اللاه يا مزيد زاد مشالي يا مزيد زاد مشالي

١٨- عند وصولهم أو قربهم من المراسي كميناء عدن والمكلا والقرن أو الحامي أو الشحر وقصيعر والريدة. وخصوصًا عندما تقرع طبول الفرح وتسمع الأصوات الشجية تصدح بهذه الكلمات:

الحمد لله ع السلامة يوم جينا سالمين

ويتم التصفيق والرقص على إيقاع الهاجر والمراويس ويقومون بتأدية رقصة الكاسر التي تشبه رقصة العدة إيقاعيًا إلا أنهم لا يستخدمون العصي والتروس (الدرقات)، وإنما الصفق والرزح بالأرجل على ظهر السفينة.

١٩- الترحيب بالعودة:

للبحارة الحضارم عودتان لأوطانهم في العام الواحد، الأولى موسم

الديماني[٨] يبـــدأ من أواخر شـــهر سبتمبر، وهذا الموسم حـدثت فيه تكسر سفينة النيوكا (الثعبان)، والتي تسـمى بحـادثة عبـدالكوري وراح ضحـــيتها عدد من أبـــناء الديس الشرقية والحامي والمقد.

أما العودة الثانية فتسمى بالموسم فقـط، وهي أكثر استحبابًا، تبـدأ في أوائل شـهر نوفمبـر؛ حـيث تضرب الطبـول في فناء البـيوت، وينتقـل الأطفال إلى بـــيوت النواخيذ، هذا بالنسبـــة للديس الشرقـــية، أما بالنسبة للمناطق التي على سواحل البحر فينزلون إلى الشاطئ، وتقـام هذه الطقـوس ويرحبـون بالسـفن القـادمة من أفريقـيا والخليج العربـي وشرق آسيا إلى الموانئ الحـضرمية، وتسـمى هذه الطقـوس بـالتجلوب، وتقام هذه الطقوس ليلًا تردد النساء الأغاني والأهازيج ويتبـادلن الشـعر، ومن أشـــعارهن (خصوصًا عند تأخر السفن عن موعد وصولهن للميناء):

يا قريب الفرج فرج على من ضاق حاله

يا قريب الفرج الكل مساهن رجاله

جلبوا واحتروا ودعوا لهم بالسهالة

وكذلك[٩]:

فرج يا مفرج .... شرمة يا مفرج

جليب يا مجلب جليب... يا الله مع الصاري

وكذلك يمكن ذكر أسـماء بـعض النواخيذ، كقولهن:

نولوا في المراكب وتركوا الخشب

يا هبوب الزيب

طلع معي ود حوري بيني وبينه نسب

يا هبوب الزيب

طلع معي بوحمد ما بظني يغلب

يا هبوب الزيب

٢-١-٣: أغاني الصيادين وأهازيجهم:

الأهجوزة أو الشلة أو الزامل هي عادة ما تصاحب البحـارة، وكذلك الصياد في رحلته البحـرية بحـثًا عن رزقـه، ونذكر من هذه الأغاني والأهازيج:

١- عند التجديف ويعتمد الغناء على إيقـاع الصوت الذي يحـدثه ارتطام المجاديف بـلجة البحـر خلال عملية التجديف، فيبـــدأ الصيادون الأغنية، بقولهم:

يا شيله آه يشيله

قولوا لها وخبروها يشيله حلان في داربوها

يا شيله آه يشيل

وإذا بغوا يصلح الله يشيله والصلح من الله

ولا عادنا عادنا يا سيدي ما انا خلي لك

ولعادنا عادنا يشيله آه يشيل

واما الطمكري عكض

يشيله

ياهوين قلة رجاله آه يشيلة آه يشيله

وشف رجاله جالسين الله له آه يشيلة آه يشيله

وعادنا عادنا ياســـيد ما حـــد خلي لك

ع المشوى ما حد خلا له يشيله أه يشيله

ثم ينشـد أحـدهم أبـياتًا مسـجعة تناسب النغم، مثل:

يا بحر خاف الله لا تاخذ الشبان

يوم كلنا شبان في الخطأ شية

يا مسيكين بابوري دوري كذا دوري

* * *

يا بحر خاف الله لا تاخذ الشبان

خذلك اثنين بحرة والثالث الربان

والرابع الرئيس لي يقبض السكان

يا مسيكين بابوري دوري كذا دوري

* * *

٢- عند توجههم داخل البحـــر إلى

جهة معينة، قد تكون جهة الشرق مثلًا فتغني المجموعة (هيلي لقدوم)، ويردد (الشلال) كلمات وأبيات تكون مناسبة، ثم تليها (هيلي خوارة)، أو (هيلي عالخور لقدوم)، (هيلي لقدوم).

٣- عند تعمقهم داخل عرض البحر (غبة البحر)، وبنفس ما جاء في الأغاني السابقة من حيث ترديد المجموعة (الكورس)، والمنشد أو المغني (الشلال).

هيلا سالم يا بو سالم أو (هيلا بانوش)

ربي عطاني خديجة سميتها الحالوية

منبي ومسك عطونا والشام قالوا هدية

ش الفاتحة والتحيات وبغت عمارن بنيات

الله يعين الشويقي من له عمل ما يمله

ومن الهيلا بانوش يرددون الشلة التالية عند انتقالهم من مكان إلى آخر كانتقالهم إلى أماكن وجود الأسماك مراعي السمك الصخرية (القشار):

بدوي وبدوية واعمال بالنية

وبيت علي وبيت غراب كلهم خوه وصحاب

والله لا تقول قائل ما بمدح إلا القبائل

ما بندر القرن خارب من بعد ما كان معمور

جدي سلك غير جدك ذاك لي ما سلك

كلين سالك وبن عوضات ذاك لي ما سلك

الضرب لا تضربونه أما الادب ادبونه

علبوك من طست هندي من دنى شيء يفور

وممكن أن يرددوا بعض الأبيات الأخرى خصوصًا عند التجذيف، مثل(١٠):

من قارب الحداد يصبر

عالنار والكير لقد رشن

وانت سبب نفسك بنفسك

ما حد يبيع العز بالهون

وكذلك:

من قص باسة بايسافر

ما هو مساهن بغى لليمن

في ميل بو قصبة كبيرة

والعجز والهيراب متقون

٣- عند عودتهم إلى البر، فتغني المجموعة (هيلي عالبر)، وبعضهم هكذا(١١):

(هيلي يروينا)، وينشد أو يغني المغني (الشلال) أبياتًا من الشعر الشعبي، مثل قصيدة (لابسات الخلاخل عالبر)، وعند مغادرة البحر تغنى أيضًا أغنية (سوبان)، أو (مسوبان).

٤- يتغنى الصيادون بأغنية مخاطبة السمك، وتغنى هذه الأغنية لمخاطبة سمك (الشروي)، وهو من الأسماك المشهورة في حضرموت، ويدعى في الأغنية بكنيته الوصفية (بو شراوي)، وتنشد أبيات كقولهم(١٢):

يا شيخ ما لك سنع فينا

ذلا الحضارم دلوا فينا

قد بلغوا شفهم وفنون

الله يحاسبك يا المجنون

مجنون عليها يا بوشراوي مجنون

* * *

شا مات ثوبا عا يهدين

عا يخرجن الهري ما يحسين

يتخصرين الخصار الحسوس

ما شيء كما فقعة القنبوس

قنبوس عليها يا بوشروي قنبوس

* * *

قالت فطيمون شاؤوشة

من حامل الساحل له نقرة

الدخن ما طاع يستأكل

بغى طرناك بالبكرة

بكرة عليها يا بوشراوي بكرة

* * *

قال المعنى با سير وبتعنى

اربع حمامات برحن عا ورق حنه

لا هن خذنا ولا هن ابعدنا

يا أم الحزام الذهب والحجل له أركان

خلي حزامك ما قتلني عسكر السلطان

سلطان عليها يا بوشراوي سلطان

كما يرددون بعض الأبيات الحكمية، كالآتي:

سعيد هادي يقول الناس سبوني

الله يسب الذي هو با يسب الناس

يتغنى الصيادون عند عودتهم من البحر ومع قيامهم بترميم الشباك وإصلاحها بأغنية خاصة وهي عبارة عن إنشاد قصيدة مطولة تحكي ضياع حوت في البحر والبحث عنه، وبلحن آخر طويل النفس، ولعملية شحن السفن وتفريغها أغنية يغنيها رجال الموانئ يرافقها رقص وتصفيق منسجم، كقولهم(١٣):

يا ربنا جمل الحال والحال دوبه مجمل

والحال دوبه مجمل

اعطه القدوم سالم فرج

يا هوين قلت رجاله يا هوين قلت رجاله

اعطه القدوم سالم فرج

ولعاد منهم ثلاثة لي في السفر غائبين

اعطه القدوم سالم فرج

ذا ود من ما عرفته ملقي صبيغة وخنجر

اعطه القدوم سالم فرج

٦- عندما يدفعون بالسفن إلى داخل البحر:

هيل لقديم هيل لقديم

قال الحميد ود منصور لقديم

٧- عند دخول السفينة للخور:

هيل هيل يا الله هيل هيل يا الله

هيل عالخور هيل عا الخور

٨- عند تجحيب السفن، ونقلها من البحر إلى البر، يرددون:

يا الله يا الله يا الله يا الله

هول ميل هول يا الله يا الله

٩- وكذلك عند الدعيك، أي تنظيف هيكل السفينة من الأوساخ، يرددون هذه الأبيات(١٤):

بن عبيكة قريب وجدعان فصوا على الراي

ريتنا داخل الشوكي حاكم وكراي

١٠- ومنها ما يردد في مواضع عدة كتنظيف القوارب، أو عند وضع الشباك ورفعها، مثل:

قال الحميدود منصور يا ماطري عند كناني

امنت من حيث خوفي وهتشت من حيث ماني

وسمعتها حين قالت البحر يرخي البناتي

البحر يرخي الغناديل لي ريقهن كالنباتي

٢-٣: الغناء والسمر:

كما ذكرنا سابقًا بأن طاقم السفينة يكون من بينهم مطرب السفينة أو الشلال أو النهام(١٥)، وقد عمل العديد من المطربين والفنانين المشهورين كمطربين على ظهور السفن، مثل: الفنان محمد جمعة خان، ومحمد سعد عبدالله وغيرهم الكثير.. فهؤلاء المطربون يقومون بالغناء مصاحبة لآلة العود والإيقاعات، ويغنون الكثير من الأغاني، ولعل منها (يشوقني برق)، (على ضوء ذا الكوكب الساري)، (يا نسيم السحر). وخصوصًا عند أسمارهم أو عند رسو السفن في الموانئ تلتصق السفن الراسية مع بعضها البعض ويتم فيها السمر ويشارك فيه مطاربة عدة، ممكن أن يكونوا من أقطار عدة، فمنهم اليمني أو الحضرمي والكويتي والعماني والبحريني وغيرهم من أمثال عوض الدوخي، ومحمد جمعة خان، وسعيد يمين، وممكن أن يستضيفوا من المطاربة الموجودين من خارج السفينة كعبدالله حاج بن طرش، أو سعيد عبدالمعين(١٦).

وهذا ما حدث في بداية السبعينيات من القرن الماضي عندما كانت إحدى السفن التابعة لمؤسسة النقل البحري لليمن الديمقراطي رست بميناء الحديدة، وكان من ضمن طاقم السفينة الشاعر والملحن والفنان سعيد يمين عبدالله، وكان هناك في الحديدة الفنان أحمد فتحي يعمل عند آل بازرعة في بداية حياته الفنية، فقد عملوا سمرة حضرها أحمد فتحي وغنّى فيها مشاركًا لسعيد يمين، وقد غنى سعيد يمين(الهوى نار، جميلي زرعته)، أما أحمد فتحي غنى بعض الأغاني الصنعانية مثل (وا مغرد).

كما يمكن إقامة مساجلة شعرية على متن السفينة إذا وجد الشاعر وخصوصًا على دان الحفة أو صوت جبوتي، فالشاعر عوض علي اليزيدي الشهير بـ(ابن الطلي) ناخوذة والكثير من الشعراء يمتهنون مهنة البحر، وعلوي عبدالله، وعوض سبيتي، ويقال بأن المحضار (طلع البحر وسافر ضمن الجزوة إلى البصرة)، وكذلك سعيد طيور، وسعيد باجعالة وغيرهم كثير.

من مساجلات البحر يذكر الوالد (عوض أحمد بايعشوت)(١٧) بأنه عند دخولهم إلى ميناء الشحر مع إشراقة الصباح كانت مساجلة على متن السفينة. وكان من ضمن الشعراء عوض سلم السباعي، وكان الغناء على دان صوت جبوتي، وقد ذكر الغرابي (٢٠١٨م) بأنه أحد أصوات الدان الحضرمية التي يتغني بها ويتساجل عليها الشعراء على متن السفن في أثناء أسمارهم أو عند رسوهم، وهذا النوع من الغناء يمكن ممارسته برًا وبحرًا، وقد تميز به أهالي الديس الشرقية دون غيرهم من مديريات محافظة حضرموت، وهذه بعض الأبيات التي قالها الشاعر عوض سلم:

يا أهل الرواشين يهناكم محلة سعاد

الأمر له والمراد

يا ارم ذات العماد

* * *

لي شيدوها مسوا في ضيقات اللحاد

أهل الطغا والفساد

اقوام شداد بن عاد

* * *

وهناك العديد من الأبيات المغناه التي يرددها أهل البحر، مثل قول الشاعر النوخذة علوي عبدالله المقدي بيت(١٨):

سهل يا مسهل طال ميح السفر

قد لي خمستعشر خوض غبة قمر

بالوسطي وسائر ما بغى يستخر

والمروة مخاطب الحناني وحاسك ونوس

كما يقول عبدالله عمر سواد:

من مد هيراب ووشر سفينة

لا زم أنه بغى ما خسر

للبحر سبعة مكاسر

لازما بانو ديك يا فلك مشحون

فأجابه عوض بن سبيتي:

ياعارفين السفر

والمجاري حافظوا عا نجوم السفر

لوصلت فوق الحنايز

ردوا الصنف بين السوابع وميون

يا نوخذة في السفر

لا تكابر لا تعدلت بين الجزر

وبغيت ربان ماهر

يحفظ الفلك للفلك بالمال مشحون

سعيد بامطرف (بن طيور):

لا جيت بين فرتك وساير

يضعف الريح ما يمخر

ما يعيش بحر ماخر

يبغي أهل الدرك عالقباضة يقبضون

ثم أجابه عبدالله محمد بن سلم:

راسي رسى في المراسي وشامر

ما قصد حال غير الخبر

شاور إذا با تشاور

سلم الله وعدى سوق سمعون

كما يقول سواد مخاطبًا حسين المحضار:

جحبت ساعية بلسد

يوم ماحصلوا نوخذة

يعرف البحر عرضه وطوله

يوم للبحر حوسات وشمال

فأجابه المحضار:

سلم الله من راح رد

جحب البنط والقالدة

ولعاد تسأل عا حوله

حوله برابر وجزوته صومال

وكذلك:

رسي البوم رسي وهلب شراعه

وقبل المخاطر تجي لك والجزر

قبل طوفان قبل المكاسر

وخلي الذي هم با يلومون

٢-٣: الغناء مع رقصة الدربوكة:

من الرقصات المشهورة عند البحارة والصيادين في المكلا والشحر والديس والحامي، (الدربوكة)، وهي في الأصل منقولة من البصرة، ويصاحبها إيقاعات مفردة مصنوعة من الخزف أو الطين، وتستورد من البصرة، وتصاحب الغناء آلة وترية تسمى (السمسمية)، فلها نوعين من الغناء موال يغني المطرب أو الشلال، وغناء جماعي، ومن المواويل المشهورة:

أصل الزبيب من عنب

والتمر من نيلة

يا خل بلد بعيد يا من يوديني

احلف برب السماء

يا اللي هواك مذهبي ومحبتك ديني

وعند انتهاء تمويل يدخل المغني في إحدى الأغاني المتعلقة بالبحر، والتي تتناسب مع إيقاع الدربوكة، مثل[١٩]:

نوخذة لعزمت بتسافر ودني البصرة

بالدقل والحبل ربطونا

علقونا فوق علقونا فوق ورمونا

علقونا فوق

أو أغنية سيدة الغناء العربي أم كلثوم:

على بلد المحبوب وديني

زاد وجدي والبعد كاويه

الخلاصة:

للحضارم تاريخ عريق في قيادة السفن، وقد وصلوا بسفنهم إلى عدد من الموانئ في الجزيرة والخليج العربي، ووصلوا إلى أفريقيا، وشرق آسيا.

ومن خلال امتهانهم مهنة البحر، فقد رددوا العديد من الأهازج والأغاني البحرية من خلال تأديتهم للأعمال البحرية، سواء كان على متن السفن التجارية أو سفن الصيد (العباري)، أو قوارب الصيد الصغيرة.

من هذه الأهازيج عند سحب المرسى (الباورة أو البروصي) من قاع البحر:

إلى يا ملي ياسي يا سي

وكذلك عند رفع المرسى (الباورة) من قاع البحر يرددون:

يا شابش يا ملي شابش

الهوامش:

١) الموانئ وصناعة السفن الحضرمية، حضارم حول العالم.

٢) السفينة قبل المكينة، محمد قاسم الكلدي، (٢٠١٣م).

٣) القاموس المحيط، مجد الدين الفيروز آبادي.

٤) الموسوعة الحرة.

٥) هو أحد الأشرع التي تستخدم عند سير السفينة لزيادة سرعتها.

٦) الديمان الحبل الذي يشد الشراع من أسفل.

٧) الرمل أو الحجارة ليعطي توازنًا للسفينة عند رفع الشراع في حالة عدم وجود شحن.

٨) مقال للدكتور عبدالباسط الغرابي، صحيفة (الأيام) العدنية، ١٥ مايو ٢٠٠٩م.

٩) اتصال خاص مع عبداللطيف حوري.

١٠) اتصال خاص مع علي باعامر.

١١) الأواصر الغنائية بين اليمن والخليج، خالد القاسمي.

١٢) اتصال شخصي مع عبدالله صالح باحنبص.

١٣) اتصال شخصي مع عمر محضار مول الدويلة، ومبارك باحنبص.

١٤) اتصال شخصي مع الوالد علي صالح الكلدي.

١٥) يسمى عند أهل الخليج بالنهام.

١٦) اتصال شخصي مع محمد الكلدي.

١٧) دان جبوتي وخصوصيته البحرية، د. عبدالباسط سعيد الغرابي، (٢٠١٨م).

١٨) اتصال خاص مع الوالد سعيد بن البريك الغرابي.

١٩) هذا البيت وظفه الفنان جعفر حسن وطوعه موسيقيًا، وكتب عليه بقية الأبيات وأسماه من التراث الشحر والبصراوي.

75
العدد (14)
أكتوبر
ديسمبر
2019م

البحر وأحواله.. في مدونات ربابنة حضرموت

البحر هو ذلك المخلوق العظيم الذي روّضه الإنسان لمصالحه منذ آلاف السنين، فتنقل عليه من بلاد إلى بلاد، ووصل على ثبج أمواجه إلى الأغوار والأنجاد، واستخرج منه السمك الطري والأصداف والجواهر والحلي، قال تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ﴾ [النحل: ١٤]. وهكذا صار البحر مصدراً رئيساً لحياة الإنسان القاطن على شواطئه وسواحله الخلابة، وقد شبه الشاعر العربي الكريم بالبحر حين قال:

هو البحر من أي النواحي أتيته فلجته المعروف والجود ساحله

وشُبه به العلامة الكبير، فقيل في وصفه: العالم المتبحر، وقال الشاعر واصفًا أحد علماء حضرموت في القرن الماضي:

إن شئت نزراً من صفات علومه فالخلق نهر وهو بحر دافق

محمد علوي باهارون*

والبحر قصة عشق لا تنتهي، ووسيلة حياة لا تنقضي، عجائبه كثيرة كيف لا وفيه من المخلوقات أضعاف ما هو موجود على ظهر اليابسة، ولهذا يقول فيه عمرو بن العاص عندما كتب إلى الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنهما: «إن البحر خلق عظيم، يركبه خلق ضعيف، دود على عود».

وقد اهتم الحضارمة سكان سواحل حضرموت بالبحر وأولعوا به فروّضوا أمواجه، وخاضوا أثباجه، وتعرضوا للمخاطر حتى امتلكوا السيادة في التجارة والملاحة العربية، ونازعهم عليها البرتغاليون والهولنديون والبريطانيون، فقد نبغوا في فنونه المعرفية والعملية، ووصلوا بسفنهم الشراعية إلى موزمبيق، وإلى الفلبين وأستراليا، وإلى جزائر الواق واق في بحار أمريكا، وقد حفظ لهم التاريخ تلك المكانة السامية.

وكان البحر عاداته وأعرافه وأحواله المختلفة موجوداً في مدوناتهم وسجلاتهم اليومية، وفي أمثالهم الشعبية، وحياتهم الاجتماعية، ونقصد بالمدونات هي تلك الرحمانيات والمرشدات البحرية النثرية والنظمية، والروزنامات اليومية لتدوين رحلاتهم بين الموانئ التجارية ومذكراتهم التاريخية والشخصية، وهو ما سنتحدث عنه في هذه الورقة البحثية.

أولاً: العادات والتقاليد البحرية:

التصق بالعمل في البحر عدد من العادات والتقاليد التي كان البحارة يمارسونها في عرض البحار، أو عند رسوهم في الموانئ، وفي هذا المبحث نشير إلى بعض تلك العادات والأعراف البحرية التي دونها الملاحون في مرشداتهم وروزناماتهم البحرية:

• اصطحاب الربابنة أولادهم للتعليم:

هذه من أبرز عادات الملاحين الحضارمة، فقد كانوا يصطحبون معهم أبناءهم في رحلاتهم البحرية بعد أن يتخرجوا من العلمة لتدريبهم وتعليمهم فنون الملاحة البحرية، وقد أشار لذلك الشيخ أحمد بن محمد باعباد من أواخر ربابنة حضرموت (ت ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م) فيما دونه من ذكرياته «سافرت مع والدي في السفن الشراعية بعد أن درست في المدرسة الابتدائية بالحامي إلى الصف الثالث الابتدائي وكان سني ١٢ سنة، تعلمت من والدي طريقة القياس واستخراج الطول والعرض حسب الكتب الموجودة عند والدي، وبعد ذلك حمّلني والدي المسئولية في اتجاهات السفر من بلد إلى بلد، وقد عرفت الكثير منه..»(١).

وقد فاق التلميذ معلمه وبرز في فنون الملاحة البحرية والفلكية ومعرفة القياس حتى ذكر في مذكراته في إحدى سفراتهم إلى الهند أن والده غفل عن المجرى الصحيح فنبهه إلى ذلك فلم يلتفت إليه ولم يسمع كلامه حتى تيقن له ذلك عندما بدأ ينفد عليهم الزاد والماء فعندها سلم ابنه أحمد المذكور قيادة السفينة ونجا بها إلى بر الأمان.

ويحدثنا الربان عوض بن سعد بامعيبد (ت ١٣٠٩هـ/ ١٨٩١م) في روزنامته من اصطحاب ابنه عبدالرحمن عوض في رحلته إلى الهند سنة ١٣٠١هـ والاعتماد عليه في القياس لميلان الشمس، وكان يقوم بكتابة يومياته الخاصة وتدوين ملاحظاته وقياساته، وربما تبادل مع أبيه لليوميات، وكان يختلف مع أبيه في القياسات(٢).

وبهذا تفرد ربابنة حضرموت عن غيرهم من الربابنة العرب، فمعارفهم نابعة عن خبرة وتجربة وليست نقلًا بالنص عمن سبقهم، فنجد الاختلاف بين الربان بامعيبد وابنه الربان عبدالرحمن، وكذلك عند الربان باعباد وابنه الربان أحمد فكل واحد منهم يعتد باجتهاده ومعرفته، وربما يرضخ الوالد لخبرة ابنه، كما حصل للربان باعباد عندما كان مسافرًا إلى الهند وأخطأ في قياساته، ولما تبين له ذلك سلم قيادة السفينة لابنه، كما حصل ذلك أيضًا مع الربان باعباد والربان سالم أحمد باصالح(٣).

• عادة السنجرة (الرفقة):

وهي عادة بحرية قديمة تترافق فيها السفن في الطرق البحرية الطويلة، مثل رحلة الهند والبصرة، وهي تبدأ بأن يطلب نوخذة السفينة كتابيًا أو شفهيًا الترافق مع نوخذة سفينة أخرى، ويلتزم الجميع بقوانين تلك العادة، وأحيانًا يفترقون عندما يصلون إلى الموانئ العربية التي يعرفونها حق المعرفة، وفي هذا يقول الملاح باطايع في رحلته من مسقط إلى المخا عندما وصل إلى ميناء مرباط العماني الذي غالبًا ما تفترق فيه السفن:

إن كنت في شوق عدلت مجراك من فوق
الكل مطلوق تبقى الخواطر رضية(٤)

ويذكر الربان بامعيبد في روزناماته ترافق عدد من السفن معه في رحلته إلى الهند، وهي سفينة (الهاشمي) ملك السلطان القعيطي، وسفينة (محطة الرحمن) ملك ناصر أحمد بوبك، وقد استأذنه ناخوذتها لما وصلوا إلى قصيعر بالتوجه إلى الحامي، وهذا الاستئذان شرط من شروط السنجرة وتقاليدها(٥).

ويقول الربان محمد عبدالله باعباد في مذكراته: سافرنا من الحامي إلى البصرة في سنة ١٣٤٥هـ الموافق ١٩٢٥م في صنبوق (الزاهر) ملك محمد عمر بازرعة، وسنجارنا عوض سالم حوري، والسيد محمد صاحب من اللحية في صنبوق (الشاذلي) ملك بن الهاج ساكن في الزهرة، سنجارنا على بركة الله لحتى وصلنا إلى البصرة، ورحنا إلى عند وكيلنا سليمان الدكير وكيل بازرعة وطلبنا شحنة في الصنابيق الاثنين، وبقي أيام يتخبر على الأسعار التمر لحتى حول نحنا إلى المحمرة عند السيد محمد بركات اشترى تمر من جزيرة صلبوح، وحول نحنا على الشركة في جزيرة صلبوح، ورحنا وزادت معانا (الغنية) حق أهل مرباط، وفيها النوخذة عبدالله الحبشي(٦).

• الهدايا البحرية:

هناك عدد من الهدايا يقدمها مالك السفينة أو ناخوذتها كتحفيز وتشجيع، وهي تنقسم على قسمين: قسم يقدم للبحارة، وهم قائد الدفة، ومساعدوه (السكونية) عند اجتياز الرؤوس البحرية الخطيرة، ولبعض الشخصيات البارزة مثل مقدم ميناء سيحوت، يقول باطايع:

لك في وصالك سيحوت تصبح قبالك
قل ذا جبالك قطعة عمامة هدية

أي يعتاد نواخيذ السفن عند مرورهم بسيحوت أن يقدموا لمقدم بندر سيحوت هدية تقليدية، وهي عبارة عن عمامة أو إزار أو نقد يعادل قيمة العمامة؛ لأن بندر سيحوت ذو أهمية ملاحية للسفن الحضرمية، ومنه تنطلق إلى موانئ شرقي إفريقيا.

وقسم يقال له (فولة) يقدم للأطفال عند الوصول بالسلامة إلى البلاد، ويقدم كقرابين للجن في أعالي البحار، وفي الرؤوس البحرية، وكلاهما يسمى بالفولة أي ضريبة النجاة، وهي من العادات القديمة منذ ما قبل الإسلام، يقول فيها الملاح باطايع عند وصوله رأس فرتك:

فولة على الرأس ذلك مسوس على ساس

من هو فتى رأس يقسم لنا في الهدية(٧)

• تحية الموانئ وشيوخها:

يعتاد البحارة عند الوصول إلى الموانئ الشهيرة سواء في عُمان أو في حضرموت أو في عدن بتحيتها، فهناك تحية مشفوعة بالفاتحة تقرأ على روح صاحب الميناء، الذي اشتهر بها، مثل صاحب مرباط الشيخ محمد بن علي باعلوي، وصاحب شرمة الشيخ عمر المحضار، وصاحب المكلا الشيخ يعقوب بن يوسف، وصاحب بروم الشيخ مزاحم بن أحمد، وصاحب عدن الشيخ أبوبكر العيدروس، وصاحب المخا الشيخ علي الشاذلي، ولهذا يقال لها بندر بن علي، وبندر يعقوب، وبندر مزاحم، وبندر العيدروس، وبندر علي.

وهناك تحية للميناء بلعبة الكاسر البحرية، تقام لبعض الموانئ، مثل ميناء شرمة، وميناء الشحر، وميناء المخا، ولهذا يقول الملاح باطايع عند وصوله إلى شرمة:

ذا رأسها ارفع اضرب بطاسه ومرفع

عشرين مدفع والفاتحة والتحية

للشيخ محضار يظهر كرامات اجهار

بليل ونهار ما في العقيدة خفية

يقول المؤرخ محمد عبدالقادر بامطرف عند شرحه تلك الأبيات: «علينا أن نرتفع من الصخور الكبيرة التي أمام مرسى القرن ونحيي المحضار بطريقتنا البحرية الخاصة، وهي ضرب الدفوف والطبول والمدافع إجلالًا وتبركًا به؛ لأنه لا يحسن بنا كملاحين نعيش في فم الأخطار، ومحتاجين لكل دعاء صالح أن نخفي عقيدتنا في نفحات أولياء الله الصالحين»(٨). ويصف الأستاذ بامطرف ذلك المشهد قائلًا: «عند دخولنا بندر الشحر علينا أن نرفع أعلام الزينة والفرح على سفينتنا، وندخل الميناء في سير بطيء، وسفينتنا تتهادى في سيرها، وهي تطلق مدافعها الباروتية تحية لهذا الميناء التاريخي العريق، وبحارتنا يترنمون بأنشودة الكاسر على دقات الطبول والدفوف والتصفيق العنيف بالأيدي والتوقيع الأعنف بالأقدام على سطح السفينة. كل ذلك والشاطئ مليء بالناس المستقبلين للسفن، وفيها أبناؤهم وآباؤهم وإخوانهم وأقاربهم وأصدقاؤهم»(٩).

ويقول الملاح باطايع عند وصوله إلى ميناء المخا:

إن كنت دافع يا صاح ارمي مدافع

هات المرافع وادخل بحزبة قوية

أي: علينا أن ندخل بندر المخا (بحزبة قوية)، أي: بمظهر رائع مؤثر بالأسلوب الذي دخلنا به بندر الشحر، تحية لهذا الميناء اليمني المشهور(١٠).

ثانيًا: المخاطر البحرية والتحذير منها:

هناك جملة من المخاطر والأخطار البحرية التي دائمًا ما ينبه الربابنة عليها الملاحين، الذين يأتون من بعدهم ويسترشدون بمدوناتهم، وفي منظومتي الملاح باطايع عدد من تلك التنبيهات، منها: الانتباه لقائد السفينة، فخطؤه يؤدي إلى إهلاك الجميع، ويقول باطايع عندما وصل إلى رأس حافون:

حافون يأتيك عالي مرتفع من بعد ما قد تؤخر له دفع

سهيل لخضر مغيبه واستمع مولى الدرك وانتبه له لا ينام

ويقول عندما جاء إلى رأس مدركة:

قل هات لي هات ذا مدركة يا فتى جات

القبض شلات والرطل يصلح أوقية

أي: إن في جزيرة مدركة يتلاقى عمقان للبحر: أحدهما أقل من مائتي باع، والآخر غزير أكثر من خمسمائة باع، فهذا يتوجب على السكونية أن يتناوبوا في قبض دفة السفينة في شلات، أي: نوبات ذات ساعة أو ساعتين؛ لأن أمواج البحر العالية تنهك قوة السكوني فيصبح رطله أوقية على حد المثل الحضرمي.

ويقول محذرًا من أماكن القرصنة:

لا بأس لا بأس ذا صوقرة بعدها رأس

قرواو دساس حد القرى الجاهلية

أي: يأتي بعد صوقرة رأس شربثات، ثم بعده يأتي جبل قرواو الدساس لوجود الشعاب المرجانية المنتشرة حواليه في البحر، والتي ترتطم بها السفينة، وكذلك يوجد به مغارات القراصنة الذين يختبئون فيها ويتربصون بالسفن المارة التي تنشب في شعاب جبل قرواو ويغيرون عليها(١١).

ويذكر الربان عيديد بعضًا من تلك المخاطر والتحذيرات في مدونته منها: «إذا سافرت مثلًا من المكلا والميل محقق في واحد من البروج، والحطب والماء معك إذا

وصلت فرتك ودخلت في الغبة وجاتك الشتا قبل وصولك البر ورجعتك إلى البحر رجولك قوية عندك الميل والحطب والماء شل طول من عدال المحل الذي رفعتك منه الشتا، اكتب الذي تحصله طرحه فوق طول المحل المذكور أعلاه واحسب. والحذر تسافر من الحامي بلا ماء كامل وحطب كامل الذي يؤدي بر الهند، تستأمن على الذي قدامك ولا تحصل ذلك والسلام».

أي يرشد الربان إذا وصل إلى رأس فرتك وهبت عليه رياح الشتاء، التي تهب في فصل الشتاء بشدة من البر، أي من الجهة الشمالية إلى الجهة الجنوبية، وغالبًا ما يحذَّر منها الملاحون ويتوقفون عن السفر أيامًا عندما تهب، والذين تصادفهم تلك الريح وهم سائرون في عرض البحار ينالهم منها ضرر كبير عليهم أحيانًا، منهم من يرمي بعض حمولته لتفادي خطرها، وبعض السفن تغرق من شدتها، وبعضها تحتمي بخليج أو ميناء أو رأس بحري قريب(١٢). ويأمر الربان عيديد ربان السفينة أن يقوم ببعض العمليات الحسابية، وهو أن يأخذ طول المكان الذي كانت سفينته تجري عليه ويطرحه من طول المحل الذي دفعته إليه تلك الرياح، والناتج هو طول المسافة بينهما، ثم يحذر في السفر من الحامي بلا ماء وحطب كافٍ للرحلة إلى موانئ الهند، ولا يعتمد (يستأمن) على الذي أمامه من الموانئ؛ لأنه ربما لا يجد شيئًا فيها فينبغي عليه أخذ الحيطة والحذر.

ومن إرشاداته للمبحرين حول رأس فرتك المعلَّم البحري الشهير «هناك قطعة عدال رأس فرتك ابعد من البر ٩٠ ميل في عرض ٣٠ق ١٤ج، وفي طول ٥٣ج ١٠ق، المجرى من فرتك إلى القطعة عقرب مطلع، ومن القطعة إلى فرتك عيوق مغيب».

ينبه رحمه الله الملاحين على تلك القطعة (القشار) والشعب المرجانية المطمورة بالماء الواقعة مقابل رأس فرتك، فينبغي الابتعاد بالسفينة من البر مسافة ٩٠ ميل بحري لئلا ترتطم السفينة بتلك القطعة المرجانية، فيحصل ما لا يحمد عقباه(١٣).

ثالثًا: الحوادث البحرية والتعامل معها:

يتعرض البحارة وهم سائرون في عرض البحر لبعض الحوادث البحرية الطبيعية بسبب الرياح والعواصف، والبشرية التي يتسبب فيها البحارة أنفسهم، منها:

١) انحراف السفينة وارتطامها بالصخور المرجانية، والسبب إما غفلة السكوني، أو تحميلها فوق الحمل المقرر لها كما هو الحال في غرق سفينة (حيدرا) في عام ١٩٤٩م، ومات فيها سبعون راكبًا من أهالي حضرموت وظفار، ولم ينج منهم سوى ربانها محمد بن حزيحيز المهري. أو بسبب الخروج من المجرى الصحيح مما يؤدي إلى نفاد الماء والحطب والزاد، أو السفر في غير الوقت المناسب للسفر كما هو الحال في حادثة غرق سفينة (النيوكا) على مشارف جزيرة عبدالكوري، ومات فيها ستون شخصًا نجا منهم عشرة أشخاص في عام ١٩٥٩م.

٢) العواصف والأعاصير: كانوا يعرفونها بتغير ضربات موج البحر على جدار السفينة كما هو الحال عند الربان عيديد أو بوساطة الرياح التي تهب، أو الطيور كما هو الحال عند الربان عوض أحمد بن عروة، وكانوا يتفادونها بتنزيل الشراع والتصون في مرسى آمن من الرياح.

٣) حوت العنبر: المعروف بالشوحط، والملقب عند الملاحين بـ(سلطان البحر)، فكان البحارة عندما يعترضهم في أعالي البحار يقومون بضرب التوانك والمواعين على جدران السفينة ويصيحون قائلين: بعيد يا سلطان البحر بعيد. ويذكر الربان باعباد في مذكراته: أنه في إحدى سفراتهم إلى البصرة وبينما هم في غبة قمر رست السفينة على شوحط، ولما أحس بثقل السفينة حرك ذيله فخرجت حشوة من أخشاب السفينة، فدخل إليها الماء، وغرقت السفينة بجميع ما فيها من بضاعة، ونجا ركابها في قارب النجاة، ثم ركبوا مع السفن المرافقة لهم(١٤).

رابعًا: الأدب البحري عند الملاحين:

هناك أدب شعبي خاص بالملاحين من أهازيج ومواويل وترنيمات، ويذكر الربابنة في مدوناتهم بعضًا من قصائدهم أو قصائد غيرهم، التي كانوا يتسلون بها أو يحدون بها في وقت فراغهم، وتختلف مواضيعها، فبعضها في مقاسات البعد عن الأهل والأحباب، وبعضها في وصف معاناتهم اليومية بين عباب الأمواج، وبعضها في وصف السفينة وبحارتها الأشداء، وكان يوجد في كل سفينة مُغَنٍّ وراوٍ يعرف بصدر السمر، وهناك من يعزف على آلة السمسمية أو العود، ولهذا نجد في رحمانيات ربابنة حضرموت إضافة إلى معارفهم الملاحية والفلكية هناك صفحات تخصص لكتابة القصائد الدينية والغزلية، وغالبًا ما يسجلها كراني السفينة، كما نلاحظه في رحماني النوخذة سالم سالمين كعيتي (ت ١٩٨١م)، وأحيانًا تكون بعض تلك القصائد من نظم ناخوذة السفينة، فهذا النوخذة حسين بن سالم عيديد (ت

١٩٤١م) يصف لنا إحدى رحلاته الملاحية مع الربان محمد عبدالله باعباد عام ١٩٢٢م، عندما هجمت عليهم عاصفة بحرية محملة بالأتربة حال عودتهم من عدن، بقوله:

قال الفتى بو محمد سار في البحر عازم من بعد هب النسيم
من بندر العيدروس المشتهر بو الكرايم من وقت سابق قديم

ثم قال مخاطبًا البحر:

يا بحر بيني وبينك خط شايم ولايم والصلح بيته يديم
ولا تكثر مواجك عا حسين بن سالم له قلب زاكي سليم(١٥)

ويقول الكراني الشاعر أحمد علوي مكنون في وصف إحدى سفن التاجر بازرعة مع النوخذة سالم سالمين كعيتي:

وبديت بك يا فرد يا معبود يا مولى الموالي اغفر ذنوبي يا معين
وذا السنة زانت وربك يا يفرجها دوامي نا باطلع في فلك بازرعة رين
منظوم في الوشرة وفي الوطية عياني اللوح من سوته عجبنا يا فطين
ماذا السنة يا سافر البصرة وياجيب العماني وياعطي أهل المودة والضنين
وياملك من ولد بامطرف حسينات الثماني لي ثمنهن نحو خمسة وأربعي(١٦)

ومن الشعراء الذين سافروا مع السفن الشراعية الشاعر عبدالله سعيد باعمرو من شعراء الديس الشرقية (ت ١٩٥٣م)، ومن قصائده التي تغنى به في إحدى رحلاته البحرية بسنجاره الربان العبقري عوض بن أحمد بن عروة (ت ١٩١٥م)، قائلًا:

يا من بتقديرك خلقت الكون وخلقت البشر
وخلقت كل الكائنات والأمر في كاف ونون
والفي صلاة الله على أحمد عد ما شاع القمر
شفيعنا يوم القيامة عند تعديل الوزون
من بعد ما غربت على الشمس قلت الله اكبر
قمته مع رأس الجبل وطرحت بو خمسه قرون
ورميت بالسنجار خليته وسط بحر الخضر
وعبرت عاشروين حي ذاك الجبل حول القرون
ما قدرت فارق بو حمد دار السياسة والفكر
بن عروة المصيوت له فنين من فوق الفنون
ربانا والنوخذة له عرف في بحر وبر
يعجبك في ضبط المجاري في وسيعات الخنون
خاض البحور العالية ما بدا جحب وإلا انكسر
يقسم الديرة دقاري لا قد الحاجة دهون(١٧)

وهناك أدب ملاحي خاص بالنساء يعرف بالتجلوب؛ وهو عبارة عن الدعاء إلى الله والابتهال في جلب المسافرين إليهم بعد تأخر موعد عودتهم المقرر؛ حيث يجتمع النساء مساءً في إحدى بيوت الحافة، وهناك شاعرات خاصات بذلك، ذكر طرفًا من شعرهن المرحوم بدر أحمد الكسادي في كتابه (القاموس البحري)، منهن الشاعرة فاطمة كسادية من شعرها:

ذا السنة موسم الحامي عزم إلى كراشي يجاوش هناك
ومركب الميل من مسقط مصدر اليكم با يلبكم بالدراك

ومنهن الشاعرة فطامة كلالية من شعرها:

موسمنا بطى ريح البضايع تفتح باقي الموسم مصبح
خاف حص سنجار في القرب طرح باقي الموسم مصبح
لا تقولوا بطى دلى في النجم نصح باقي الموسم مصبح(١٨)

---

* مدير دار الحامي للدراسات والنشر وخدمة التراث الحضرمي.

الهوامش:

١) الرحلات البحرية لملاحي حضرموت إلى الخليج والهند وشرق إفريقيا، ص٩، دار الحامي ٢٠١٢م.
٢) عبدالرحمن الملاحي، روزنامات الربان بامعيبد، ص٨٥، ١٠٩، مركز حضرموت، المكلا، ٢٠١٦م.
٣) انظر: محمد باهارون، صفحات من حياة الربانين محمد عبدالله باعباد وأحمد سعيد باهيال، ص٣٧، ٣٨، دار الحامي، ٢٠١٢م.
٤) محمد بامطرف، الرفيق النافع على دروب منظومتي الملاح باطايع، ص٦٢، مطبعة السلام، عدن، ١٩٧٢م.
٥) روزنامات بامعيبد، مرجع سابق، ص٩٥، ١٠٩.
٦) صفحات من حياة الربانين باعباد وباهيال، مرجع سابق، ص٥٥.
٧) الرفيق النافع، مرجع سابق، ص٦٤، ٦٥.
٨) الرفيق النافع، مرجع سابق، ص٦٨، ٦٩.
٩) نفسه، ص٧٣.
١٠) نفسه، ص٩٣.
١١) الرفيق النافع، مرجع سابق، ص٥٥، ٥٧.
١٢) بدر الكسادي، القاموس البحري، ص٢٤٧، ٢٤٨، المجمع الثقافي، أبوظبي، ٢٠٠٤م.
١٣) محمد باهارون، الربان الفلكي محمد عوض عيديد ومدونته البحرية، ص٦٠- ٦٢، دار الحامي، ٢٠١٧م.
١٤) صفحات من حياة باعباد وباهيال، مرجع سابق، ص٩.
١٥) مذكرات الربان أحمد محمد باعباد، مخطوط.
١٦) رحماني النوخذة سالم سالمين كعيتي، مخطوط.
١٧) باهارون، الربان بن عروة والعلوم الملاحية عند العرب، ص٣٤- ٣٦، دار الحامي، ٢٠١٥م.
١٨) القاموس البحري، مرجع سابق، ص٢٨٤- ٢٨٨.

قصص غياب البحّارة في الموروث المشقاصي المحكي

المشقاص جزء أصيل من حضرموت، وهو المنطقة الممتدة شرقًا من الساحل الحضرمي إلى حدود المهرة، والمتعارف عليه حاليًا أنها مساحة مديرية الريدة وقصيعر والمناطق القريبة منها وإن كان مدلولها أعم وأكبر عند بعض المؤرخين وهو ما يبدو صوابًا، ومهما تكن الحدود فمجال هذه الورقة البحثية هي مديرية الريدة وقصيعر، وقد تتشابه وقائع غياب البحارة وقصصهم مع ما كان يحدث في بعض مناطق ساحل حضرموت عامة وربما غيرها.

فائز محمد باعبّاد

تزخر هذه الأرض بصنوف من الموروثات الفكرية الفنية والاجتماعية وبعاداتها وتقاليدها وحكاياتها وقصصها وأساطيرها وأدبها المحكي المتفرد، وهي تتنوع بين السهل والوادي والجبل، ففيها تقع مواقع طرق التجارة القديمة، وهي أرض اللبان، والحصون التاريخية المتناثرة، وأرض الزرع، والرعي، وقوافل الجمال، وفنون الغناء المتنوعة التي تتميز به عن غيرها: الدان الساحلي المشقاصي، ودان بيت حسين، والداني دني، والشحيب، والمريكوز الحداء (الكرام)، وقصائد مهرجانات ختان الصبيان، وهي أرض الشعراء الشعبيين، والأولياء الصالحين، وزيارات معبر، وسبعة الراكة، وسبعة القطار (وسبعة العلب واليافه وعبده وهود وهو كما يذكر شاعر) وغيرها من المفردات التي يعرفها الباحث والمهتم، هذا التنوع فتن به كثير من الباحثين والمهتمين بالتاريخ والتراث والفن الحضرمي، وحتى الشعراء والأدباء، وستحدثك كتابات الشيخ عبدالرحمن الملاحي عن شيء كهذا، وإن يممت صوب الأدب فالتقط رواية الصمصام للأديب صالح سعيد باعامر أو غيرها، أو اقرأ عن تراث المشقاص في كتابات الأديب أحمد سعيد باعباد... وغيره.

في مساحة البحر والشواطئ الخلابة والموانئ الطبيعية، ما زالت آثار وخطوات البحارة وسفرهم وسفنهم الشراعية التي تمخر عباب البحار فتبلغ الهند والخليج العربي وشرق أفريقيا وكثيرًا من بلاد العالم، وهناك القصص والحكايات التي ما زالت تحكى بشخوصها الحقيقيين، وبما شابها من خيال الرواة، سنتناول منها في هذه الورقة ما تعلق بقصص غياب البحارة وحكاياتهم، وفقدهم في البحار وما وراءها، وهي حكايات تسلط الضوء على خطورة مهنة البحّارة وما يكتنفها من مصاعب تصل أحيانًا إلى ذهاب بغير عودة، وغياب لا ينتهي.

في المشقاص "قصيعر" وهي المرفأ الأهم وكانت بلدة مسوّرة حولها الحصون والقلاع وفيها الميناء والجمرك والحركة التجارية والملاحية، وإليها يقدم كثير من الناس للانضمام إلى مواكب العمل في البحر إذ كان عمل البحر هو المتاح الأفضل والأكثر دخلًا، كانت رحلات البحر تقرب وتبعد ما بين رحلات الصيد اليومية أو رحلات

السفر مع السفن الشراعية إلى مناطق شتى؛ وكان هذا السفر البحري صعبًا وشاقًا وطويلًا إذ قد يستمر من ثمانية إلى عشرة أشهر في السنة.

كان طاقم السفينة الشراعية في المعتاد يتكون ابتداء من أسفل السلم الوظيفي من (صغير شربة) وهم في الغالب أطفال يعملون مجّانًا مقابل تعليمهم وإطعامهم، وقد تجد في السفينة الشراعية أكثر من صغير شربة وعملهم هو تقديم الماء للبحارة وهم في أسفل ترتيب طاقم السفينة كما ذكرنا، وأعلى منهم (الصغير قرص) المرتبط عمله بتقديم أقراص الخبز والطعام، ثم (الصغيّر درك) وهو مساعد الطباخ، ثم (الطحان) وهو الطباخ ومن يطحن حبوب الطعام، ثم (السكّوني) من يقود دفة السفينة، ثم (المقيدمي) وهو مقدم البحارة، والبحارة الآخرين الذي في المتوسط قد يصل عددهم اثني عشر بحريًا يزيد أو ينقص حسب حجم السفينة، ثم (الصرنج) أول الربان وهو المساعد المباشر للنوخذة، ثم (النوخذة) وهو السلطة الأعلى، وفي هذه السفينة الشراعية المشقاصية أداة الرحلات والحكايات البحرية التي نحن بصدد الحديث عنها، وللالتحاق بمهنة البحّارة في هذه السفن قوانين وأنظمة عمل صارمة.

مما يلفت إحساس الباحث والمتتبع للقصص المحكية عن هذه الرحلات لمسة شعور بعض البحارة والمسافرين لتلك النواحي بقسوة الرحلة ومشقة الغياب القادم في رحلات يتربص بها المجهول والخوف والتردد، ويبدو أن البعض في هذه الرحلات يساقون إلى هذا السفر مرغمين، يقول الشاعر الشعبي علي بن حسن باعباد (ت ١٩٧٠م) عن تجربة سفر بحري:

سافرت ما بغيت سافر ليشنا قل بي

ولعادنا في السفر يا نوخذة رد بي

فهو يذكر أن القل (الفقر) هو الدافع لسفره لكنه يغير رأيه في السفر حيث لا مجال للعودة. سألت الوالد غبشان الجريدي، وهو من آخر من بقي من بحّارة السفن الشراعية عن شعورهم عندما كانوا يغادرون إلى البحر، قال: كنّا نذهب كالمغصوبين ما يخفف عنا هو أمل أن نوفق في الموسم، ونحصل على عائد مادي وفير، وعندما يحدث هذا ننسى كل المشاق التي قد كابدناها.

الغياب والاغتراب ليس بالأمر الهيّن خصوصًا عندما يكون السفر في عباب محيط وعلى ظهر سفينة شراعية، يقول حسن صالح شهاب في كتابه (أضواء من تاريخ اليمن البحري): «كان الناس حتى وقت قريب يكتبون وصاياهم حين يقدمون على السفر على وجه البحر، ويودعون أهلهم الوداع الأخير، ويعتبرون في عداد المفقودين ما داموا في البحر، ومن خرج سالمًا عُدَّ كمن بعث من قبره... قال ابن المجاور: وخروج الإنسان من البحر كخروجه من القبر»(١)، وفي الواقع إن هذا السفر والاغتراب المشقاصي ينتهي غالبًا إلى عودة حميدة لكن هناك من لا يعود، أو يعود متأخرًا جدًا.

تم تقسيم هذه المواضيع والحكايات حسب الآتي:

أولًا: عودة البحارة المتوقعة بعد غياب، وهو الغياب المعتاد.

ثانيًا: حكايات اللاعودة الاختيارية. البعض يسميهم (المتوهين) الذين تستهويهم تلك المناطق فلا يعودون.

ثالثًا: حكايات الإعادة بالإكراه؟

رابعًا: حكايات الفقدان والانتظار الذي لا ينتهي.

وقد ذكرت في هذه الحكايات بعض الأسماء الحقيقية لبعض النواخيذ والبحارة كي يفهم القارئ أن هذه الحكايات حقيقية وليست من وحي الخيال في تواريخها ومناطقها، بل إن بعض أبطالها ما زالوا أحياء يرزقون.

وسنسلط الضوء أيضًا على منطقة ومجال أهمله المؤرخون والبحّاثة وإن كان هذا التناول من جانب الحكايات، ففي المشقاص قد لا تسمع عن أسماء نواخيذ وربابنة كبار كمناطق حضرمية أخرى، وهم لا شك موجودون لكن ربما يعود السبب الأكبر في عدم ذكرهم هو عدم الاهتمام بالتدوين كما فعل غيرهم أو لجهلهم أو لأميتهم أو لانشغالهم الدائم بعمل البحر، رغم أن في هذه المنطقة كان وما زال يوجد نواخيذ كبارًا لا يقلّون شأنًا وأهمية عن غيرهم.

أولًا: العودة المتوقعة بعد غياب معتاد:

عندما تعود السفن الشراعية وبحارتها بعد انتهاء موسم السفر الطويل يستقبلون بالاحتفالات، فيخرج الكبير والصغير إلى الشاطئ لاستقبال القادمين من البحر، فلا يبقى أحد في البيوت؛ وذلك لأن كل الأسر تقريبًا كان لها عائد بعد غياب، وأشهر ما يمكن تسجيله قبل مهرجانات الاستقبال هذه هو أغاني النساء وأهازيجهن، التي تسمى (التجلوب)، كان هناك اعتقاد أن التجلوب يجلب الأحبة الغائبين إلى أوطانهم بعد انتظار، ويتم التجلوب في المساء في بيوت متفق عليها بين النساء (المجلبات)، وتنضح كلمات التجلوب

بالتفاؤل بعودة الرجال، وهو شيء من تجليات الشوق الأنثوي، ومن شجن الفراق والانتظار، ومن أشهر كلماته: (جلبن يالغزل كلن مساهن رجاله.. وقريب الفرج قريب يالله مع الصاري.. وجلبن يالغزل ياخضار الشغية ما معي قلب صبار) وغيرها كثير، يقول الأديب الأستاذ أحمد سعيد باعباد (ت ١٩٩٣م): «إن ألحان التجلوب المتنوعة والجميلة والشجية والمثيرة للخيال والذكريات تحتاج منا إلى توثيقها وتسجيلها قبل إن تنقرض إذ هي جميلة جدا وتثير في النفس الأمل والتفاؤل بقرب لقاء الأهل والأقارب»[٢].

اليوم قد تسمع بعض النساء العجائز وهن ما زلن يُدَنْدِنَّ ببعض أهازيج التجلوب فتشعر كم تبعث هذه الأصوات من الشجن والأسى رغم أن تلك العجوز المدندنة لم تعد تنتظر أحدًا، فهي إن صح التعبير كالنائحة المستأجرة لقد مر على زمن هذه الأصوات عهد طويل لكنها لم تزل تسبي الأفئدة والوجدان.

عند اقتراب السفينة من المرسى تطلق بعض الطلقات من مدافع صغيرة بحوزة السفينة إشعارًا للمستقبلين بقرب الرسو، وعند الرسو ينطلق بعض الأطفال سباحة حتى يصلوا في أعماق البحر إلى جوار السفن، وهناك يحضون بهدايا صغيرة بمناسبة سلامة الوصول، وعندما ينزل طاقم السفينة إلى اليابسة، يقول الأستاذ الأديب أحمد سعيد باعباد «يكون الشاطئ غاصًا ومزدحمًا بالرجال والنساء والأطفال الذين يشاهدون عملية النزول هذه ومرحبين ومهنئين بسلامة الوصول بمصافحة الأي بالنسبة للرجال أما النساء والأطفال فالترحيب بالنسبة لهن ولهم ينحصر فقط بالنظرات والزغاريد والإشارات والهمسات والضحكات الخافتة»[٣].

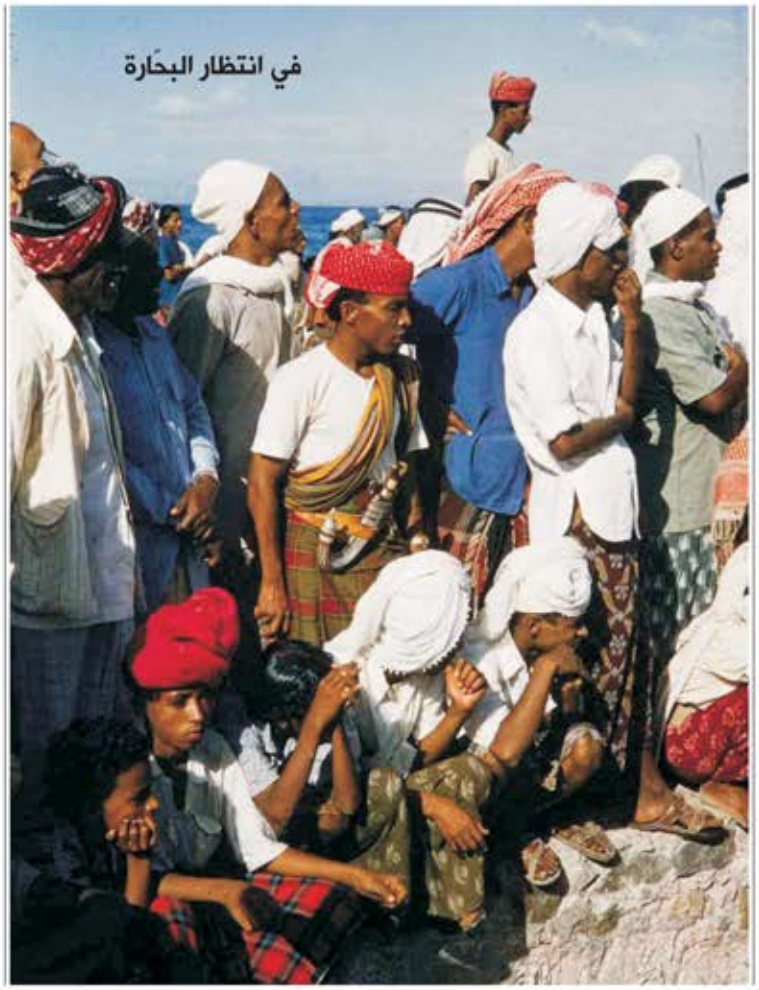
في انتظار البحّارة

تلك كانت هي النهاية السعيدة للرحلة البحرية الخطيرة لكن ليس كل النهايات كهذه.

ثانيًا: من حكايات اللاعودة:

في حكاياتي التي كنت أكتبها (حكايات من المشقاص)، وتم نشر بعضها في (مجلة حضرموت الثقافية) التي تصدر عن (مركز حضرموت للدراسات التاريخية والتوثيق والنشر) تناولت بأسلوب أدبي تاريخي حكايات حقيقية استقيتها من رواة ثقاة أو حتى من بعض أبطال هذه الحكايات ممن ما زالوا على قيد الحياة.

عن حكايات الغياب واللاعودة البعض تستهويهم تلك المناطق الخضراء الجميلة والساحرة فلا يعودون، منهم من يفتح تجارة، ومنهم من يتزوج، وبعضهم يترك أولاده صغارًا، ومنهم من يتهم بتهمة فيهرب، ومنهم من يصاب بغدر أو خيانة صديق أو حبيب فيفضل البقاء هناك ولا يعود أبدًا، من حكايات اللاعودة التي ما زالت تذكر هنا ومن أشباهها كثير وإن اختلفت في تفاصيلها هي حكاية الشيخ عوض بن زين بن حمزة بن عقيل باعباد (المتوفى حوالي: ١٩٤٨م)، فقد تزوج الشيخ عوض ولم يمكث عند زوجته شهرًا حتى حل موسم السفر البحري فسافر طلبًا

للرزق على أمل العودة، وفي زنجبار حين كان ينتظر بشوق أن ينتهي موسم السفر ويعود لأهله محملًا بالهدايا والأموال وصله من وطنه نبأ أليم ووشاية مغرضة من صديق يتهم فيها زوجته بسوء فلم يتبيّن فأخذه الغضب وتملكته الغيرة فأرسل طلاقها غير معقّب، وبعد حين فوجئ أنها تزوجت ممن أبلغه عنها الوشاية، فندم وعلم أنها طعنة غدر من صديق لم يتوقعها، فكتب قصيدة شعبية يشكو فيها مرارة ما تعرض له، فخلدت هذه القصيدة قصته، وما زال البعض يردد القصة ويحفظ أبيات القصيدة التي منها:

بي صوب ماكن وعاد شي يا عرب طب له

الله يصيب الذي لا يا عرب صوبه

لا تحل له من قسم قلبي ثمين أربعه

ثمين خلاه من قلبي وسبعه معه

يقصد إن الذي أخذ زوجته أخذ سبعة أثمان من قلبه ولم يترك له إلا ثمنًا واحدًا، والقصيدة أكثر من عشرين بيتًا، فجاوبه الشاعر علي بن حسن ليس تخفيفًا عنه مما يشكو بل تقريعًا بسبب ظلمه لزوجته وتطليقها من غير أن يتبين في قصيدة تجاوزت أبياتها الأربعين بيتًا، ومنها:

الآدمي يا عوض الحق ما يهمله

إن قدّم الخير باب الخير مفتوح له

وإن قدّم الشر باب الشر يا مثقله

باب السوى والخطأ بينّ بلا مشكله

كل من زرع زرع يا بحصد وجناه له

إلى آخر القصيدة.

لم يعد بعدها الرجل وبقي هناك حتى توفاه الله، لكن بقيت قصته هنا تتردد بما فيها من عظة وعبرة.

ثالثًا: الإعادة بالإكراه:

بعض الأسر تعيد أبناءها إلى أوطانهم بالإكراه ولا تتركهم لأهوائهم ولسحر تلك البلاد ومفاتنها، ولعل أشهر حكاية يمكن إيرادها في هذا الشأن هي حكاية غيوث بن عمرين الغتيني (ت ١٩٢٠م)، الذي سافر في شبابه إلى أفريقيا واستقر به المقام في مدينة لامو الكينية الجميلة، فاستهوته ولم يعد لذويه، وانقطعت عنهم أخباره، فأرسلوا في طلبه شقيقه أحمد لعله يقنعه بالعودة، فسافر أحمد ولما وصل لتلك الأراضي بحث عن أخيه فلما وجده أخذ يستعطفه للعودة لوطنه لكن غيوث كان عصيًا على الإقناع، فلم يجد شقيقه بُدًّا من أن يظهر له بعد تفكير وتخطيط وجه الاستسلام لرغبته حتى اطمأن، لكنه دبر له مكيدة بليل، فلم تبزغ تباشير فجر يوم من أيام أفريقيا إلا وغيوث مكبّلًا في سفينة شراعية تمخر به مرغمًا صوب سرار، فلما رأى حاله وأيقن أن ليس من الذهاب إلى سرار محالة وأبصر من سفينته لامو تغيب عن ناظريه قال شعره الذي خلد قصته:

اليوم ما بعدش يا لامو وما قرب سرار

ما قرب بنات العسل لي تحت نخل القصار

وبنات العسل والنخل القصار مواقع في سرار، عاد غيوث إلى سرار ولم يسمح له بالذهاب لأفريقيا مرة أخرى، حكاية أن يذهبوا فتستهويهم تلك المناطق فلا يعودون كثيرة جدًّا حتى سموا بالمتوّهين من التيه والضياع، إنك قد تعجز عن حصر من ذهب ولم يعد، لكن حكاية العودة مكبّلًا تستوقفك أمام ما يبهر هناك فينسيك أهلك ووطنك ومواقع نشأت فيها.

رابعًا: حكايات الفقدان والانتظار الذي لا ينتهي:

على طول التاريخ البحري المشقاصي كانت هناك قصص غامضة عن فقدان البحارة في عرض البحر أحيانًا مع سفنهم لا يعقبه إلا انتظار طويل غير مجدٍ ينتهي إلى لا شيء، لعل من أكثر نماذج هذه الحكايات ألمًا هي حكاية سفينة النوخذة سعد بن محفوظ الغرابي، كان الناس يروون عن مهارة ابن محفوظ البحرية القصص العجيبة، وكانت سفينته ربما هي آخر سفينة تعمل بالشراع في المشقاص، وفي رحلة إلى سقطرى عصر الثلاثاء ١٧ رمضان ١٣٩٢هـ الموافق ١٦ أكتوبر ١٩٧٢م، كانت تحمل على متنها أكثر من أربعة عشر بحريًا، وركابًا من الرجال والنساء وبعض المؤن، في ظروف هذه الرحلة هبت ريح غير معتادة ترجمت بلغة الربية فامتنع الكثير عن الإبحار، لكن لغة هذه الريح استعصت على فهم النوخذة الخبير الذي سافر ولم يُعِرْها اهتمامًا، وفي طريقها وهي تمخر عباب البحر مرت سفينة ابن محفوظ على أكثر من سفينة وقارب عائدًا إلى اليابسة خوفًا أو توجسًا كان بعضهم يناديه ويبدي له تخوفه من عاصفة قادمة، وكان البعض ينظر إليه نظرات الصمت والاحترام والإجلال لخبرته البحرية، وربما استغرابًا وإعجابًا بجرأته وإقدامه على الإبحار في هذا الطقس المنذر بعاصفة، كانت تلك النظرات هي النظرات الأخيرة لهذه السفينة الشراعية المهيبة، رويدًا بدت العاصفة تكشف عن وجهها المدمر، ومع اشتداد الريح ربما أدرك النوخذة الخبير

الواثق شيئًا من الخطر، فهل فكر ابن محفوظ في العودة؟ وهل كان بإمكانه ذلك؟ لا أحد يدري، المتوقع أن الرجل أبحر بلا حول ولا قوة لم يكن أحد يعرف كيف كانت سفينة ابن محفوظ تواجه الأمواج العاتية، دخل الليل واشتد ظلامه ومع اشتداد الظلام كانت العاصفة تزداد شدة، فاقت قوة هذه العاصفة توقعات أكبر المتشائمين، ففي يابسة قصيعر مثلًا هاجمت أمواج البحر العمران وهدمت ثلاثة عشر بيتًا مطلة على الشاطئ، وأغرقت عشرات القوارب، بعد أن هدأت العاصفة تبيّن أن البحر قد ابتلع سفينة ابن محفوظ مع بحارتها ومسافريها ومؤنها، كيف؟ أين؟ لا أحد يعلم، لم يعثر أحد حتى على قطعة خشب واحدة من هذه السفينة الشراعية، فكأنها كانت تبحر في مثلث برمودا، كان ممن غاب من البحارة في هذه الحادثة النوخذة سعد بن محفوظ الغرابي وابنه هويدي، وسلوم سعيد بلكديش وابنه جمعان، وجمعان يسر الملقب عانه، وسالم عمر بن الحطب، وسعيد بن عميران، قبل أيام من تدوين هذه السطور سألت الوالد عوض سلوم بلكديش وهو ابن وأخ لغائبَيْن في هذا الحادث الأليم، وقد أصبح شيخًا عجوزًا ضعيف السمع عن قصة سفينة ابن محفوظ فكاد أن يفهم السؤال حتى التفت إليَّ مندهشًا كأنه استفاق من غيبوبة، وسألني: (هل عاد شي خبر منهم؟)، يبدو أنه ما زال منتظرًا رغم مضي ٤٧ عامًا من الغياب، ذهبت سفينة ابن محفوظ ولم تعد، لكن البعض ظل ينتظر بارقة أمل لعل أحدًا من الأحبة ينجو أو يظهر فجأة، هذه الحكاية ما زالت تتردد كلما تم التطرق لبحّارة ذهبوا إلى البحر ولم يعودوا.

وما زال البعض يردد حكاية البحارة حمادي بن مسلم وخميس باهواري التي وقعت في حدود عام ١٩٥٤م، ذهب حمادي وباهواري في رحلة صيد يومية معتادة ولم يعودا، طال الانتظار وبعد مرور بعض الساعات توجس الناس خيفة من غيابهم فانتشر الخبر سريعًا وبدأت رحلة البحث المضنية، هب الجميع لتقديم المساعدة، وانطلقت القوارب بحرًا، والناس برًا على طول الشاطئ يبحثون بكل طريقة ممكنة، ما لم يكن يخطر ببال في ذلك اليوم هو أن يصبح حمادي وباهواري بطلين لأغرب حكاية غياب وأكثرها غموضًا وعجبًا، في صباح اليوم التالي تم العثور على قارب حمادي وباهواري سليمًا (مجحبًا على الشاطئ) كأن يدًا آدمية أخرجته مع معدات الاصطياد والسمك الذي تم اصطياده، من غلب على ظنه أنهما ماتا انتظر أن تطفو جثتاهما ويخرجهما البحر لكن هذا لم يحدث، هيئة خروج القارب وعدم خروج الجثث فُسّر على أن يدًا أخذت الثنائي ليس إلى أعماق البحر، بل إلى أعماق عالم الجن، وما عزز هذا الاعتقاد عند البسطاء ما قيل من إشاعات بعد الحادث عن الغائبين من أخبار عجيبة، مثل ظهور باهواري يتمشى ليلًا، أو تجوّل حمادي نهارًا في هيئة باعلوان، أو إن نسوة من سرار قادمات إلى قصيعر صادفن في طريقهن رجلين ملتحيين قالا إنهما حمادي وباهواري وطلبا إبلاغ التحية والسلام إلى أهلهما، وغيرها من الأخبار، تضج البلدة مع كل خبر كهذا فيتم إخضاعه للتحليل وربما الزيادة والتهويل، حتى مرت السنون، ومات كثير ممن كان يروي لنا قصة حمادي وباهواري، ماتوا وهم على قناعة تامة برواية أنهما ذهبا إلى عالم الجن، هذه الحكاية تصوّر بساطة وعي الناس، وسذاجة تفسير بعض الوقائع التي لا يفهمونها. في الخلاصة كانت هذه الحكاية بلا نهاية أيضًا.

ورحلات غياب بعض البحارة وعودة بعضهم كثيرة وإن كنا نريد ذكر أمثلة فلا يمكن أن ننسى حكاية سفينة منصور بن شونقا (النوخذه السقطري القصيعري)، التي تشبه في أحداثها الأفلام السينمائية، فقد انطلقت سفينة ابن شونقا من قصيعر محملة بالمؤن في نهاية سنة ١٩٧٠م، وكانت سفينة صغيرة على متنها سبعة بحارة، ولما وصلت حوالي سقطرى، يخبرنا الصياد مبارك سالم عوض محموص (ت ٢٠٠٩م)(٤)، وهو أحد طاقم السفينة، قال: كان الوقت ظهرًا حينما رأينا مجموعة من الطيور تحوم حول مساحة بحرية فعرفنا أنها أسماك قرش، وأردنا اصطياد بعضها، وفي وسط موقع الصيد هذا فوجئنا بحركة أسماك السردين الصغيرة (المنتوج)، وهي تطفو بشكل سريع وغريب على سطح البحر وكأن شيئًا يطاردها ما حدث لم يكن متوقعًا وكان أسوأ مما يحذر منه المتشائمون، لقد كان هذا الشيء حوتًا عملاقًا يعرف عندنا باسم (الشوحط)، ارتطم هذا الحوت بداية بأسفل السفينة، ثم رفع ذيله للأعلى ضاربًا به وسطها ليشقها نصفين، ولنتطاير نحن البحارة مع ألواحها وعتادها وعدتها وما فيها إلى البحر،

وعندما سقطنا للبحر جعل بعضنا من الخشب وبعض الأواني أداة للسباحة، وكنّا على بعد حوالي ١٥٠ ميلًا بحريًا من جزيرة سقطرى، وظللنا تارة نطفو مستسلمين للتيار وتارة نسبح حتى دخل الليل وكان الظلام موحشًا جدًا والخوف يحيط بنا من كل جانب، ومر الليل وكأنه دهر، ومع تباشير فجر اليوم الثاني بدأت قصة الرعب الحقيقية كنا قد انقسمنا على قسمين ثلاثة سبحوا في اتجاه وذهبوا ولم نرهم، وأربعة وكنت منهم سلكنا اتجاهًا آخر، وكنّا نطفو ونسبح بقرب بعض لم نكن نعلم أننا أصبحنا وجبة منتظرة وصيدًا سهلًا لأسماك القرش التي أردنا اصطيادها قبل ساعات، فجأة سمعنا صرخة مكتومة اختفت سريعًا وصوت حركة مياه لقد انقضت سمكة قرش على أحد رفاقنا ساحبة إياه إلى الأعماق، بقينا ثلاثة لم نكن نملك خيارًا إلا أن نسلم أمرنا لله وننتظر من منا سيكون الضحية التالية، اختفت سمكة القرش فترة ثم عادت لتكرر المشهد مع رفيق آخر الصرخة نفسها والصوت نفسه واختفى رفيقنا في ثوان لنبقى اثنين، كنا نجهل أنا ورفيقي من سيكون عليه الدور، لم تتأخر سمكة القرش كثيرًا هذه المرة أتت وانقضت على رفيقي وهو بجواري لتتركني وحيدًا فظللت أسبح وحدي بكل ما استطعت من قوة لعلي أبتعد عن هذه المنطقة الخطرة، كنت متيقنًا تقريبًا أنني سألقى مصير رفاقي، وأن موتي قادم لا محالة، فجأة سمعت من يناديني في أعماق البحر من أنت؟ إنه أحد رفاقي ممن ذهبوا في الاتجاه الآخر جرى بيننا حديث قصير عما جرى، ولم يكن يعلم أين ذهب رفيقاه، ظللنا نسبح ونطفو سويًا حتى وصلنا ليلًا إلى شاطئ جزيرة (درسة) المهجورة إحدى جزر أرخبيل سقطرى، فارتمينا على الشاطئ من غير وعي حتى أيقظتنا أشعة الشمس، في الجزيرة وجدنا رفيقينا الآخرين ولم نكن نتوقع أننا سنراهما، مكثنا في الجزيرة المهجورة ثلاثة أيام، كنّا نشرب خلالها من مكان مرتفع ماؤه أقل ملوحة، وكنّا نصطاد بعض الأسماك بوساطة الحبال الصغيرة التي كنّا نستخدمها كنطاق تمسك ملابسنا حول خصورنا، ولحسن الحظ وجدنا سنارة قديمة في أحد الكهوف واستخدمنا الطريقة البدائية لإشعال النار، بعد ثلاثة أيام من الصبر والعذاب سخّر الله لنا من ينقذنا، وكانت سفينة من قصيعر نوخذتها الوالد جمعان بن سبيع أتوا للصيد قبالة الجزيرة رأيناهم من بعيد ولم يرونا، وكي نلفت نظرهم ألقينا إلى البحر حجارة كبيرة من أعلى أحد جبال الجزيرة فالتفتوا وظنوا في البداية أننا من الجن لأنهم يعرفون أن لا أحد يمكنه البقاء في هذه الجزيرة المهجورة، لكنهم فيما بعد تعرفوا علينا، وكتب الله لنا أعمارًا جديدة بسببهم، الذين غابوا في هذه الحادثة ممن التهمتهم أسماك القرش كانوا من أسرة واحدة هي أسرة النوخذة ابن شونقا، وهم (سعيد سليمان عبدالله بن سمحان، ومحمد سالم محمد بن سمحان، وصالح ناصر محمد بن سمحان)، كانت مياه البحر وقتها هادئة ولم تنذر بأي خطر، لكن ليس هيجان البحر وحده ما يغيّب السفن والرجال، في هذا المعنى كنا نسمع أهزوجة يرددها بعض البحارة القدامى، تقول:

عوض يا عوض لا يغرك شوار البحر تحسبها سهيله
يا كم وكم من مراكب غرقتها غبب سيلان

لا يمكن حصر حكايات البحر فهي لا تعد ولا تنتهي حتى في زمننا هذا زمن الاتصالات والتطور الرهيب ما زالت هناك حكايات غامضة لم يكتب لها نهاية، لعل إحداها حكاية البحارة عوض مبروك باعباد، وحميد عوض بن ساحب، وسعد مسعود اليزيدي، وأحمد صالح اليزيدي، الذين اختطفوا على يد قراصنة صومال في أبريل ٢٠١٢م، وذهبوا إلى المجهول، وما زال انتظار أهلهم لهم طريًا لكن لا أحد بإمكانه أن يجزم بنهاية متوقعة لهذا الانتظار.

هذا أدب واقعي تسجله حركة الزمن والحياة، وقصص بعضها تبقى وتتوارث وتتناقل على الشفاه ربما بسبب أنها قاسية أو غريبة ومثيرة أو لها دلالات وعبر معينة، وبعضها يذهب وينسى مع الزمن، تظل أحداث هذه الحكايات شاهدة على زمانها، وهي في المحصلة تدل على حياة وبشر ومجتمع ينبض بالحركة، فوق أنها تدل على أن عمل البحر في ذلك الزمن كان أخطر مما قد يرى من بعيد.

الهوامش:

١) نقلًا عن كتاب من التراث المشقاصي، أحمد سعيد باعباد، من إصدارات مكتب وزارة الثقافة م حضرموت، ط١، ٢٠١٠م، ص ٨٣.

٢) من التراث المشقاصي، مصدر سابق، ص ١٠٤.

٣) من التراث المشقاصي، مصدر سابق، ص ١٠٧.

٤) نشرة شرق، صادرة عن نادي قصيعر، العدد (٣٦)، مارس ٢٠٠٧م ص ٨. بتصرف وإضافات يسيرة.

86
العدد (14)
أكتوبر
ديسمبر
2019م

أرضٌ بِلا ظِلال

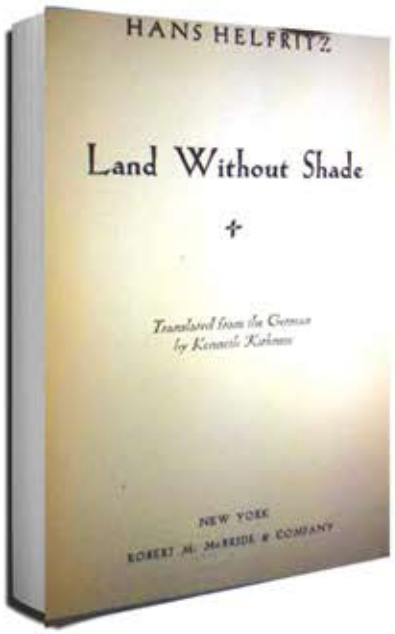

هانس هيلفريتس (Hans Hilfritz)

ترجمها من اللغة الألمانية إلى اللغة الإنجليزية
كينث كيركننز (Kenneth kirkness)

نيويورك

روبرت م. ماكبرايد

أرض بلا ظل
حقوق النشر هانز هيلفرتز ١٩٣٦م
طبع في الولايات المتحدة الأمريكية
النسخة الأولى

النسخة الألمانية لهذا الكتاب
نشرت في مدينة ليبزج (liepzig) في كتابين
الأول بعنوان (شيكاغو الصحراء)
والثاني بعنوان (أرض بلا ظلال)

ترجمة: د. خالد عوض بن مخاشن

قائمة المحتويات

- المقدمة.
- الكتاب الأول: شيكاغو الغرب.
- الفصل الأول: زيارة إلى سلطان المكلا.
- الفصل الثاني: تاريخ أرض مجهولة.
- الفصل الثالث: الروح الخيرة والشريرة.
- الفصل الرابع: طرق القوافل العتيقة.
- الفصل الخامس: في إقليم حضرموت.
- الفصل السادس: الموسيقى والرقص في الجنوب العربي.
- الفصل السابع: قصر الجن.
- الفصل الثامن: شيكاغو الصحراء.
- الفصل التاسع: في وادي دوعن.
- الفصل العاشر: في أوساط البدو السلابة.

المقدمة:

تعد الجزيرة العربية إحدى أهم المناطق التي ما تزال مجهولة في هذا العالم، وهذا أمر يثير العجب والاستغراب؛ كونها تقع على مقربة من قارة أوربا، وتمر بمحاذاة شواطئها أكثر الطرق البحرية استخدامًا، وأعظم من هذا كله أن الحضارات القديمة قد نشأت وازدهرت في الأرض العربية. ولذا فإن إماطة اللثام عن الكنوز المخفية لهذه الأرض لا يقل أهمية وتشويقًا عن الاستكشافات في مصر وبابل. هناك عاملان يؤكدان هذه الأهمية ويوضحان إلى حد ما لماذا بقيت شبه الجزيرة العربية أرضًا مجهولة؟

بعد المعارك الطاحنة التي اندلعت بين المسيحية من جهة وبين العالم الإسلامي العربي من جهة أخرى إبان الحروب الصليبية، اختفت شبه الجزيرة العربية من الأفق الأوربي، وغرق مهد الإسلام في بحور النسيان، وتم نسيان الأثر الإيجابي والمهم للثقافة العربية على التطور الروحي للعالم الغربي مع بدايات العصور الوسطى وبالتحديد أثناء حقبة الحرب.

لقد توقفت الجزيرة العربية نفسها، والتي كانت لها مكانة مرموقة في العالم لقرون عدَّة، عن صناعة تاريخ جديد، واختفت من المسرح العالمي وانزوت لتصبح جزءًا بعيدًا مهملًا من

الإمبراطورية العثمانية. كما نُسيت أيضًا المدينتان المقدستان (مكة والمدينة). ونادرًا ما كانت تصل أخبار هذه الأرض إلى أوربا. وفي أحسن الأحوال تذكر بعض الصحف -أحيانًا- أن السلطان العثماني العظيم عبدالحميد قد نفى مسئولًا ما بتعيينه في الجزيرة العربية أو أنه تم إرسال بعض الضباط الأتراك إلى اليمن وبخاصة من أولئك الذين تلقوا تدريبات عسكرية في ألمانيا، فيتم إرسالهم إلى ذلك المكان كي يُشفوا من مرض المطالبة بإصلاحات كتلك التي رأوها في أوربا.

لقد أفل نجم الجزيرة العربية وبهتت ألوانها، ولم يعد لها شأن بالأحداث التي تُثير اهتمام مناطق العالم الأخرى. فلم تفلح الأحداث المثيرة، مثل: بناء سكة حديد بغداد في الموصل، أو ما يجري في مصر من أحداث، في لفت انتباه العالم لشبه الجزيرة العربية التي كانت سابقًا تمثل أهمية كبرى للغرب.

أما السبب الثاني وراء عدم استكشاف الجزيرة العربية فيكمن في الصعوبات الجمة التي سوف يواجهها أيُّ مستكشف. بعض هذه الصعوبات يعود للطبيعة الجغرافية الصعبة للجزيرة العربية، فخلف الجبال الساحلية للجزيرة العربية توجد صحار عظيمة وسهول قاحلة جرداء. إن اجتياز هذه الأراضي القاحلة والتي غالبًا ما تمتد لمسافة تقدر ما بين أربعمائة إلى خمسمائة ميل يعد أمرًا في غاية الصعوبة ولا يمكن أن يتم من غير تعاون السكان هناك مع من يحاول القيام بتلك الاستكشاف أو في الأقل تقبلهم له.

إن عدم تقبل السكان المحليين للمستكشفين هي العقبة الكأداء. يستطيع الإنسان التغلب على قسوة الطبيعة كما فعل في رحلاته الاستكشافية في المناطق القطبية لكنه يقف عاجزًا أمام قسوة أخيه الإنسان.

إن العداء للأجانب في شبه الجزيرة العربية يمكن إرجاعه إلى سببين: الأول منهما يعود للأخلاقيات الاجتماعية لأمراء الصحراء، ألا وهم البدو. فهم لا يحترمون العهود الأخلاقية إلا تلك التي تعهدوا بها لقبائلهم، فكل من هو خارج رابطة الدم الضيقة فهو عدو بالنسبة لهم، ولذا فإن السلب والعنف ضد أفراد القبائل الأخرى ليس فقط مسموحًا به وإنما أيضًا يعد قاعدة راسخة يقرها الجميع ومبدأ أساسيًا في معركة البقاء.

إن قانون الصحراء هذا ينطبق على الأجنبي أيضًا ويعاني منه أكثر من غيره فليس له قبيلة توفر له الحماية.

كما أن كره الإنسان العربي للأجنبي له سبب آخر وهو سبب ديني، ونتيجة لكل هذه الأسباب فإن من استطاع التغلغل في أعماق الجزيرة العربية هم قلة من المستكشفين الأوائل الشجعان، لكن تبقى مئات الآلاف من الأميال المربعة في شبه الجزيرة العربية غير مستكشفة إلى يومنا هذا.

لكن بدأت تظهر بعض التعبيرات في شبه الجزيرة العربية ببداية عصر جديد في تاريخ العالم والذي بدأ باغتيال الدوق في سراييفو، فللمرة الأولى منذ الحروب الصليبية تتقاتل الجيوش الأوربية في ساحات الأرض العربية وميادينها، وصارت على اتصال بالمشرق العربي، والأهم من هذا أن الجزيرة العربية فجأة عادت لتحتل مكانة في التاريخ العالمي. من جحيم الحرب العالمية نهضت الجزيرة العربية تاركة آلامها وأحزانها لتدخل في مرحلة من التطور لا نهاية منظورة لها. لقد انكسر حاجز الصمت المطبق عليها وشرعت الصحف والدوريات في العالم تكتب تقارير متكاملة وعلى نحو متنظم عن أهمية الجزيرة العربية.

لقد أصبح من الواضح جدًا أن هذه النهضة العربية جعلت الشعوب العربية تستعيد قوتها من جديد بعد مدة ليست بالقصيرة من التراخي والخمول.

في نهاية القرن الثالث عشر بدأ يزداد عدد قاطني الصحارى والسهول بعد أن قلت أعدادهم نظرًا للفتوحات التي تمت في عهد الخلفاء الأوائل، وبعد إزاحة النقاب عن هذه البقعة من العالم، وبعد أن استعاد المشرق مكانته، ظهر للعيان أن في المنطقة العربية أناسًا لهم من القوة ما يمكنهم بالمطالبة بحقهم في الوجود.

شهد العالم العربي أيضًا انبعاثًا جديدًا فبعد سقوط الخلافة العثمانية انكفأت تركيا على نفسها، ووجد العرب لأنفسهم متنفسًا وحياة جديدة فأصبح ابن سعود -حاكم وسط الجزيرة- بطلًا جديدًا يُحتذى به. وبينما صار الفصل بين الدين والسياسة السمة السائدة في كثير من مناطق العالم، أصبح ارتباط الدين بالحياة والسياسة في الدول التي تتشكل في الجزيرة العربية قويًا جدًا، وصار الدين أكثر قوة من ذي قبل في حياة المجتمع، وأصبح الأساس الذي تبنى عليه الدولة.

يصف هذا الكتاب جنوب الجزيرة العربية التي حباها الله بهبات طبيعية وتاريخية مميزة أنها الأرض التي قيل لنا: إنه أتى منها ملوك الشرق الثلاثة ليحيّوا المسيح عند ولادته، وهي أيضًا الأرض التي حكمت فيها ملكة سبأ. مرت أزمنة عدَّة لم يُعرف إلا القليل عن هذه الأرض. لقد توارت خلف سحب الأساطير والقصص الخرافية حتى ثمانينيات القرن الماضي حين قام الرحالة الألماني إدوارد جلاسر Edward Glaser بزيارة اليمن، الجزء الأساسي في جنوب الجزيرة العربية، وقام بجمع أعداد كبيرة من النقوش القديمة. حينئذ أدركنا أن قصص الإنجيل الغريبة بنيت على حقائق، وأدركنا أن ممالك قوية قامت هناك، وأن حضارة راقية جدًا بناها السبئيون وأحفادهم في هذا الجزء من الجزيرة العربية.

تبقى النقوش أهم ما تم اكتشافه حتى الآن، لكن ما زال الظلام يلف الأحداث القديمة في هذا البلد، وفي انتظار من يستطيع تبديده.

إلى يومنا هذا ما تزال اليمن أرضًا مؤصدة أبوابها في وجوه الغرباء. يحكم اليمن حاكم ديني وهو الإمام يحيى، ينحدر في نسبه من أحفاد الرسول. لا يثق إطلاقًا في المسيحيين، ومصمِّم على حماية مملكته من أي تأثير غربي، ويمنع دخول الأجانب للبلد إلا بموافقة منه شخصيًا حين يرى أن هناك دواعي دبلوماسية أو اقتصادية. الشخص الذي يحظى بموافقة من الإمام بالدخول ليس له كامل الحرية في التحرك إلى أي مكان يريد، فالطريق الذي سيسلكه والمكان الذي سيقصده، يتم تحديده بدقة متناهية، ويبقى ذلك الشخص تحت المراقبة طوال الوقت. فمثلًا يسمح الإمام فقط للمهندسين بالتحرك إلى العاصمة صنعاء لكن باقي مناطق المملكة تبقى محرمة على الأجنبي. هناك أجزاء من اليمن لم تستكشف مطلقًا، ويعتقد بأنها تحوي آثارًا تعود لتلك الحضارات القديمة.

تلقى محاولات الإمام الإبقاء على أبواب اليمن مؤصدة ومعزولًا عن الخارج، دعمًا من مجتمع عدائي، يغذي عدوانيته تعصب ديني.

يبقى استكشاف اليمن المجهول وماضيه الغني هدف مُغْرٍ للباحثين والمستكشفين. فالكثير من المحاولات الأولية لاستكشاف اليمن عادوا بخُفَيْ حنين، وتعرض البعض ممن غامروا لإنجاز هذه المهمة لمخاطر جمة.

إن شجاعة هانز هيلفيرتز وإصراره مكّناه من اختراق كل تلك الحواجز والتغلغل إلى أعماق البلد المحرمة. بدأ هيلفيرتز رحلاته من مصر، ثم زار فلسطين وبلاد الرافدين، والتي فيه تعلم اللغة العربية والعادات العربية، بعد ذلك نجح في نسج علاقات طيبة مع سلطان عربي يحكم منطقة تقع في الجنوب الشرقي من شبه الجزيرة العربية، فمكنته هذه الصداقة من زيارة المكلا الواقعة على شواطئ المحيط الهندي، ومن المكلا غامر ضيف السلطان هانز هيلفيرتز في الانطلاق تجاه حضرموت، وهي أرض تقع مباشرة خلف الجبال الساحلية، وتمتد إلى حدود بلاد اليمن.

أول ما اكتشفه هيلفيرتز في جنوب الجزيرة العربية هو مدن ناطحات السحاب العتيقة، وهي موضوع الجزء الأول من هذا الكتاب، والذي يحمل عنوان (شيكاغو الصحراء). نجح خلال المدة التي قضاها في ربوع حضرموت في اكتساب خبرات وصداقات مكنته كثيرًا من إنجاز مهامه اللاحقة والأكثر أهمية.

داجوبريت فون ميكوسيش
Dagobert Von Mikusch

الكتاب الأول

شيكاغو الصحراء

زيارة سلطان المكلا:

يصف هذا الكتاب إحدى آخر ثقافات العالم المحيّرة للعقول، إنها ثقافة لم تتأثر بالمد الحضاري الغربي المتصاعد. يأخذ هذا الكتاب القارئ إلى أرض أسطورية عجيبة في جنوب شبه جزيرة العرب، تحيط بها صحاري مترامية الأطراف.

هذا الكتاب يدوّن تجارب رحلة تم خلالها زيارة قبائل بدوية شرسة، وسلاطين وأسر عربية نبيلة، وأناس لا يعرف الأمريكيون ولا الأوربيون عنهم إلا القليل، أناس لهم سبل حياة مختلفة تمامًا عن تلك السائدة فيما يسمى بالعالم المتحضر، أناس لهم ثقافة لا تقل ثراء عن ثقافات الهند والشرق الأقصى. نُخطئ إذا تخيلنا أننا قد صرنا نعرف كل أصقاع الأرض، وأنه لم يعد هناك مكان في الأرض في حاجة إلى الاستكشاف سوى قطبي الكرة الأرضية والصحاري الموحشة غير السالكة، وغابات سيبيريا، وأمريكا الجنوبية. إن الجزيرة العربية، التي هي أكبر من ولاية نيويورك بسبعة وعشرين مرة، بها مئات آلاف الأميال المربعة

من الأراضي غير المستكشفة حتى الآن. ما تزال الجزيرة العربية، وبخاصة جنوب الجزيرة العربية والمعروفة تاريخيًا منذ ما يزيد عن ثلاثة آلاف سنة، مجهولة وغير مستكشفة، أرض مُحرّم دخولها، وتعيش حالة أشبه بتلك التي سادت خلال العصور الوسطى. أرض تعيش حضارة يلفها الغموض تعود إلى عهود سبأ العتيدة.

اكتشفت في الصحاري العظيمة والبعيدة رسوم لحيوانات نحتت في الصخور، ورأيت تماثيل مهداة إلى إله القمر سين، ولشدة دهشتي اكتشفت أشكالًا قديمة للصليب، لها خصائص الصلبان نفسها التي كثيرًا ما يراها المرء في المشرق. صلبان مشابهة لهذه الصلبان اكتشفت أيضًا في الصحراء الليبية المعزولة، وفي ذلك المكان من شمال إفريقيا حيث يقطن الطوارق أعداء المسيحيين.

ليست الجزيرة العربية وحدها لغزًا محيرًا بل الناس هناك بحد ذاتهم لغز كبير أيضًا، فهم متشبثون بتراثهم ونمط حياتهم الممتد من الماضي السحيق إلى يومنا هذا، والذي لم يطرأ عليه أي تغيير. ما تزال جمالهم تسلك طرق القوافل التي أبلاها الدهر، والتي سلكها من قبلهم بالتناوب السبئيون، والتجار الرومان والأحباش، وجحافل البدو.

إن أكثر مناطق الجزيرة العربية غموضًا هو جنوبها، فهو صامد في وجه أي تأثير أجنبي، ويقاوم بعناد شديد أي تغلغل أوربي فيه. هذه المقاومة لها ما يبررها سياسيًا، فجنوب الجزيرة العربية ليست أرضًا موحدة، ففيه مملكة وسلطنات ودول عدة صغيرة، دول أجهلها أنا ويجهلها الكثير مثلي.

الجزء الأول من كتابي يتعلق بجزء من هذا البلد يسمى حضرموت، والتي فيها المدن ذات البنايات الشاهقة، إنها شيكاغو الصحراء.

بمحض الصدفة تعرفت على السلطان عمر بن عوض القعيطي سلطان إحدى تلك الدول الصغيرة، والتي بها مدن تطل على المحيط الهندي، مثل مدينة المكلا، ومدينة الشحر. لقد كان ذلك في يوليو ١٩٣١م، فقد كنت حينها في برلين في وزارة الخارجية أبحث عن معلومات حول أحوال جنوب الجزيرة العربية، فقيل لي إن سلطان المكلا يقوم في هذه الأثناء بزيارة أوربية، وأنه يمكث لأيام قلائل في فندق أدلون Adlon، قيل لي: "اذهب وقابل السلطان؛ فهو قادر على أن يعطيك معلومات أكثر من ما يمكن أن تحصل عليه منّا".

استقبلني السلطان ورحب بي وأبدى اهتمامًا بما لديّ من خطط، وقدم لي ولصديقي جان بومورسكي Jan Pomorski دعوة لزيارة دولته. كانت زيارتي للجنوب العربي جيدة منذ انطلاقها. وعلى الرغم من أنه لم يكن لديّ ترخيص رسمي بعبور مناطق دول الجنوب العربي المستقلة، فإنني كنت أعلم بأن السلطان على اتصال مباشر بحكام تلك الدول، وأنه بمقدوره أن يساعدني.

لقائي الثاني بالسلطان كان في عدن، شبه جزيرة تقع على المحيط الهندي وتتبع الإمبراطورية البريطانية. أبحرنا من عدن إلى المكلا على متن سفينة بخارية صغيرة، يملكها تاجر محترم من الهنود البارسي، يدعى كواسجي دينشاو Cowasjee Dinshaw. يمتلك هذا التاجر الهندي وحده النقل البحري بين عدن وميناء المكلا وميناء الشحر وأرض الصومال والموانئ الصغيرة المنتشرة على امتداد شرق أفريقيا إلى جزيرة زنجبار. بعدن جالية كاملة من التجار الهنود، فكون عدن منطقة حرة، صارت تستهوي التجار والمستثمرين من كل مكان. يعد البعض عدن واحدة من أشد مناطق العالم حرارة، لكني لا أتفق مع هذا الرأي فموانئ البحر الأحمر، حيث الجو المشبع بالرطوبة التي يصعب تحملها، أشد حرارة من عدن، إضافة إلى أن عدن تهب عليها نسمات منعشة تكاد تخلو من الرطوبة والجو فيها صحي ولا تنتشر بها الأوبئة كالملاريا.

عدن كبومبي بها أبراج الصمت وأبراج الموت حيث يترك الهنود البارسي (هنود من أصول فارسية) جثث موتاهم للنسور كي تلتهمها. المسافر إلى الشرق الأقصى، الذي يزور عدن لمدة قصيرة يصعب عليه أن يلاحظ هذه الأبراج. أحد هذه الأبراج تحرسه كلاب شرسة، ويقع في أعلى الجبل على حافة فوهة البركان، وفي وسط هذه الفوهة تقبع هذه المدينة العربية. عندما يموت أحد الهنود البارسي تُحمل جنازته وتوضع أسفل ذلك الجبل ويُطلق كلبان أحدهما أبيض اللون والآخر أسود، فإذا وصل الكلب الأبيض إلى الجثة قبل الأسود، فإن

روح هذا الميت ستذهب إلى السماء. أما إذا سبقه إليها الكلب الأسود، فإن روحه ستذهب إلى مكان آخر.

تحيط بالمدينة الجبال، وبها فجوة تُظهر السماء وتربط بين المدينة وميناءها الذي يرسو فيه قاربنا الصغير (فيلهو Veho). عند وصولنا إلى الميناء كانت أمتعة السلطان تنقل إلى القارب تحت إشراف أحد خدمه الهنود. تلك الأمتعة كانت في صناديق ورزم وسيارة جديدة. كان المسافرون قد اعتلوا متن المركب وهم مجاميع من العرب، البعض منهم أثرياء جدًا. لقد كانوا مصدر إعاقة مستمرة لعملية نقل البضائع والأمتعة. يجلسون على سطح القارب، وفي الغرف السفلية وفي أي مكان يجدون فيه فراغًا حاملين أمتعتهم معهم، كانوا كثيرًا ما يطلبون مياه الشرب والنار. سطح المركب المخصص للركاب من الدرجة الأولى كان مقسمًا على جزئين، تفصلهما قطعة من قماش الشراع. الجزء الأول حجز للسلطان، والثاني كان لنا، أما غرف المركب فلم نرغب بها في ظل هذا الجو المداري الحار. في الواقع شعرنا براحة تامة على سطح المركب؛ فقد كان لدى السلطان أريكة مغطاة بالحرير ونحن لدينا أسرة سفر.

أتى السلطان إلى القارب باكرًا في صباح الأول من أكتوبر، أما نحن فقد كنّا موجودين بالقارب من الليل، ثم بدأت رحلتنا إلى المكلا المتوقع وصولنا إليها بعد يومين. لقد أبحرنا بمحاذاة السواحل الصخرية لجنوب شبه الجزيرة العربية، ومررنا برأس الكلب (جزيرة تأوي إليها الطيور)، لم أشاهدها قط على كل الخرائط التي اطلعت عليها، بعد ذلك رسى قاربنا قبالة بيوت ونخيل بروم لنصل بعد ذلك إلى المكلا في صبيحة ثالث أيام رحلتنا.

المكلا مدينة تتلألأ بياضًا، مدينة ذات جمال استثنائي، لها قصور لا تعد ولا تحصى، وأبراج شاهقة. تقع هذه المدينة الجميلة على خليج رائع يمتد بمحاذاة الجروف السوداء لجبل القارة. إنها حقًا بوابة حضرموت.

لقد كان ذلك اليوم يومًا مشهودًا من أيام المكلا، فقد عاد إلى المدينة سلطانها بعد غياب طويل، ونحن الآن في ضيافته. حتى هذه اللحظة ما زلنا على متن المركب الذي يتأهب لإلقاء مرساه في ميناء المكلا المشمس. اقتربت من السفينة هواري زوارق صغيرة ملأى بأشكال مفزعة وهمجية، وأخذوا يتسلقون المركب كالقرود، وبدأوا يحيون السلطان بأصوات عالية مزعجة، وكان السلطان في تلك اللحظة يستقبل أبناءه ووزراءه على الجسر. ثم انتقلنا إلى مركب صغير به محرك وبه الكثير من الخرق والسجاد واتجهنا نحو الساحل. احتشدت جموع غفيرة من الناس على الرصيف، معظمهم من البدو أشباه العراة وسكان المناطق الجبلية، ولهؤلاء الرجال شعر طويل خشن وألوان جلودهم سوداء فهم يشبهون قطاع الطرق. لقد كان الجنود في هذه الأثناء يحاولون إيقافهم وتنظيمهم. يحمل كل رجل من هؤلاء ممن تخطى عمره السادسة عشرة خنجرًا مرصعًا على خصره. أذهلتنا تمامًا المشاهد الأولى من ذلك المنظر المثير واللقاء المفاجئ بتلك الحشود المتوحشة الهمجية لدرجة أننا ترددنا في التقدم تجاههم.

بدأ حفل الترحيب بالسلطان. فقد كانت هناك فرقة نحاسية تعزف بعض المقطوعات الموسيقية (معظمها معزوفات عسكرية تركية). تتكون الفرقة من موسيقيين يرتدون عمائم حمراء ولباسًا رسميًا باللون الأحمر والأزرق. بعد ذلك قام السلطان بتفقد حرس الشرف، وكان به عدد من الجنود الزنوج الذين ينتمون لمجموعة الجنود العبيد في جيش السلطان، والبالغ عددهم حوالي خمسمائة جندي.

ما يزال امتلاك العبيد وشراؤهم ذكورًا وإناثًا معمولًا به في المناطق الساحلية من شبه الجزيرة العربية لذا توجد أعداد كبيرة من ذوي الأصول الأفريقية في أوساط سكان المدن الساحلية في اليمن والحجاز. تراقب الدوريات البريطانية البحرية تجار الرقيق، وتُعطي جوائز ثمينة للدوريات التي تضبط السفن التجارية التي تنقل العبيد، ولكن التجار العرب لا يأبهون ولا تعوقهم هذه الإجراءات فهم مستمرون في جلب هذه القطعان السوداء المربحة، ويسلكون بهم طرقًا ملتوية حتى يوصلوهم إلى الساحل بأمان. يفضل العرب الإبحار بالعبيد تجاه السواحل العربية في أوقات اشتداد العواصف البحرية التي تبدأ بنهاية فصل الخريف وإذا شاهدوا أي مركب تابع

للدوريات البحرية، قاموا برمي من على مراكبهم من العبيد إلى البحر تاركيهم تحت رحمة حيتان القرش. وفي بعض الأوقات حين يتم القبض على سفينة محملة بالعبيد يكون من المستحيل إعادتهم إلى قبائلهم وقراهم فليس لهؤلاء المساكين أدنى فكرة أو معلومة عن أماكنهم أو قراهم.

أسعار العبيد تتراوح ما بين ٥٥.١٢. إلى ٢٠٠,٠٠. ريال نمساوي أو دولار ماريا تريزا. يصل سعر العبد الصومالي والحبشي إلى ١٢٥,٠٠، أما العبد النوبي فهو المفضل في السوق؛ إذ يصل سعره إلى ١٩٥,٠٠.. وبشكل عام فإن العبد يعامل معاملة حسنة؛ حيث يطعم ويكسى مقابل العمل لدى سيده. وفي بعض الحالات وصل العبيد إلى مراكز راقية وحازوا شرفًا عظيمًا، فصار بعضهم مستشارين لأسيادهم ووزراء لدى سلاطينهم وأُعطُوا سلطة جعلتهم يأتمرون على من هم أحرار.

حفل المكلا يتواصل وها هم الأمراء والسادة والوزراء يحيون السلطان للمرة الثانية، ولكن هذه المرة أمام أنظار الحشود. يحيي سكان الجنوب العربي بعضهم بعضًا بطريقة عجيبة؛ حيث يتقدم أحدهم نحو الآخر وينحنيان ويدنو كل واحد برأسه نحو الآخر ثم يتصافحان ويشم كل واحد منهم يد الآخر على نحو مسموع.

يعود هذا العرف لاعتقاد سائد بأن روائح مقدسة تنبعث من أيادي السادة المنحدرين من نسل الرسول. وحين وصل الموكب الاحتفالي إلى داخل المدينة أطلقت النساء من أسطح المنازل زغاريد بأصوات عالية وحادة شبيهة بتلك الزغاريد التي تسمع في مناسبات الزواج والمناسبات الاحتفالية الأخرى في مناطق شبه الجزيرة العربية كافة. الحشود تحتفل وترحب بسلطانها السلطان عمر بن عوض القعيطي، وها هو السلطان الآن في مقدمة الموكب الاحتفالي البهيج يشق طريقه عبر الأزقة الضيقة متجهًا إلى قصره.

القصر بُني بالقرب من البحر وعلى النمط المعماري الهندي، وقام السلطان بنفسه برسم تصاميم بنائه. صالة استقبال الضيوف مؤثثة بسجاد ثمين، وبها كراسي لجلوس الضيوف على الطريقة الأوربية، ولكن الضيوف يفضلون الجلوس على الأرض بدلًا من الجلوس على هذه الكراسي. وعلى حصيرة من القش أو خوص النخيل وجدنا جبالًا حقيقية من الأرز واللحم والدجاج والسمك وأقراص الخبز الرهيفة. جلس السلطان في مكانه في وسط الطاولة قبل أن يدخل بقية الضيوف إلى الغرفة ثم دعانا للجلوس في أماكن كبار الضيوف بجانبه وقام هو بنفسه بتوزيع اللحم على أطباق الضيوف. لا توجد سكاكين ولا شوك والأكل يتم باستخدام اليد اليمنى. عليك أن تطور مهارتك في تكوير كرات صغيرة من الأرز الحار جدًا، وإذا أنت ماهر في هذا ربما تنجح من غير أن تحرق أصابعك. لا يُعطى وقت كافٍ للأكل؛ فالعرب معروفون بالتهام كميات هائلة من الطعام في أقصر وقت، وبعد مرور وقت قصير من بداية الأكل نهض السلطان وانتهى وقت الأكل وقام الكل، حينها رمى الخدم -وهم كثر- بأنفسهم على الأرض وأخذوا يفترسون ما بقي من الطعام كالذئاب.

أعطانا السلطان قصرًا كاملًا كبيرًا وجميلًا أبيض كقصور قصص ألف ليلة وليلة، يقع في وسط بستان من أشجار النخيل والموز، وزيادة على هذا أعطانا خدمًا وحراسًا إنه فعلًا سلطان اسم على مسمى لم يتخلّ عن ضيفه. كان الحراس في بوابة القصر وفي مداخله يرفعون لنا التحية كلما مررنا بالقرب منهم. كان أيضًا يرافقنا الحراس في جولاتنا لأن الناس هناك -عدا السلطان وقلة آخرين- لم يروا أوربيين من قبل وكلّما شاهدونا في الشوارع أبدوا فضولًا واهتمامًا كبيرين بنا بما قد يتسبب في خلق مواقف محرجة لنا بغير وجود هؤلاء المرافقون.

أمضينا أسبوعًا كاملًا في المدينة نترفه ونذهب إلى الولائم، أما زيارات الأمراء والوزراء والسادة فلم تتوقف. في الجنوب العربي يطلق على رجال الأسر المنحدرة من نسل الرسول بالسادة أو الأشراف، ومن هذه الأسر أسرة السيد الكاف التي تعد أعظم أسرة وأغناها في الجنوب العربي، إنهم الحكام الحقيقيون لحضرموت، لهم استثمارات ومصالح تجارية ضخمة في سنغافورا وجاوة، ولهم قصور ضخمة في المكلا والشحر، ومن تريم عاصمة منطقتهم يحكمون أكبر القبائل البدوية وأهمّها، فهم وحدهم من يستطيع إدخالنا إلى المناطق الداخلية المعزولة التي يحدونا أمل ضعيف بزيارتها.

الشحر ومهريتها

مناقشة نقدية لما جاء في كتاب (تاريخ المهرة) للجدحي

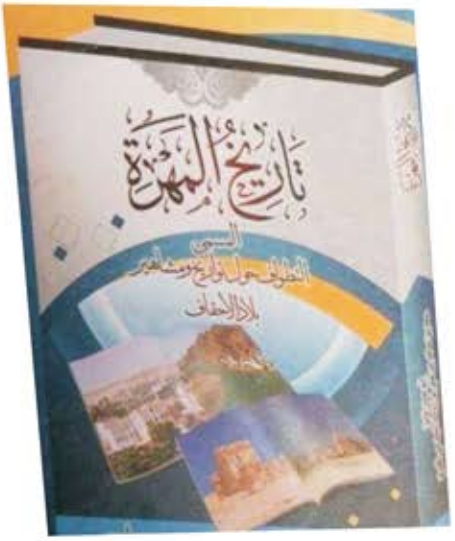

صدر مؤخراً عن دار المستقبل كتاب بعنوان (تاريخ المهرة المسمى التطواف حول تواريخ ومشاهير بلاد الأحقاف) للكاتب سعد بن سالم بن علي الجدحي المهري. وهو كتاب من القطع الكبير ويحتوي على (٤٧٢ صفحة)، وتولى تمويل طباعته الشيخ محمد بن مسلم بن البرك الجدحي المهري، وتميز الكتاب بطباعته الأنيقة التي حوتها دفتا الكتاب المجلد.

ويحتوي الكتاب على مقدمة، وثلاثة أبواب، وضم كل باب ما بين ستة إلى ثمانية فصول. ثم الخاتمة وأخيراً فهرس المحتويات.

تناول الكتاب تاريخ المهرة، وبعض مشاهيره منذ ما قبل الإسلام وحقبة طويلة من التاريخ الوسيط تمتد إلى القرن ١٠ هـ، ثم أحداثًا متفرقة تمتد حتى القرن ١٣ هـ.

عيضه حسن العامري

إن ملاحظاتي على ما ورد في الكتاب لا تشمل جميعه، بقدر ما تنحصر في القسم المتعلق بصلة شحر حضرموت بالمهرة. وتقوم الأفكار الأساسية عند الكاتب بالنظر إلى شحر حضرموت بوصفها بلاد عاد الأولى التي ورثتها مهرة القضاعية (٢٣/ ١٩)، وأنها كانت جزءًا من أرض مهرة (٢٣/ ٥٩) وهو يطابق بينها وبين الأسعى، ويورد بأن أبا ثور المهري هو مؤسس مدينة الشحر (الأسعى)، وإن سكانها الأوائل هم جيل من الشحرا من مهرة (٢٣/ ٥٢)، وأنها كانت قصبة أرض المهرة، أي (مركزها) (٢٣/ ٥٣)، ويرى بأن ذكرها بين عُمان وحضرموت عند البعض دليل على أنها لم تكن من حضرموت (٢٣/ ٥٩). وجاء عنده بأن المهرة كانت ذات سطوة على هذه المدينة وهي حدودها؛ وكأن الساحل الممتد من الشحر شرقًا حتى أقصى حضرموت هي جزء من المهرة التاريخية. ويرى بأن دولة آل فارس (آل إقبال) كانت أحد أشكال تأكيد الوجود المهري في الشحر (٢٣/ ١٤٧)، وأن ما قام به أبو دجانة في وقت لاحق ما هو إلا استعادة لملك الأجداد (٢٣/ ١٥١). ويستفاد كذلك من عموم حديثه كأن آل كثير كانوا قد أسسوا للحظة فارقة في تاريخها وهويتها.

الشحر بين فهم الكاتب وحقيقة وجودها الجغرافي والتاريخي:

إن القارئ لما جاء في الكتاب يكتشف منذ القراءة الأولى أن صاحبه قد خلط بين الشحر الواردة في تلك المصادر التي ضمنها كتابه، وبين الشحر التي عناها في كتابه وهي شحر حضرموت. فالشحر الواردة في تلك المصادر هي شحر (ظفار) (٢٦/ ٩٣)؛ والشحر في الأصل كانت اسمًا لمدينة واسمًا للناحية التابعة لها (٢/ ٩٠، ٨ج ٥/ ١٦)، وجاء تسميتها بشحر عمان نظرًا لقربها من عمان (٢٥ ج٤/ ٢٨٨، ١٩/ ٣٣٨)، أو بشحر مهرة بوصفها بلاد مهرة (٥/ ٢٦٦)، أو ببلاد مهرة فقط (٣٢ ج١/ ٢٢٣، ٧/ ٨٦)، وتبعًا لذلك جاء وصف الشحر المدينة بأنها قصبة المهرة (٦/ ١٥٤) -أي مركز الناحية-، وجاء تسميتها كذلك بالشحر من غير إضافة (١١/ ٦٥).

الشحر قديماً

ومن حيث موقع تلك الشحر فمن المصادر من حددتها تحديداً عامًا، كالقول بأنها ناحية بين عدن وعمان (١٦/ ٤٧)، أو أرض مطلة على البحر بين عمان وحضرموت، وهو ما تمسك به الكاتب نقلًا عن الإمام ابن كثير (٢٣/ ٥٩)، ومن المصادر من حددتها تحديداً دقيقًا بالقول بأنها ناحية تقع في أقصى بلاد اليمن (شرقًا) مجاورة لبلاد عمان (١٥ ج١/ ٤٢٣، ج٤/ ٢٢٠٦)؛ وأقصى بلاد اليمن وقتئذٍ هو رأس الجمجمة البحري الذي يبدأ عنده بحر اليمن من الشرق كما حدده جغرافيو ذلك الزمن من التاريخ الوسيط (١٢/ ٣٠، ١٤ ج١/ ١٧٧)، وهذا الرأس هو رأس مدركة في عرفنا اليوم على أغلب الظن (انظر *)، وأول ناحية لبلاد اليمن عنده كانت الشحر (أي ظفار الحالية) (٢/ ٩٠، ١٤ ج١/ ١١٧).

والشحر في الأصل ناحية مستقلة؛ إذ كانت تدعى سأكلن قبل الإسلام (٢٠/ ٤٩) وقد جاء ذكرها كذلك في نقوش يزنية تعود للقرن ٤ و٥ بعد الميلاد بوصفها ناحية (بلاد) في مقابل ناحية أخرى اسمها مهرة، وسُمي سكان الأولى بقبائل (شعبن) سأكلن (٢١/ ١٦٣)، فيما سمي سكان الثانية بقبائل مهرة (٢١/ ١٥٠). ثم سميت بالشحر، ثم غلب اسم ظفار المدينة على الناحية، وهي اليوم ولاية من ولايات سلطنة عمان ولسكانها لهجة محلية خاصة على شاكلة اللهجة المهرية، تسمى الشحرية وهي غير المهرية.

وكان قد غلب اسم الشحر (ظفار) على ناحية مهرة عند البعض (١١/ ١٩٢)، وغلبت تسمية مهرة على ناحية الشحر عند البعض الآخر (٦/ ١٥٤)، مع غلبة تسمية مهرة بمعنى قوم على أهل الشحر (١٤ ج١/ ١١٧) وذلك بتأثير مرويات الأنساب التي تحولت إلى مادة مدونة في الثقافة العربية منذ أواخر القرن ٢هـ (١٠/ ٣٠٠، ٤/ ٨)، وسميت ناحيتهم تبعًا لذلك عند بعض الجغرافيين والمؤرخين بشحر مهرة أو ببلاد مهرة فقط (١٢/ ٤٦)، مع إنها ناحية ومجتمع مستقل. وكانت ظفار (الشحر) قد حظيت بذكرها في المصادر المحلية منذ أواخر القرن ٦هـ (١/ ٢٨٦، ١٨/ ٤٩١)، وهو ذكر يفيد بأنها كانت ناحية ومجتمعًا له سياقه التاريخي الخاص بوصفهم ظفاريين. كما جاء ذلك التمييز بين الناحيتين عند بعض مؤلفي العصر الوسيط (١٣/...، ٣٢ ج١/ ٢٢٣، ٨ ج٣/ ٢٤٧).

وقد ارتبط اسم تلك الشحر باللبان (الكندر) سواءً من حيث كثرة وجوده في الناحية، أو من حيث كثرة إنتاجه بغرض التصدير، حتى عند من ذكروا الشحر من غير إضافة كابن خرداذبة (ت ٢٨٠هـ)، أو الإدريسي (ت ٥٦٠هـ) لم يفتهم ذكر الصفة التي لازمت الناحية. فقد وصفها المقدسي بأنها البلد الذي يوجد به اللبان (٧/ ٨٦)، وزاد عليه ابن حوقل بالقول بأنها مصدر اللبان الذي يستخدم في الآفاق (١٢/ ٤٤)، ووصفها الإدريسي بأنها البلد الذي يتجهز منه اللبان إلى جميع المشارق والمغارب (٦/ ٥٦)، وجاء في (معجم البلدان) بأنها منبت اللبان الذي لا يوجد في غير مرتفعاتها وهو غلة سلطانها (٣٣ ج٤/ ٦٠)، وغيرهم ممن خصوا ظفار بمثل ذلك الذكر. ومنه ما كان يصدر مؤخرًا إلى الهند حيث كان يستخدم في المعابد الهندية، وكانوا يحصلون مقابل ذلك من الهند على الأرز والأقمشة والبن والطيب (٣٠ ج٢/ ٢٠١).

وهي شهرة عرفت بها المنطقة (ظفار) منذ ما قبل الإسلام، إذ كانت هذه الناحية المنتج الرئيس لسلعة اللبان (الكندر) في مملكة حضرموت القديمة، حيث كان ينقل اللبان من موانئها خور روري إلى قنا، ثم إلى شبوة، ثم إلى المحطات التجارية الأخرى شمالًا (٢٠/ ٥٠، ١٧٦)، أو بحرًا تنقلها وسائل النقل البحرية. قال الشاعر:

اذهب إلى الشحر ودَعْ عمانا
إلا تجد تمرًا تجد لبانًا (١١/ ١٤٨)

وكان من أسباب اهتمام المؤرخين والجغرافيين بذكر شحر عمان، أو شحر مهرة، كونها بداية مدخل بلاد اليمن من الجهة الشرقية وقتئذٍ، ثم كونها أرض عاد (الأحقاف) الواردة في سورة الأحقاف، وقد جاء ذلك التفسير في

أمّات كتب المفسرين، وهو قول يعود إلى التابعي قتادة بن دعامة السدوسي (ت ١١٨هـ)، وهو من كبار المفسرين والمحدثين، وقد خالفه آخرون في فهم الآية حتى قال الطبري ليس العلم به (الأحقاف) أداء فرض، ولا في الجهل به تضييع واجب... وأين ما كانوا فإنهم قوم كانت منازلهم الرمال المستطيلة. (انظر تفسير سورة الأحقاف الآية ٢١ في تفسير الطبري).

أما شحر حضرموت فكانت أحدث عهدًا من شحر مهرة (ظفار)؛ وشحر مهرة وصفها المقدسي القرن ٤هـ بالمدينة (٧/ ٧٤)، ووصفها صاحب الروض المعطار (ت ٧٢٧هـ) بالمدينة الكبيرة (١٩/ ٣٣٩) فيما يعود ذكر شحر حضرموت على ما هو متوافر في المصادر المحلية إلى بداية القرن ٦هـ، وجاء على ذكرها ابن المجاور (ت ٦٩٠هـ) بالقول بأنها مرسى طيب من أعمال حضرموت (١٠/ ٢٩٨)، ووصفها الأنصاري (ت ٧٢٣هـ) بأنها فرضة حضرموت، وعدّها امتدادًا إقليميًا لشبام وتريم مدينتي الوادي وقتئذٍ (٣١/ ٢١٧)، ووصفها أبو الفداء (ت ٧٣٢هـ) بالبلد الصغير بين ظفار وعدن (٢٦/ ٨٤).

وكان الإدريسي منتصف القرن ٦هـ قد ذكر الأسعى وشرمة فقط وعدّهما مدينتين على ساحل حضرموت من غير أن يأتي على ذكر الشحر (٦/ ٥٥).

علمًا أن تاريخ شرمة حسب معطيات التنقيب الأثري يرجع إلى بداية القرن ١١م، أي أواخر القرن ٥هـ (**)، وتبعًا لذلك فإن ظهور الشحر يعود إلى ما بعد ذلك التاريخ، وهو ما يتفق مع السبر الأثري الذي تم في وسط تلة دار البياني في الشحر، الذي بين بأن أقدم طبقاته الأثرية تعود للقرن ١٢م (**).

كل ذلك يؤكد بأن شحر مهرة هي في الأصل بلاد ظفار لا غير، انظر (١٢/ ٤٤) وهي غير شحر حضرموت، وأن محاولة الربط بين المكانين هو من قبيل الإسقاط، وهو ينم عن خلل منهجي سواءً أكان عن قصد أم بغير قصد، وهو ما وقع فيه الكاتب، ومرجعه عدم تدقيقه في النصوص، وغياب الرؤية المنهجية في تحديد المفاهيم؛ لذلك جاء مفهوم الشحر عنده مضطربًا.

والشحر عمومًا اسمًا لأكثر من مكان، وإن لم يأتوا على ذكره، في مقابل الذكر الواسع لشحر مهرة أو شحر عُمان، وما هذه الإضافة إلا لتميزها عن أشحار أخرى على شاكلة شبام التي تحمل اسمًا لأكثر من بلد كشبام حضرموت، وشبام كوكبان وغيرهما. وهو أمر جاء على ذكره ياقوت الحموي في معجمه حين عد الشحر اسمًا يتناول مدنًا عدة لا مدينة واحدة (٣٣ ج٣/ ٣٢٧).

وعليه فلا معنى من القول بعد ذلك بأن شحر حضرموت هي حد مهرة كما ورد عند الكاتب. وهو وعي زائف مؤسس على ثقافة شفوية لا أساس لها من الصحة. وهو في الوقت ذاته تصويب لمن قال بأن قضاعة هي من كانت تسكن ساحل حضرموت الممتد من الشحر إلى ظفار، باعتبار أنها ناحية مهرة التي ذكرها صاحب أحسن التقاسيم (المقدسي) وهو تعيين غير دقيق (٢٩ ج١/ ١٤)؛ لأن ناحية الشحر (ناحية مهرة) التي قصدها المقدسي هي في شرق بلاد اليمن ومجاورة لعمان لا في وسط الساحل الجنوبي كما تم بيانه.

الأسعى وسوق الشحر القديم وعلاقته بشحر اليوم:

يعود أقدم ذكر للأسعى إلى نقش يزني يعود إلى بداية القرن ٦ للميلاد، تحدث فيه القيل اليزني السميفع أشوع عند مروره ومن معه بمنطقة الأسعى (٢١/ ١٦٠). ثم جاء ذكرها عند الهمداني (ت ٤هـ) بوصفها اسمًا عامًا لساحل حضرموت الذي عرفه كذلك بمخلاف الأسعى (٢/ ١٧١، ٣ج ٢/ ٣٤)، وهو من قبيل تغليب اسم المدينة الساحلية على عموم الساحل؛ كساحل عدن، أو ساحل أبين، وهو تقليد معروف عند الجغرافيين والمؤرخين في التاريخ الوسيط، ولم يرد عند الهمداني بأكثر من ذلك؛ إذ كان منهج الهمداني في الوصف هو ذكر تفاصيل التجمعات السكانية في

المخاليف والوديان، مع وصف لكل تجمع بقرية أو مدينة، أو بلد، وهو ما لم يفعله مع الأسعى؛ إذ اكتفى بذكره مخلافًا وساحل حضرموت من غير تفاصيل، باستثناء الحيق الجزء الشرقي من ساحل حضرموت، وبلدة الزاف التي حددها بأسفل حضرموت الساحل، وذكر كذلك المجموعات السكانية الساكنة بهما، وكانوا فروعًا عدَّة من قبيلة الصدف (حضارمة) (٣ ج٢/ ٣٣، ٣٤، ٣٧، ٣٨، ٣٩). حتى موضع أبي ثور المهري ورهطه وهم جماعة من بني تبالة بن شماسة كانت تسكن الأسعى، على شاكلة من كانوا يسكنون في مسفلة وادي حضرموت من مهرة، جاء بوصفه موضعًا على ساحل حضرموت (٢/ ١٧١) من غير تحديد منطقة بعينها. كما جاء وصف أبي ثور في مكان آخر بصاحب الأسعى، أي بالمعنى الواسع للأسعى (٣ ج١/ ١٩٠)، كأن تقول مثلًا: فلان بن فلان صاحب أبين؛ إذ يُستفاد من الحديث بأن فلان هو ساكن أبين، من غير تحديد منطقة بعينها، خصوصًا إذا ما أخذنا الأمر بمنهج الهمداني في الوصف. كما لا يُفهم كذلك من السياقات بأن أبا ثور كان متوليًا على مخلاف الأسعى كما قد يظن البعض، وهو أمر لا يتسق أصلًا مع الواقع التاريخي -الاجتماعي والسياسي وقتئذٍ-، إلا بوصفه زعيم مشيخة قبلية على شاكلة ما كان سائدًا في المنطقة (٢٤/ ٢٥، ٢٧). وكان ابن خرداذبة ت ٣هـ قد جاء على ذكر المنطقة (ساحل حضرموت) وعدها مخلافًا لكندة (١١/ ١٤٨).

وكان ذكر الأسعى بوصفها المدينة قد جاء عند عدد من جغرافيي العصر الوسيط ومؤرخيه، فقد ذكرها المسعودي (ت ٣٤٦هـ) بوصفها مدينة على ساحل حضرموت، وإن جاء الاسم مصحفًا عنده (الأحساء) (١٤ ج٢/ ١٧٣)، كما وردت عند المقدسي (ت ٣٧٦هـ) ولكنه أخطأ حين عدها وشرمة مدينتين من الساحل التهامي (٧/ ٧٤)، وجاء ذكرها عند الإدريسي (ت ٥٦٠هـ) بوصفها مدينة صغيرة على ساحل حضرموت إضافة إلى شرمة (٦/ ٥٥)، أما النويري (ت ٧٢٣هـ) فقد ذكر شرمة والأسعى بوصفهما اسمين لساحل بلاد حضرموت (٣٢ ج١/ ٢٢٣). واستمرت الأسعى تذكر في المصادر المحلية حتى أواخر القرن ٨هـ (١/ ١٤٨).

ومع ذلك ما يزال التعيين الدقيق لمكان المدينة غير ناجز. فهل كان موقعها في موقع الشحر الحالية؟ أو كانت بالقرب منها؟ أو بعيدة عنها؟ صحيح بأن هناك من المؤرخين من جعلوها اسمًا مرادفًا لشحرنا الحالية. ولكن حتى مثل ذلك القول لا يشكل جوابًا قاطعًا؛ إذ يطرح بدوره أسئلة أخرى تحتاج إلى أجوبة، وهو أمر يقع خارج مجال موضوعنا.

وعليه فالأسعى المدينة ليست ببلاد مهرة، وقد ذكرت قبل ٤ قرون من ذكر الهمداني لها. ومن ثم فلا قيمة لما نقله من أن أبا ثور هو مؤسس الأسعى؛ لأنها موجودة قبل وجوده بقرون. وقد أجمعت مؤلفات الجغرافيين والمؤرخين في التاريخ الوسيط بأنها من حضرموت لا غير. وربما يكون أبو ثور ورهطه ممن عاشوا في المدينة، ولكن هل كانت المدينة خاصة برهط أبي ثور فقط؟ أو كانت مدينة عامة سكنتها مجموعات قبلية أخرى لها زعاماتها لم يذكرهم الهمداني على شاكلة شبام وغيرها؟ (٢/ ١٦٩).

وفي كلا الأحوال فلا ينبغي تحميل المشهد التاريخي بأكثر مما يحتمل. فوجود مجموعات من قبائل مهرة تسكن حضرموت أمر طبيعي، فرضته شروط الجيرة ونمط الحياة الاقتصادي والاجتماعي السائدة وقتئذٍ، بوصفه شكلًا من أشكال التعايش بين الجماعات القبلية المتجاورة، وهو تعايش ترتب عليه تمهر بعض المجموعات القبلية الحضرمية (٣ ج٢/ ٣٩) والعكس، أي تحضرم مجموعات قبلية مهرية؛ ومنها الثعين، بنو تبالة بن شماسة (أحفاد جماعة أبي ثور)، بعد أن دخلوا في أحلاف مع مجموعات قبلية محلية مؤسسين تحالف ثعين (٢٨/ ١٦).

أما ما نقله عن أبي مخرمة بأن سكان الشحر الأوائل هم جيل من الشحرا من مهرة (٢٣/ ٥٢). فلو قبلنا ما قاله بامخرمة، مع تحفظي على ما جاء به؛ فإن الشحرا ليسوا بمهرة؛ بل هم من سكان مرتفعات ظفار الأصليين إضافة إلى القرا (٣٠/ ٢٠٦، ٢٠٩)، وقد بينا فيما مر بأنهم ليسوا بمهرة من حيث أصولهم. وحول تمكن المهرة من السيطرة على الشريط الساحلي خلف المصينعة حتى الشحر في زمن مجهول كما نقله عن (الشهداء السبعة) متجاوزين ثعين والحموم، وتأسيسهم لسوق في دلتا دفيقة سماه بعض العرب سوق المهرة، أو سوق الشحر، ثم سيطرتهم على السوق القديمة المجاورة لهم (الشحر)، ونكاية بهزيمة الحموم فرضوا اسم الشحر على السوق، وأصبح من يومها يدعى سوق الشحر (٢٣/ ٦٧، ٨٦). وهو يعني بأن تسمية المدينة بالشحر قد جاءت تبعًا لذلك. وهو في مجمله قول غريب.. غريب لأنه سرد لوقائع خطيرة وجديدة، ثم إن صاحب الشهداء لم يذكر أي مصدر استقى منه معلوماته تلك، وهي أحداث لم يعاصرها، وتبعد عنه قرونًا من الزمن. وفيها ما يتناقض مع بعض ما جاء في متن كتاب الباحث حول مفهوم الشحر وموقع سوقها.

ومن غريب ما ورد في الشهداء مثلًا قوله: بأن أسواق العرب في الجاهلية كانت خمسة منها في بلاد اليمن، بعد أن أضاف هودًا (١٧/ ٢٢) مع أن الثابت تاريخيًا بأنها أربعة، هي: الشحر، والرابية،

وعدن، وصنعاء (٥/ ٢٦٣). أما الخامس سوق هود فلم يُذكر فيما نعلم، ثم إن منطقة هود هي من كانت تقام عليها سوق الشحر (٥/ ٢٦٦) لا سوق الشحر التي أسسها المهرة في المدينة كما جاء في كتاب (الشهداء السبعة) (١٧/ ٢٢). وكان على الكاتب أن يدقق فيما ينقله من وقائع، لا أن يحبر كل ما يقع عليه من مادة، وهو ما جعله ينقل غريب الكلام مما لم يتأكد مصدره.

إدراجه آل فارس في مهرة.. حقيقته وعلاقتهم بآل فارس بن إقبال:

آل فارس بن إقبال هي العائلة التي حكمت ولاية الشحر، ولا يُعرف مبتدأ حكمهم، ولكن الثابت أنهم كانوا حكامًا للإمارة منذ بداية القرن ٦هـ (١/ ٢٦). ويرجع غالب المؤرخين نسبهم إلى كندة، مع وجود أخبار مروية نقلها الأشرف الرسولي بأن أصولهم تعود للأزد (٤/ ٢٨). حتى عند من قالوا بأن من حكموا إمارة الشحر بعد أن استقلت استقلالها الأول عن سلطة الدولة الأيوبية وهي فترة امتدت من العام ٥٧٧هـ إلى ٦١٦هـ -إعادة السيطرة- هم غير آل إقبال (آل فارس) عدوا آل إقبال من كندة (٢٧/ ٧٣). مع أن من حكموا خلال ذلك التاريخ هم امتداد لآل فارس بن إقبال لا أسرة جديدة، وهناك شواهد كثيرة عليها، منها ذكر أشخاص من آل إقبال كانوا متولين الأمر، مثل راشد بن إقبال الذي زوج ابنته على فهد بن عبدالله (بن راشد) في العام ٦٠٣هـ، وهو راشد الذي قتلته سيبان بعدئذٍ (١/ ٦٥، ٧١)، وكذا ذكر تصدي ابن إقبال لهجوم ابن أبي العرب سنة ٦٠٤هـ، وفيها غنم ابن إقبال اثنين وعشرين فرسًا زيادة على الأسرى (١/ ٦٨).

وكانت الفرضية عند من قالوا بأن من حكموا خلال فترة الاستقلال الأولى والتي دامت ثلاثة عقود ونصف فقط أسرة جديدة (آل فارس) تتأرجح بين مهرة وكندة (٢٧/ ٧٣)، والمقاربة قائمة على أساس تحليل اسم ابن فارس فقط. أما ما سبقها من فترة وما تلاها حتى الاحتلال الرسولي سنة ٦٧٧هـ فكان الحكم فيها لآل إقبال، حتى عند من قالوا بفرضية الأسرة الجديدة. وكان الكاتب قد التقط فرضية المهرة، وجعل من حكم آل إقبال الطويل الذي دام قرابة قرنين ونصف هو حكمٌ لآل فارس (الافتراضي) الذي دام ثلاثة عقود ونصف فقط؛ جاء ذلك من خلال إسقاط اسم آل إقبال في بعض المواضع ووضع بدلًا عنها اسم المهري، كما فعل مع اسم الدولة بعد أن جعلها دولة آل فارس المهرية (٢٣/ ١٤٧) بدلًا من دولة آل فارس بن إقبال قارن (٢٩/ ٤٢٤). وكذلك الحال مع اسم عبدالباقي بن فارس بن راشد بن إقبال الكندي المتوفى في ٥٤٧هـ (٢٩ ج٢/ ٤٢٤) الذي جعله عبدالباقي بن فارس المهري، بعد أن ظن أنه مؤسس للدولة (٢٣/ ١٤٧)، وهو ظن غير صحيح. وهو قول فيه تجاوز حتى على الفرضية التي التقطها، حيث جعلت ابتداء حكمهم يعود إلى ما بعد العام ٥٧٥هـ (٢٧/ ٧٣). وقوله كذلك: ومن آل فارس فهد بن راشد الذي قتلته سيبان (٢٣/ ١٤٨) بدلًا عن عبارة ومنهم فهد بن راشد بن إقبال الكندي الذي قتلته سيبان (٢٩ ج٢/ ٤٢٥). وكما تعمد إسقاط كندة فيما مر، نراه يكرر الأمر في الصفحة (٢٣/ ١٥٩)؛ إذ يتعمد إسقاط الكندي من اسم أبي دجانة مع أنه يستل الفقرة كاملة، قارن الحامد (٢٩ ج٢/ ٥٨٥).

فكان الأحرى بالكاتب التقاط الفرضية، ومناقشتها لتأكيد ما ذهب إليه لا تغيير كلام من نقل عنهم. وهو تصرف لا ينم عن غياب القراءة الدقيقة للمادة التاريخية فقط، بل غياب الموضوعية في التعاطي مع المادة المنقولة. وما يثير الدهشة ما ذهب إليه الكاتب من تعيينه لنسب آل فارس، إذ عدهم أحد فروع الجد الأول لمهرة بن حيدان (٢٣/ ٤٢) وهو إسقاط غريب؛ إذ لم يراع فيه حتى فارق الزمن الطويل بين الاثنين، وهو قول لم يأت به من نقل عنه. ولا يمكن قبوله كذلك من منظور أي منطق تاريخي سوي؛ وهو شطح قد يكون سببه غلبة الذات على الموضوع، مدفوعًا بالحماسة الشديدة في تأسيس وعي تاريخي بالذات الاجتماعية. والفرضية في عمومها غير دقيقة لوجود مؤشرات تاريخية تؤكد خلاف من ذهبوا إليها، وهي:

أولًا: إن من حكموا الشحر بعد الاحتلال الأيوبي في العام ٥٧٥هـ هم امتداد لعائلة آل إقبال وليس ابتداءً لحكم عائلة جديدة؛ إذ جاء ذكرهم في أحداث عدة بعد ذلك التاريخ بوصفهم آل إقبال، ومن ثم فلا معنى من الفصل بين من حكموا خلال العهدين، ثم إن ابن فارس هو من توابع أسماء آل إقبال، وقد عُرف بعضهم بابن فارس فقط من دون ذكر آل إقبال (١/ ٤٨).

ثانيًا: لقد جاء اسم فارس في المصادر التاريخية عند آل إقبال وغيرهم بأكثر من دلالة؛ فقد جاء بوصفه اسمًا للأب والابن أو جدًا للعائلة، كما هو الحال عند آل إقبال. وهو قد يأتي اسمًا لقسم من القبيلة في وضعيات أخرى كآل فارس في نهد، وآل فارس عند آل دغار، وقد يأتي عند غيرهما. حتى عند أبي دجانة فقد ظهر متأخرًا وجاء في البدء بوصفه اسمًا لأب (سعد بن فارس بادجانة) (١/ ١٧٠)، ثم تحول بعدئذٍ إلى جد العائلة (١/ ١٧٨، ١٨٨) الذي حوله الكاتب إلى قبيلة تفرعت من مهرة بن حيدان. وكان قد ورد ذكر لبعض من آل أبي دجانة قبل سعد المذكور من غير وجود ابن فارس، بل ورد في إحداها بوصفه اسمًا لشخص (١/ ١٢٧، ١٣١).

وكان قد ورد عند الخزرجي بأن من تولى أمر الشحر في العام ٧٩٥هـ بعد هروب الوالي الرسولي ابن بوز الذي كان قد تمرد على آل رسول، كان غلامًا لابن شماسة صاحب الأمر في حيريج (٩ ج٢/ ٢٠٦). وهو لن يكون غير سعد بن فارس أبي دجانة على الأرجح، حيث كان متولي أمر الشحر في العام ٨٠٩هـ، بعد أن تمكنوا من السيطرة عليها ثانية في العام ٧٩٩م، ثم إن سعدًا المذكور كان متولي أمر حيريج في العام ٨٣٢هـ (١/ ١٥٣، ١٥٧، ١٧٠). وإشارة الغلام في من تولى الشحر، أمر يشي بأنه لا ينتمي إلى بني شماسة المهرية؛ لذلك يكون من قال بأن أبا دجانة من كندة وأخواله من مهرة كما ورد عند أبي مخرمة، طرح له وجاهته. وعليه فآل فارس حتى لو نظرنا إليهم بوصفهم قبيلة (تجاوزًا) فإنهم أقرب إلى كندة لا إلى مهرة. وتبعًا لذلك فلا وجود لعلاقة نسب قبلية بين آل أبي دجانة المذكورين بمهرة. كما لا يوجد بالمقابل أي صلة نسب بينهم، وبين آل إقبال. حتى لو ذهبنا باتجاه تخريجة الكاتب، فآل فارس الأولى (من آل إقبال) جاءت عنده بوصفهم اسمًا لقبيلة انسلت من الجد الأول مهرة بن حيدان، فيما جاء آل فارس الثانية بوصفهم فرع لقبيلة أبو دجانة. ومن ثم شتان بين الاثنين بالطبع، بين من انسل من جد مهرة الأول، وبين من انسل من فرع قبلي متأخر. ومع كل ذلك فإن أساس المقاربة (آل فارس) هي الأخرى تحمل خيارات عدة من حيث الفهم. وكلها لا تنبئ بمهرية آل فارس كما تم بيانه فيما ذُكر.

الانتقائية وتفخيم الأحداث:

لقد كان تغييب الزمن؛ بمعنى إسقاط الحاضر على الماضي، وسيطرة الفكرة لا مناقشتها واحدة من الإشكالات التي يلاحظها القارئ عند الكاتب، ومنها حديثه عن أبي دجانة كأنه رمز مهري (٢٣/ ١٥٢)، مع أن الرجل لم يكن يرى في نفسه سوى امتداد لمشروع ابن شماسة من قبله الذي حاول الانتقال من الزعامة المشيخية في قبيلته إلى زعامة الإمارة التي ينضوي في عباءتها (الشحر) (١/ ١٥١، ١٥٣)، على شاكلة من حكموا أو سعوا لتأسيس ملك لهم من الأمراء في حضرموت، لا بوصفه معبرًا عن هوية مهرية؛ لأن الهويات المناطقية لم تكن قد تشكلت وقتئذٍ، وعليه فإن ما يهم أبا دجانة حينها كان الشحر وتوابعها بوصفها العالم المكاني الواسع له، لا العالم المكاني الواسع لمهرة كما هو عند مهرة اليوم.

لذلك لم يعمل أبو دجانة الأول على مد نفوذه نحو الغرب لملمة كيان المهرة، مع بقائه أكثر من خمسة وعشرين عامًا متوليًا إمارة الشحر بعد آل رسول (٢٩ ج٢/ ٥٦٦)؛ إذ بعدها سيطر آل طاهر، ثم آل كثير على الشحر (١/ ١٨٩، ١٩١). وكذلك الحال كان مع خلفه الذين حكموا من العام ٨٦٣هـ إلى العام ٩٤٢هـ، أي حوالي ثمانين عامًا؛ وهي مدة انكفاء دولتهم على حيريج ونواحيها بعد احتلال آل طاهر للشحر ثم آل كثير في العام ٨٦٨هـ (١٨/ ٢٣١). باستثناء فترة سيطر فيها آل أبو دجانة على الشحر امتدت من العام ٨٩٤هـ إلى ٩٠٠هـ؛ وهو تاريخ استعادة آل كثير الشحر (١/ ٢٠٦، ١٨/ ١٤). وخلال كل تلك العقود الثمانية لم يعمل آل أبي دجانة في مد نفوذهم نحو مناطق مهرة الأخرى كي يؤسسوا كيانًا مهريًا. فقد ظلت النظرة السياسية والاجتماعية عندهم كما كان عند أبي دجانة الأول قائمة على أن إمارة الشحر هي العالم المكاني والاجتماعي الواسع لهم، لا العالم المكاني الواسع لمهرة كما هو الحال اليوم.

حتى حديث الكاتب عن صراع مهري كثيري هو وصف غير دقيق (٢٣/ ١٦٦)؛ لأن الروابط الاجتماعية لم تتجاوز القبيلة والاتحاد القبلي وقتئذٍ. حيث لم تتأسس بعد الروابط المناطقية الواسعة. ويؤكد ذلك وقوف قبائل مهرية إلى جانب آل كثير في أحداث عدة. ومن ثم فإن ما حدث كان صراعًا عفريريًا كثيريًا، وكان فيها الأول أميرًا على قشن يسعى كي يستعيد ملكه، والثاني سلطانًا يعمل على مد نفوذه على حساب الأول. وقس الأمر في حادثة مقتل حاكم السلطان بدر في قشن ومحاصرة حاميته العام ٩٥٢هـ، وكان قد نفذها مجموعة من بيت زياد المهرة، واتُهم بتدبيرها محمد أخو السلطان بدر. فقد جاء وصفها بالثورة (٢٣/ ١٦٨)، ثم بالانتفاضة الثانية في عنوان تالٍ للأول (٢٣/ ١٦٩)، حتى ما جاء في سياق تلك العناوين ليس له أي صلة بما هو في العناوين من حيث هي مصطلحات ذات مضامين بعينها. صحيح إن الرجل اقتبس الكلام من مرجع محلي (٢٢/ ٧١)، ولكن ذلك لا يعفيه؛ لأن مصدر الحادثة (تاريخ الشحر) كان في متناوله، ثم بوصفه كاتبًا كان عليه تمثل المادة قبل أن يُحبرها. ومع ذلك فعند تعرضه لهجوم القوة البرتغالية على حامية السلطان بدر في قشن، وقيامهم بقتل جنودها في العام ٩٥٥هـ، وهي القوة التي أتى بها ابن عفرير من جوا (في الدكن بالهند)، نجده يعود للمصدر ويصرف النظر عن المرجع المتأخر الذي جاء فيه أن ابن عفرير يستنجد بالبرتغاليين (٢٢/ ٧٢)؛ إذ نراه يعنون الحادثة بمعركة أهل المهرة ضد الكثيري تحت حصن قشن (٢٣/ ١٧٣)، مع أن القوة التي شاركت في الحملة برتغالية صرفة (١٨/ ٣٣٠).

ثم نراه يأتي بالحدث مجملًا تحت عنوان، ويفصله في مكان آخر بعنوان ثانٍ، كوصفه لحملة بدر الأولى على قشن مجملًا تحت عنوان ثورة المهرة ضد السلطان بدر سنة ٩٥١هـ (٢٣/ ١٦٨)،

ثم يوردها مفصلة تحت عنوان السلطان بدر يدشن حملة عسكرية ضخمة لاحتلال قشن ٩٥٢هـ (٢٣/ ١٦٩). وفي الأولى يأتي بتاريخ غير دقيق بعكس الأمر في الثاني. والأمر نفسه نجده تحت عنوان انتفاضة المهرة الثانية، يورد فيها خبر مقتل حاكم بدر في قشن، والحملة التي سيرها للانتقام مجملًا مكتفيًا بذكر اليوم والشهر فقط (٢٣/ ١٦٩) ويفصلها تحت عنوان معركة ليبن مع ذكره للعام ٩٥٣هـ (٢٣/ ١٧١). وكأن الرجل يريد تفخيم الأحداث على تلك الشاكلة من التكرار وهو خلل أساء إلى الكتاب.

والأمر نفسه نجده عند تناوله للصراع الذي نشأ بعد تولي عبدالله بن بدر السلطنة بعد انقلابه على أبيه في العام ٩٧٦هـ؛ إذ جعله صراعًا مهريًا كثيريًا (٢٣/ ١٨١- ١٨٤)، مع أنه في الأصل صراع بين نجلي بدر، عبدالله وجعفر بعد رفض الثاني الاعتراف بشرعية الأول، وحاول الاستقلال بالشحر، ولكنه فشل وحوصر مع مجموعة من مهرة (آل عفرير)، وانتقل ومن معه بعدها إلى قشن بعد أن أذن له السلطان عبدالله بن بدر (١٨/ ٣٩٣)، وأسس هناك تحالفًا مع الشيخ عمرو بن محمد بن طوعري -حليفه بالأمس- بهدف إثارة القلاقل أمام أخيه (١٨/ ٣٩٤)، ومنها كانت أعمال القرصنة البحرية التي عد الكاتب إحداها حملة مهرية ضد الشحر، وهي التي حدثت في ٦ ربيع الآخر ٩٧٧هـ (٢٣/ ١٨٢). وتبعًا لذلك فنحن أمام صناعة أيديولوجية للتاريخ، لا تأصيل تاريخي يعمل على خلق وعي حقيقي بالذات الاجتماعية.. وعي يستمد حضوره من أرضية تاريخية صلبة، تمتلك المقدرة على الصمود في الحوار الثقافي حاضرًا ومستقبلًا.

الخلاصة:

ونخلص مما مرّ بأن شحر عُمان أو شحر مهرة هي ناحية ظفار، وهي غير شحر حضرموت، التي هي حديثة عهد قياسًا بالأولى، وقد كان ظهورها تاليًا على ظهور شرمة التي يرجع تاريخها إلى القرن ١١م، ولم تكن عند احتلال الرسولي لها في القرن ١٣م مجرد مرسى ينزل الناس بها في أخصاص (٣١/ ٢١٧) بل كانت مركزًا سياسيًا وإداريًا لإمارة آل فارس بن إقبال. وهي لم تكن يومًا من مهرة أو حدًا لها كما جاء عند الكاتب، بل كانت امتدادًا للشريط الساحلي الشرقي لحضرموت (الحيق) بوصفها قاعدتها. وهي منطقة كانت مأهولةً بمجموعات قبلية محلية سواءً أكانت من كندة أو الصدف أو الاثنين معًا.

كما كانت تسكن بينهم زمن الهمداني مجموعة قبلية من بني تبالة بن شماسة من ثعين في الأسعى، وهم فرع من بحنن. وكان الرأس فيهم عمرو بن محمد بن كنانة الملقب بـ(أبي ثور المهري). وقد دخلوا في أحلاف مع مجموعات قبلية محلية في وقت لاحق مؤسسين تحالف ثعين. والثعين اليوم أحد الفصائل المنضوية في تحالف بني ظنة الكبير في حضرموت (٢٨/ ١٧). علمًا أن بني تبالة بن شماسة المذكورين ليسوا بمهرة في الأصل، بل التحقوا بهم. وذلك على رأي أصحاب السجل كما جاء عند الهمداني. وإن أصولهم ترجع إلى بني عمرو بن مرة بن حمير؛ وينتمي بنو عمرو هؤلاء إلى حضرموت البلد من حيث أصولهم السكانية (٣ ج١/ ١٤٧، ١٩١).

كما كانت الشحر أيضًا اسمًا لإمارة تشمل الجزء الشرقي من السهل الساحلي لحضرموت، وضمت فيما ضمت القرى والوديان الزراعية الواقعة شمال الشحر وشمالها الشرقي والغربي، كتبالة، وعرف، وغيل باوزير وغيرها، وامتدت كذلك على طول الشريط الساحلي شرقًا حتى حيريج ونواحيها؛ حيث كانت الناحية جزءًا من إمارة الشحر لقرون من الزمن، لذلك كانت حيريج ونواحيها حاضرة عند مؤرخي حضرموت ممن تناولوا تاريخها الوسيط؛ بوصفها جزءًا من إمارة شحر حضرموت، مع عدم إغفالهم أنها منطقة من مهرة. وكان أمراء هذه الإمارة هم آل فارس بن إقبال وقد بينا بأنهم ليسوا من مهرة بإجماع المؤرخين. وما جاء عند الكاتب من مهريتهم، قول لم يأت في أي من النقول التاريخية. وقد استمروا حكامًا حتى الاحتلال الرسولي للشحر في العام ٦٧٧هـ.

كما بينا بالشواهد التاريخية، بأن القول بتبعية شحر حضرموت التاريخية لمهرة، هو وعي لا أساس له من الصحة، بل كان جزءًا من مهرة يتبع حضرموت، وهو سياق تاريخي فرضه واقع موضوعي، واقع لم تكن فيه الهويات المناطقية قد تأسست بعد؛ لذلك رأينا ذلك الارتباط لحيريج ونواحيها بإمارة الشحر بوصفها عالمهم الاجتماعي والسياسي وقتئذٍ. وكان على الكاتب مناقشة الأفكار؛ مناقشة علمية وتاريخية نقدية؛ كي يؤسس لوعي حقيقي وهو ما لم يفعله.

صحيح إن المهرة اليوم ناحية ورابطة اجتماعية فرعية أمر لا نقاش فيه، كما هي حضرموت ناحية ورابطة اجتماعية فرعية. ومن هذه الزاوية أتفهم الرغبة لدى بعض نخبهم في تأسيس وعي ثقافي بتلك الرابطة، وهو وعي كان بالإمكان تأسيسه من غير الحاجة إلى ثنائية حضرموت مهرة؛ وهي ثنائية تنطوي على نزعة حدية؛ هي نتاج لحمولات انطباعية عن الماضي، كانت قد صنعتها ثقافة شفوية، لم يتم التعاطي معها بطريقة علمية ونقدية كي يتم تقرير حقيقتها من عدمها، وهي من الحضور ما جعلها تتحول إلى محددات تاريخية لا شعورية عند بعضهم. وهو أمر لا يساعد على تكريس ثقافة تاريخية رصينة.

الهوامش:

* جاء وصف رأس الجمجمة عند ابن سعيد (ت ٦٨٥هـ) بأنه الرأس الذي يقع أقصى ساحل الشحر شرقًا، وهو جبل كبير، وله بروز طويل في اتجاه البحر، وهو مكان تقصده المراكب كي تحدد انطلاقها منه في اتجاه إبحارها نحو الغرب. وكان ربابنة جنوب الجزيرة حتى أواخر القرن ١٣هـ يسمون رأس مدركة (بالمنتخ) كما ورد عند الملاحي، كونه المعلم البحري الذي ينطلقون منه لتحديد درب إبحارهم نحو الهند أو جهة الغرب عمومًا. انظر: ابن سعيد المغربي، كتاب الجغرافيا، ص١٦. وعبدالرحمن الملاحي، ملامح من التداخل المعرفي بين ربابنة اليمن وعمان، ص٩٦-٩٧.

** لقد عمل الكاتب عضوًا في حفريات شرمة م/ الديس، ودار البياني في الشحر.

المراجع:

١. أحمد بن محمد بن عبدالله شنبل (ت ٩٢٠هـ)، تحقيق: عبدالله محمد الحبشي: تاريخ حضرموت، المعروف بتاريخ شنبل، تريم، ١٩٩٤م.

٢. الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمداني (ت ٣٦٠هـ)، تحقيق: محمد بن علي الأكوع الحوالي:
صفة جزيرة العرب، صنعاء، ١٩٩٠م.

٣. .....:
الإكليل، صنعاء، ٢٠٠٤م.

٤. الأشرف عمر بن يوسف بن رسول (ت ٦٩٠هـ)، تحقيق ك. و. سترستين:
طرفة الأصحاب في معرفة الأنساب، بيروت، ١٩٩٢م.

٥. أبو جعفر محمد بن حبيب البغدادي (ت ٢٤٥هـ)، تحقيق إيلزة ليختن شتيتر:
كتاب المحبر، بيروت، بدون تاريخ.

٦. أبو عبدالله محمد بن محمد بن عبدالله الإدريسي (ت ٥٦٠هـ):
نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ج١، القاهرة، ٢٠٠٢م.

٧. أبو عبدالله محمد بن أحمد البشاري المقدسي (ت ٣٨٠هـ)، تحقيق: د. محمد مخزوم:
أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، بيروت، ١٩٨٧م.

٨. أبو العباس أحمد القلقشندي (ت ٨٢١هـ):
صبح الأعشى، القاهرة، ١٩١٤م.

٩. أبو الحسن علي بن الحسن الخزرجي (ت ٨١٢هـ)، تحقيق: محمد بن علي الأكوع الحوالي:
العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية، بيروت، ١٩٨٣م.

١٠. أبو الفتح يوسف بن يعقوب (ابن المجاور)، (ت ٦٩٠هـ)، تحقيق: ممدوح حسن محمد:
المستبصر، وصف بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز، القاهرة، ١٩٩٦م.

١١. أبو القاسم عبيدالله ابن خرداذبة (ت ٢٨٠ه):
المسالك والممالك، ليدن، ١٨٨٩م.

١٢. أبو القاسم بن حوقل النصيبي (ت ٣٦٢هـ):
صورة الأرض، بيروت، ١٩٩٢م.

١٣. أبو القاسم محمود بن عمر الخوارزمي الزمخشري (ت ٥٣٨هـ):
تفسير الكشاف.

١٤. أبو الحسن بن علي المسعودي (ت ٣٤٦هـ)، تحقيق: كمال حسن مرعي:
مروج الذهب ومعادن الجوهر، بيروت، ٢٠٠٥م.

١٥. جمال الدين أبو الفضل محمد ابن منظور (ت ٧١١هـ)، تحقيق: عبدالله علي الكبير، محمد أحمد حسب الله، هاشم محمد الشاذلي:
لسان العرب، القاهرة، بدون تاريخ.

١٦. زكريا بن محمد بن محمود القزويني (ت ١٢٠٣م):
آثار البلاد وأخبار العباد، بيروت، ١٩٦٠م.

١٧. محمد عبدالقادر بامطرف:
الشهداء السبعة، عدن، ١٩٨٣م.

١٨. محمد بن عمر الطيب بافقيه (ت ١٠٢٤هـ)، تحقيق: عبدالله محمد الحبشي:
تاريخ الشحر وأخبار القرن العاشر، صنعاء، ١٩٩٩م.

١٩. محمد بن عبدالمنعم الحميري (ت ٧٢٧هـ)، تحقيق: د. إحسان عباس:
الروض المعطار في خبر الأقاق، بيروت، ط٢، ١٩٨٤م.

٢٠. محمد عبدالقادر بافقيه:
تاريخ اليمن القديم، بيروت، ١٩٨٥م.

٢١. .....:
في العربية السعيدة، ج٢، بيروت، ١٩٩٣م.

٢٢. محمد بن هاشم:
تاريخ الدولة الكثيرية، تريم، ٢٠٠٢م.

٢٣. سعيد بن سالم بن علي الجدحي:
تاريخ المهرة، المسمى التطواف حول تواريخ ومشاهير بلاد الأحقاف، بدون مكان النشر، ٢٠١٣م.

٢٤. علوي بن طاهر الحداد (ت ١٣٨٢هـ)، تحقيق: د. محمد يسلم عبدالنور:
جني الشماريخ، تريم، ٢٠١٢م.

٢٥. عبدالرحمن ابن خلدون (ت ٨٠٨هـ)، تحقيق: خليل شحادة:
تاريخ ابن خلدون، بيروت، ٢٠٠٠م.

٢٦. عماد الدين إسماعيل بن محمد المعروف بأبي الفداء (ت ٧٣٢هـ):
تقويم البلدان، باريس، ١٨٥٠م.

٢٧. عبدالرحمن بن حسن بن عبيدالله السقاف، تحقيق: إبراهيم أحمد المقحفي وعبدالرحمن حسن السقاف:
معجم بلدان حضرموت المسمى إدام القوت في ذكر بلدان حضرموت، صنعاء، ٢٠٠٣م.

٢٨. عبدالرحمن عبدالكريم الملاحي:
المشقاص مخلاف أهمله التاريخ، (تقديم لكتاب: القائم عبدالله بن عوض مخارش، تأليف د. عبدالله سعيد الجعيدي، د. عبدالله أحمد باصميدي)، المكلا، ٢٠١١م.

٢٩. صالح الحامد:
تاريخ حضرموت، صنعاء، ط٢، ٢٠٠٣م.

٣٠. صلاح عبدالقادر البكري:
تاريخ حضرموت السياسي، ج٢، القاهرة، ١٩٣٦م.

٣١. شمس الدين أبو عبدالله محمد بن أبي طالب الدمشقي (ت ٧٢٧هـ):
نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، سانت بترسبورغ، ١٩٢٣م.

٣٢. شهاب الدين أحمد بن عبدالوهاب النويري (ت ٧٣٣هـ)، تحقيق: د. مفيد قميحة:
نهاية الأرب في فنون الأدب، بيروت، ٢٠٠٤م.

٣٣. شهاب الدين أبي عبدالله ياقوت الحموي الرومي البغدادي (ت ٦٢٦هـ):
معجم البلدان، بيروت، ١٩٥٧م.

100
العدد (14)
أكتوبر
ديسمبر
2019م

المصورة السعودية المحترفة ذات الأصول الحضرمية

سوزان باعقيل تفتح قلبها لـ(حضرموت الثقافية):

• اكتشفت في أثناء زيارتي حضرموت أنها بحاجة إلى من يوثق أعمالها ونشاطاتها بطريقة احترافية.. فعملت موسوعتي الشهيرة باسمها!

•عملت كمصورة لوكالة رويترز العالمية.. وسيدات البيت الأبيض..

يعد التصوير فنًا بصريًا له مذاقه وجماله وخصوصياته، فمهما صيغ الخبر أو المقال مقروءًا أو مرئيًا بشكل لافت وتراكيب لغوية ثم نشر أو بث بغير صورة فليس له أي قيمة تذكر.

لهذا يظل حديث الصورة أقوى من حديث الكلمة، بل يعدل أيضًا ألف كلمة.

ضيفتنا في هذا العدد المصورة الفوتوغرافية المحترفة السعودية سوزان باعقيل التي ترجع أصولها من حضرموت، التي تمتلك خبرة عريقة في التصوير التجاري والإعلان والدعاية والتصوير المعماري والآثار والسياحة والأزياء والبورتري والأفراح والمؤتمرات والندوات المحلية والإقليمية والدولية سواء بالفوتوغرافي أو الفيديو والمونتاج.

وإليكم ما دار في هذا اللقاء من خلال هذه السطور:

حوار أجراه/ عبدالعزيز محمد بامحسون

• من هي سوزان باعقيل؟

- أول مصورة محترفة عربية سعودية، التحقت بجامعة ميامي بولاية فلوريدا الأمريكية في العام ١٩٧٩م، وتخصصت في آداب الفن وفن التصوير (Fine Art and photography)، وعلم نفس (Psychology Human Service Part of)، وتخرجت في العام ١٩٨٣م.. أسست أول استديو نسائي في السعودية للتصوير الاحترافي، وهو أول استديو نسائي على مستوى الخليج والعالم العربي، ومؤسس ومالك مركز الإبداع المطلق للتدريب على التصوير الرقمي الاحترافي والسينمائي، وهو أول مركز من نوعه، وذلك حرصًا مني على المساهمة في تعليم مهارات التصوير للأجيال القادمة، وتهيئة المرأة السعودية للعمل في هذا المجال انطلاقًا مع رؤية ٢٠٣٠م، وذلك بفضل خبراتي وعراقتي في مجال التصوير الذي يمتد لأكثر من (٣٠) عامًا، وما زلت دائمًا أتابع التطوير في فن التصوير، والذهاب إلى ألمانيا وإيطاليا وأمريكا لأطور نفسي بكل جديد في هذا العلم (فن التصوير) من ناحية التقنيات الحديثة.

• كيف كانت بدايتك مع فن التصوير، ومن شجعك؟

- هو توفيق من الله، الله يرحم زوجي كان مؤمنًا بموهبتي فكان الداعم الأساسي لهذه الموهبة، فتحولت هذه الموهبة مباشرة إلى حرفة مهنية.

• التصوير بالنسبة لك هل أخذتِه كمهنة احترافية أم هواية؟

101
العدد (14)
أكتوبر
ديسمبر
2019م

- التصوير بالنسبة لي احتراف ولم أتخذه كهواية عابرة لحبي وشغفي إلا في صغري فقط اعتبرته هواية، أحببتُ احترافه وأتعمق في علمه؛ كي أبدع في هذا الفن الساحر، الذي ليس له حدود بمجالاته المختلفة من تصوير، سواء كان سينمائيًا أو فوتوغرافيًا، وتصوير الجمال البورتريت، وتوثيق الإنسان وحياته أفراحه وأحزانه، وتصوير الطبيعة لإظهار إبداع صنع الخالق.

• ما هي الجوائز التي حصلت عليها؟

- هناك جوائز عدة نلتها وهي تتعدى أكثر من (٥٧) جائزة ما بين محلية ودولية في فن التصوير الفوتغرافي والبورتريه، كما تشرفت ببعض التكريمات منها:

حصولي على الجائزة الأولى لمسابقة الأمير سلطان بن سلمان للتصوير الضوئي على مستوى المملكة والخليج العربي.

حصولي على جائزة المرأة السعودية الثانية ٢٠١٨م، وتم تكريمي من قبل وزارة الثقافة والإعلام ومركز الملك فهد للمميزات.

حصولي على مسابقة أجمل صورة في البورتريه على مستوى العالم العربي عام ١٩٩٢م.

فزت بمسابقة الأمم المتحدة، وحصلت على المركز الثاني ودرع الأمم المتحدة من الأمير فيصل بن فهد (رحمه الله) عام ١٩٩٣م.

فزت بجائزة الأمير فهد بن سلطان في مسابقة التصوير الفوتغرافي للمعرض البيئي السعودي عام ١٩٩٥م.

اقتُنِيَتْ لوحاتي لدى متاحف مثل V&A البريطاني والمتحف الكندي في كويبيك.

كرمني الرئيناب وليتاني في العام

٢٠٠٧م، وأطلقس الإيطالي جورجو عليّ لقب الفارس (Cavaliere)، وقلدني النجمة الذهبية التضامنية في حفل اختتام معرض دولي بعنوان (إيطاليا بعيون عربية)، وهذا أول تكريم من حكومة أجنبية لفنانة عربية.

كرمت من قبل وزارة الثقافة ومكتبة الملك فهد للتراث برعاية حرم أمير الرياض سمو الأميرة نورة بنت محمد آل سعود لدوري الرائد في فن التصوير.

كرمت في مهرجان رائدات الأعمال من جمهورية مصر العربية في العام ٢٠١٩م.

كرمتني أيضًا (جمعية الثقافة والفنون) كوني أول مصورة محترفة عربية تقوم بالتصوير الجوي من خلال الطائرة العمودية (الهليكوبتر) للحرم الشريف بمكة المكرمة، وغار حراء بجبل النور، والمشاعر المقدسة خلال موسم الحج.

• في أكتوبر ٢٠١٩م نالت المصورة الفوتوغرافية سوزان باعقيل الوسام الفضي للمرأة العربية (صانعات التغيير في الوطن العربي) من بين أكثر من ١٠٠٠ امرأة عربية تقدَّمْنَ للظفر بجوائز المسابقة وأوسمتها.. كيف نلت هذا الوسام، ولمن تهدينه؟

- أولًا فوزي بهذا الوسام لم يأت من فراغ بل بمصداقية فلسفتي في التغيير وإثبات قدراتي في المشاركة في التنمية وتطوير الوطن بدعم من مسيرة قيادتنا الرشيدة لحكومة خادم الحرمين الشريفين الملك سلمان بن عبدالعزيز وولي عهده

الأمين الأمير محمد بن سلمان الذي أطلق رؤيته ٢٠٣٠م للتطوير والتنمية في جميع مجالات الحياة، وجهودي التي بذلتها حتى أصل إلى ما أريده، وقد جاء هذا الفوز بعد منافسة شديدة مع عدد كثير من النساء من شتى مختلف الدول العربية، واللاتي وصل عددهن حوالي إلى ١٠٠٠ امرأة تقدَّمْنَ للمنافسة في المرحلة التمهيدية، ومن بينهن (٢٠) امرأة من بلدي ومن ضمنهن أميرات، وبعد أن تجاوزت المرحلة الأولى التي تنافست عليها مع (٢٥٠) امرأة عربية، تأهلت للمرحلة الثانية من التصويت للفوز بوسام صانعات التغيير في الوطن العربي للتنافس مع (٥٦) امرأة عربية للفوز بالوسام والتكريم في المؤتمر العربي التاسع للمرأة العربية، الذي عقد في الرابع عشر من سبتمبر بتونس برعاية السيدة نزيهة العبيدي وزيرة المرأة في تونس.

أهدي هذا الفوز لكل امرأة سعودية، ولكل من صوَّتَ لي ومنحني مبادرته الحضارية، وأعتبر أن فوزي بهذا الوسام هو فوز لكل امرأة شاركت في هذا الحدث.

• هل لديك عضويات في بعض كيانات التصوير العربية والعالمية؟

- نعم أنا عضو في مجلس إدارات الجمعية السعودية للتصوير الضوئي (SPA)، وجمعية التصوير الأمريكية (PSA)، والهيئة الدولية الأمريكية للمصورين (IFPO)، والاتحاد الدولي للتصوير الفوتوغرافي (FIAP)، والجمعية الدولية لفن التصوير الفوتوغرافي الإيطالية ANAF "بيت الفوتوغرافيين سابقًا"، والجمعية العربية السعودية للثقافة والفنون

بجدة (SASCA)، والجمعية الأمريكية للمحترفين (PMA)، وعضو في أكوموس (ICOMOS).

• كم عدد المرات التي زرت فيها حضرموت، وماذا مثلت لك هذه الزيارات؟

- أنا زرت حضرموت بلاد الأجداد خمس مرات، كانت أول زيارة في عام ٢٠٠٥م عن طريق الربع الخالي، حقيقة اكتشفت فيها الكثير من الموروثات والكنوز والعادات والتقاليد، نعم هي بلد العلم والعلماء والمثقفين، أعجبت بمناظرها الخلابة وبساطة أهلها وطيبة ناسها، فعلًا إن الإنسان الحضرمي له شخصيته المميزة دون سواه، اكتشفت أن حضرموت بلد الأجداد بحاجة إلى من يوثق أعمالها من تقاليد ومناظر وأزياء وعاداتها الاجتماعية وغيرها وبطريقة احترافية، فقررت أن أوثق وأعمل موسوعة عنها، وهذا ما حدث أن عملت موسوعة مكونة من ثلاثة مجلدات وأطلقت عليها (حضرموت بلاد الحضارمة)، وصدرت في عام ٢٠١٦م، لينتفع بها أبناء حضرموت المغتربون وغيرهم من المؤرخين ودور العلم والأدباء والشخصيات المهمة للاطلاع والتعرف عن قرب على ما دونته الكاميرا.

• ماذا أضافت لك هذه الموسوعة، وهل لك إصدارات أخرى؟

- لا شك إن هذه الموسوعة أضافت لي الكثير، منها زيادة رصيدي المعنوي والتواصل مع المسئولين في حضرموت والمغتربين الحضارمة في مهاجرهم، وهي تحتوي على أكثر من ألف صورة باللغتين العربية والإنجليزية وما حكته كاميرتي عن حضرموت ماضيًا وحاضرًا، والتي هي مهد الرجال الذين تنقلوا وهاجروا منها إلى أرجاء المعمورة وبنوا لأنفسهم

مكانة اجتماعية واقتصادية يتباهى بها الجميع.

إن هذا الكتاب يصور البيئة الحضرمية من الداخل ويحكي للمتصفح وكل مهتم بحضرموت وطبيعتها وواقع مجتمعها العريق، ومصدر لإثراء المعرفة للأجيال من أبناء المهاجرين الحضارم في الخارج، وتعريفهم بديار الآباء والأجداد، والوديان والشعاب التي احتضنت القرى ومبانيها.. وفي حقيقة الأمر إنني بذلت جهداً لا يستهان به في إعداد هذا الكتاب الذي دام (١٠) سنوات في التنقل بين القرى والمدن لتصوير وتجميع ما حواه الكتاب بدقة احترافية ومهنية عالية وخبرة في التصوير، وقد تطرقت لأدق التفاصيل للحياة اليومية والحرفية للمواطن في حضرموت العزيزة، واعتمدت في جميع زياراتي على إيجاد التنوع في الصور حيث رصدت المواسم والكثير من الأنشطة في حياة الإنسان الحضرمي اليومية.

كما أصدرت كتاب (حرف من الجزيرة العربية) باللغتين العربية والإنجليزية، وكذا تم طباعته باللغة الألمانية، وهو أول كتاب يوثق نشاط المرأة السعودية في العمل سويًا مع أخيها الرجل.

وكتيب عن الملك عبدالعزيز آل سعود بمناسبة ولادة حفيده الأمير عبدالعزيز بن محمد في عام ٢٠١١م.

إضافة إلى عمل بوسترات وكروت للحرمين الشريفين.

• هل عملت لصالح وسيلة إعلامية؟

- نعم، عملت كمصورة فوتوغرافية لوكالة رويترز العالمية، ومجلة الإندبندنت، ومجلة أرامكو، ومجلة سيدتي.

مع وزير الخارجية السابقة هيلاري كلينتون

كما عملت مصورة خاصة لوزير الخارجية الأميركي السابقة هيلاري كلينتون، وحرم الرئيس الأميركي لورا بوش، والمصممة المشهورة كارولينا هيريرا وغيرهم من القادة والشخصيات المهمة، ومصورة البيت الأبيض.

كما أفتخر وأعتز أنني كنت ضمن الوفد المدني لتمثيل المملكة خلال الزيارة التاريخية التي قام بها خادم الحرمين الشريفين الملك عبدالله بن عبدالعزيز (رحمه الله) إلى إيطاليا والفاتيكان، كما وجهت لي الدعوة السامية من الملك عبدالله بن عبدالعزيز (رحمه الله) لتصوير المؤتمر العالمي للحوار بالعاصمة الإسبانية (مدريد)، وذلك في يوليو ٢٠٠٨م برعاية خادم الحرمين الشريفين الملك عبدالله بن عبدالعزيز والملك الإسباني كارلوس.

ومن خلال زياراتي ومرافقتي للوفود الرسمية والشعبية نقلت الصورة الحقيقية للمجتمع، وهو مثال حي عن المرأة السعودية المحترفة العصامية.

• كيف يلتقط المصور صوره حتى تكون في أفضل صورة؟

- هناك عناصر عدة أساسية أخي الكريم لكي تكون الصورة في أفضل ودقة متناهية لعل أبرزها:

العلم - الحس - الإضاءة - فتحة العدسة - الوقت - تعريف الصورة.

• أي الأماكن تفضلين تصويرها: الجامدة أم المتحركة؟

- لكل نوع له جماله وحسب النوع والظروف المكان والزمان.

• يطلق على سوزان باعقيل (ملكة الكاميرا) ماذا أضاف لك هذا اللقب؟

- إلى جانب هذا اللقب، لقبت بألقاب عدة، منها: قاهرة الجبال، قاهرة الصحراء، وحواء غير.

هذه الألقاب جعلتني أتحمل أعباء كثيرة على عاتقي من خلال عين الكاميرا، والتي أشوف وأعبر بما يخطر في بالي من تصوير بمناظرها الجميلة والخلابة حتى أصل لهدفي السامي والمنشود، والصورة ليست مجرد صورة فهي لغة عالمية يفهمها الجميع، والتي لا تحتاج إلى ترجمة لإبراز الجمال وتوثيق الواقع، وحصولي على لقب ملكة الكاميرا أمر شاق للغاية وممتع في الوقت نفسه؛ لأنه يحتاج مني أن أكون سفيرة لهذا الفن سواء أكان سينمائيًا أو فوتغرافيًا، لتوثيق الإنسان ومشاعره، ولخدمة الإنسانية، وهذا شعاري بالتصوير التي استطعت أن أغير فكر!

ومن خلال هذا الفن استطعت أن أكون سفير سلام، والتي به خدمة بلدي والإسلام والوطن العربي.

• كيف هو شعورك وأنت تنالين الجوائز والتكريمات بين فترة وأخرى؟

- شعوري لا يوصف، وهو بحق فخر واعتزاز لبلدي كوني أول امرأة مصورة عربية محترفة، وفائزة بجوائز عدة عالمية، وهذا يعد بصمة يخلدها التاريخ كامراة عصامية، وبفضل الله ثم الصبر والحب والإصرار والشغف استطعت الوصول إلى ما أنا فيه اليوم، فهذا الاجتهاد والنجاح والعطاء أسعدني خصوصًا وأن كثيرين يقولون لي: أنتِ قدوتنا وإلهامنا ونتمنى أن نكون مثلك والوصول إلى العالمية.

لهذا أقول لك إنني مثال ورمز وقدوة حسنة في التصوير، وأشجع كل فتاة تحب هذا الفن، والتصوير في الماضي كان مهنة ذكورية حتى في الغرب.

• يقال عن الصورة إنها تعدل ألف كلمة، وحديث الصورة أقوى من حديث الكلمة، بماذا تفسرين ذلك كمصورة؟

- صحيح، فالتصوير فن بصري يعبر فيه المصور عن جمالياته وفنه البديع، فهو لغة عالمية يفهمها الكل، ولا تحتاج الصورة إلى ترجمة إذ تعبر عن ألف كلمة، ومن خلال هذا الفن استطعت أن أخدم الإنسانية.

لهذا أحب أن أقول مقولة (التصوير ما هي كبسة زر! وإنما بالتصوير استطعت أن أغير فكر!)، فحرام أن تكون موهبة عابرة أو تكون مجرد "سِلْفي".

• شخصية مصورة تأثرت بها؟

- هم ثلاث شخصيات تأثرت بهم، وهم الأمريكان آنسل آدم (Ansel Adam)، وفريد آرشر (Fred Archer)، والبروفسور جون (Johns)، والأخير كان كل يوم اثنين لديه محاضرة في النقد بالجامعة التي درست فيها، وكان يقول لنا في القاعة: نترك صور سوزان باعقيل للآخر لأن الكلام فيها كثير! ولي الشرف أن تحتفظ الجامعة بأعمالي لكي تكون كمثال رائع للطلاب.

• ما هي نصائحك للمصورين الشباب؟

- عدم المجازفة في التقاط الصور بشكل عشوائي، والبدء في التقاط الصور بشكل احترافي، أيضًا لا بد من التعلم سواء كانت بغرض المتعة الشخصية أو في محاولة لبدء مستقبل مهني في التصوير الفوتوغرافي.

نلتقط الكثير من الصور من أي وقت مضى وننشر الصور على مواقع التواصل الاجتماعي ونشاركها مع الأصدقاء ونستخدمها لتوثيق أماكن وجودنا وما نفعله وما نشعر به، لكن القليل منا يستطيع التعبير عن نفسه في الصور، أو الادعاء بأنه مصور

محترف أو فهم معنى هذه الوظيفة.. لذا أناشد من يمتهن مهنة التصوير من الشباب احترامها بأمانة.

• إذن كيف يمكن محـــاولة فهم التصوير الاحـترافي، وما يتطلبـه سلك هذا الدرب لكسب العيش؟

- هناك أمثلة عدة لمجالات التصوير الاحترافي، منها: التصوير الصحفي، والتصوير التجاري، وتصوير الأزياء والموروثات التقليدية والشعبية، والأماكن السياحية، والآثار، والصور الشخصية، وتوثيق النشاطات الاجتماعية كأفراح الزواجات، أو من خلال السفريات.

• هل تنصحين أن تكون الفتـاة مصـورة فوتغرافية؟

- نعم، أنصح أن تكون الفتاة مصورة فوتوغرافية، ولكن أقول للفتيات إن التصوير مهنة مكلفة، ولكن تحتاج إلى نفس طويل وصبر وشجاعة.

• موقـف ظريف أو محـرج صادفك خلال مشوارك الفني؟

- الموقف الظريف الذي صادفني هو أنه بعد رجوعي من أمريكا عام ١٩٨٣م أحببت أن أصور جدة القديمة بعد أن أخذت تصريحًا بذلك، فكنت أصور إحدى المباني القديمة، فقيل لي: أنتِ المفروض أحد أن يصورك ويصورك كأعجوبة وليس تصوير هذا المبنى القديم.. تصور أخي الكريم لماذا؟ لأنني كنت لابسة عباية وماسكة الكاميرا.

• علمنا أن زوجك الشـيخ محـمد مبـارك بـاعارمة (رحـمه الله) كان يحـترف فن التصوير، وكذا أولادك من هواة التصوير حدثينا عنهم؟

- نعم، كان زوجي -اللّه يرحمه- يحب التصوير تحت البحر، وله صور جميلة، وابني مالك (اللّه يرحمه) كان مبدعًا

من تصوير المصورة سوزان باعقيل في مؤتمر الحوار بمدريد ٢٠٠٨م

في التصوير، وفاز في مسابقات عدة، وكان يساعدني ويصور معي في وادي دوعن، وله لقطات جميلة، وكذا ابني ساري وابنتي جنة وجهينة اللّه يطول في أعمارهم هم مبدعون في التصوير ومنتجو الأفلام، فهم كما يقال: (ابن الوز عوام).

• هل لك هوايات أخرى؟

- لي هواية الاهتمام بالأزياء التراثية الشعبية، فلدي أزياء من جميع مناطق الجزيرة العربية، وأقيم وأشارك بها في معارض دولية، كما اخترت في لجنة التحكيم في ملتقى الأميرة نوره للأزياء التقليدية المعاصرة بأبها ٢٠٠٨م، واخترت أيضًا في لجنة التحكيم للأزياء الكرنفالية البندقية في إيطاليا Carnevale Di Venezia Italia ٢٠١٩.

• هل يمكنك أن تحددي لنا مشاركاتك في المعارض الإقليمية والدولية لهذا التراث الثقافي الأصيل؟

- نعم تكمن مشاركتي في هذا التراث الأصيل والأزياء في معارض الأزياء التقليدية في أغلب مناطق المملكة، ولي مشاركات في إيطاليا وبريطانيا والهند والبرازيل وبرلين والمغرب وماليزيا وكوريا وإندونيسيا وغيرها من الدول، كما عملت العديد من المعارض الفوتوغرافية الدولية الشخصية عن الإسلام، وصور الحرمين الشريفين، والتراث السعودي، والمرأة السعودية، في دول عدة من أهمها بريطانيا وإيطاليا وألمانيا والنرويج وماليزيا وكوريا والبرازيل والهند والمغرب والكويت ومصر، حيث حصلت أعمالي المعروضة على تقدير كبير ومتابعة عربية وغربية، حيث بيعت أعمالي في مزادات كرستي (CHRISTIE'S of London)، كما أقمت نحو (١٧) معرضًا شخصيًا داخل السعودية وخارجها وشاركت في أكثر من (٩٥) معرضًا جماعيًا على المستوى المحلي والإقليمي والدولي.

• كلمة أخيرة تودين قولها في ختام هذا اللقاء؟

- في الأخير لا يسعني إلا أن أتقدم إليك بالشكر والتقدير لاستضافتي في هذا المنبر الإعلامي الجميل مجلة (حضرموت الثقافية)، وأشكر هيئة تحريرها وأتمنى لهم التوفيق والنجاح في مهامهم الثقافية والأدبية تجاه حضرموت الثقافة والتراث والعلم والمشهود لها بعراقتها وتاريخها منذ فجر الإسلام.

106
العدد (14)
أكتوبر
ديسمبر
2019م

"وانتي قِدش ع تساعفي؟"

د. سعيد الجريري

(2)

جملة استفهامية إنكارية الدلالة في مقطع حواري، باللهجة المحكية، بين الأم البدوية هند وابنتها فطوم، في مقدمة أوبريت أعراس البادية التي كتب أبياتها الشاعر حسين أبوبكر المحضار:

- ايش حيرّش يا فطوم عالبير رُدّي علي؟

- دلوي سقط يا امّاه وطلّعه لي

- من هو؟

- سعيفي!

- وانتي قدش عَ تساعفي؟!

لكن قبل أن أمضي مع فكرة المقال، أجدني ميالاً إلى فذلكة عن بنية الجملة في نسقها اللهجي البدوي، فضمير المخاطبة (أنتِ)، منطوقُهُ لا يَخجل من إثبات الياء بديلاً عن الكسرة في الإملاء العربي، وهو منطوق أليف قريب إلى المنطق، والإحساس بالإحالة على تأنيث جوهري، يستدعي الإشارة إلى ما دعا إليه د. عبدالله الغذامي من رسم إملائي للمخاطب المؤنث يثبت الياء، كما هو، لا كما أراده راسمو الإملاء الرسميون، في مثل: أنتي، وكُنتي، وقُلتي ...إلخ.

وفي الجملة (قد) موصولة بشين المخاطبة بدلاً من كافها، على أن لا صلة لها هنا بدلالة التوقع، أوالتقليل النحوية العربية، فقافها مكسورة، محيلة على معنى الصيرورة، أي إن البنت قد صارت إلى مرحلة جديدة. ثم يبرز الحرف (عَ) مفتوحاً، وهو من خصائص اللهجة الحضرمية في المشقاص - شرقي حضرموت - ودلالته على استمرارية الفعل، على مخالفة دلالية للحرف نفسه، في لهجة أهل صنعاء، الدال على الاستقبال كدلالة السين وسوف في العربية الرسمية. أما ركيزة الجملة فهي الفعل (تساعفي) الذي يُسقط المشاقصة نون رفعه الذي يثبته المعاربة - نسبة إلى معراب حضرموت - تماماً كما في العربية، فيُقال مثلاً، كما في هذه الحال: (تساعفين)، ولهم في ذلك أشباه ونظائر، إذ يُسقطون نون الأفعال الخمسة، بلا ناصب أو جازم، فيقولون مثلاً: يلعبوا، بدلاً من يلعبون، ولهم تلفّظ مقطعيّ خاص (يِلْ - عَ - بُوا)، وفي هذا الأمر تفصيل لا يتسع له المقال، كما يقال.

(2)

هند الأم البدوية تبدي، بقدر خشيتها على ابنتها، بهجةً بتحولات فطوم التي تكشف عن كونها قد غدت مهيّأة للمساعفة، بأن يكون

لها سعيف، والسعيف، هنا، معناه الصاحب الذي تجمعها به علاقة عاطفية، قد تتطور إلى الاقتران، كما كان شائعاً في بادية حضرموت التي لها أعرافها وسوارحها التي تنظم طبيعة الحياة والعلاقات العامة، كما دوّن جزءاً أصيلاً منها الباحث الراحل أ. عبدالقادر محمد الصبان في كتابه "لمحة من حياة البادية"، الذي أثبت فيه ما تقره أعراف البادية من حقوق للمرأة سابقة قوانين الأحوال الشخصية المعاصرة في كثير من البلدان العربية.

فأن تكون البنت فطوم (ع تساعف) فذاك دالّ من دوال كونها صارت ممن يستوقفن ويُوقفن الشبان على رجل واحدة، ما يعني أنها على وشك أن تغدو امرأة ناضجة تكتسب حقوقها، وتكون لها كلمتها، وشخصيتها. ولعل بهجة أمها متأتية من كون ابنتها غدت محبوبة مرغوبة، ولها (شفَها) الخاص، وشغفها بمن يستميل قلبها، على إيقاع خفقات طبيعية تتصادى هارمونياً في المراعي والوديان والشّعاب، حيث تسرح كل يوم، راعية بالأغنام أو جالبة الماء من كريفٍ أو بئر.

ولعل ابتهاج هند البدوية بمساعفة ابنتها مما يذكّر بقصيدة (هند وأمها) لبشارة الخوري (الأخطل الصغير) التي مطلعها: (أتت هند تشكو إلى أمها * فسبحان من جمع النيّرين)، التي تغنى بها الفنان محمد جمعة خان، بما تحويه من سردية حوارية بين الأم وابنتها التي فوجئت بأمارات صباها وتجليات جمالها، فتركتها الأم، من عجبٍ واستعجاب، تسرد إحساسها الجديد المدهش، كأنها تستذكر أيام شبابها الأولى، حتى تساءلت: (فبالله يا أمُّ ماذا ترينْ؟):

فقالت، وقد ضحكت أمُّها
وماست من العُجب في بُردتينْ
عرفتُهُمُ واحداً واحداً
وذقتُ الذي ذقته مرتينْ

(3)

يثير حديث المساعفة شجون الحرية وتكوين الشخصية الواثقة من نفسها في البادية، وما كانت الأعراف تقره من حالة وجودية للمرأة منذ أن تباشر لحظات تحولها الأولى، كحالة فطوم التي استمالها نبل ذلك الفتى وشهامته، إذ أطلع دلوها من البئر، وحادثها حديث الشفافية والمكاشفة، لا المراودة، فصادف حديثه هوى في نفسها وشغفاً، لا شك أنهما كانا يؤججان لهيبهما بلقاءات كالمصادفات (المدبّرة)، كيما يقترب كل منهما من شخصية الآخر، ويتماس مع مزاجه الخاص؛ لذلك كان تتويج ما بينهما باختيار كل منهما شريكه، بحرية توازي حجم الفضاء المفتوح الذي التقيا فيه، على ناصية بئر ودلو وماء وكلام عذب زلال، واتفقا (على كل شيء) كما في الحوار المغنّى.

ولعل من اللافت أن ما حاولت إحدى نساء الحي إثارته من شبهة حولهما، بالوشاية، قوبل بكياسة من الأم، بل إن الشاب قدم أوراق اعتماد عشقه إليها، وكانت هي القاطعة المانعة، ولم تكن الكلمة للأب وحده، ما يدل على ما كان للمرأة في البادية من مكانة، وما لها من سلطة معتد بها اجتماعياً، فلم تقل له مثلاً، على سبيل التوبيخ، ما يدل على أنه استخف بهم؛ فجعلهم (آخر من يعلم). بل قالتها بثقة في مآل ما بينهما:

مادامكم قد توافقتوا على كل شي
البنت باسمك وماجاء من قداك يكفي

حتى ليبدو الأب (الرجل) ههنا آخر من يعلم، فالبنت قد اتفقت مع سعيفها، ثم زكّت الأم اتفاقهما وباركته، ولم يبق إلا أن يُخطر الأب باختيار ابنته من يشاركها الإقبال الجميل على أيام تشبه الطبيعة التي جمعتهما، وليس في ذلك انتقاص لمكانته، بقدر ما فيه من إعلاء حرية الاختيار، ومسؤولية تقرير المصير الفردي، وهو ما كانت البادية نموذجه، لا في الحب والعشق و(الغيار) فقط، ولكن في قيم النخوة، والشهامة، وإكرام الضيف، وإغاثة الملهوف، ما يشكّل قوة الشخصية التي كان ينماز بها البدوي والبدوية على حد سواء، لا لأنهما في البادية، ولكن لأنهما كانا يدرجان في فضاء حر، ويتنقلان من (شنطوب) إلى آخر، بحرية ومسؤولية، ومن يكن حراً في اختياره، يكن مسؤولاً عن نتائج ذلك الاختيار، ومن ثم قويّ الشخصية، حتى أتى حين من الدهر على كثير من سكان الحواضر أنهم كانوا يستغربون فيه أن تستقبلهم المرأة بكل ثقة وتحسن ضيافتهم، إذا ما نزلوا ببيتها ولم يكن في البيت رجل، أو فتى!.

108
العدد (14)
أكتوبر
ديسمبر
2019م

المكلا.. من طرائف شعرها الشعبي

(دعوة الونشات في جمرك المكلا)

المكلا: عاصمة حضرموت وأكبر المدن الحضرمية، وتسمى قديماً بالخيصة، ولم تعرف باسمها الحالي إلا عند إنشاء الإمارة الكسادية التي أسست بدورها المكلا، وزادت شهرتها ومكانتها عندما أصبحت حاضرة السلطنة القعيطية ومقراً لإقامة السلطان(١).

تقع المكلا على ساحل البحر العربي إلى الشرق من عدن، وهي الميناء الرئيس لحضرموت، بل يأتي ميناء المكلا في المرتبة الثانية في الأهمية بعد ميناء عدن في جنوب الجزيرة العربية، وعن طريق هذا الميناء كان التبادل يتم بين حضرموت وعدن والخليج العربي والهند وموانئ البحر الأحمر والصومال وشرق أفريقيا وغيرها من مناطق العالم.

أ.د. محمد بن هاوي باوزير

وفي عهد سلاطين الدولة القعيطية ونظراً لتوسع النشاط التجاري في حضرموت زاد الاهتمام بميناء المكلا القديم (الفرضة)، ومن ثم صار الميناء الرئيس لحضرموت، أي بوصول السلطان عمر بن عوض القعيطي لسدة الحكم عام ١٩٢١م أدخلت بعض الإصلاحات للدولة القعيطية، وبخاصة في مدينة المكلا، فقد أسس جمرك المكلا، وأخضع الميناء لإشرافه بعد أن كان مؤخراً الأسرة (جمعة لا لا) الهندية بمبلغ (١٧٠ ألف ريال سنوياً)(٢) ... وإلى أوائل الستينيات من القرن العشرين كانت عملية إنزال البضائع من السفن في ميناء المكلا (الجمرك) تتم بوساطة (ونش صغير) حمولته طنان ونصف، وعندما ازداد حجم التجارة في حضرموت وميناؤها المكلا كان لا بدَّ على الدولة القعيطية أن تستبدل ذلك الونش، بونش آخر كبير، وقد تم بالفعل استيراده من لندن ليحل محل الونش القديم؛ لأنه لا يستطيع أن يواكب العملية التجارية المتطورة، والونش الجديد المسمى (كول) ينقل حمولة (١٥ طناً)، وقد سار العمل في جمرك المكلا بوساطته.

وبعد مدة وصلت إلى الميناء صفائح خزانات تابعة لشركة (شل)، وهي خزانات البترول الموجودة حالياً في (خلف)، وكان إنزالها إلى الميناء بوساطة الونش أو الرافع الكبير (كول)، وشاءت الأقدار أن اختل توازنه وانقلبت يده الطويلة إلى البحر، وربما كان ذلك بسبب عدم تثبيت قواعد الونش عند تركيبه في أرضية الميناء بشكل محكم، وهو ما أكده المهندس البريطاني (مورس) في تقريره، المهم أن هذا الحادث أثار استغراب عمال جمرك المكلا وموظفيه، ومنهم الموظف بالجمارك الشاعر محمد سعيد بكير؛ حيث كان شاهداً عيان للواقعة، الأمر الذي أثار قريحته الشعرية بقصيدة أراد فيها أن ينصف الونش القديم لخدماته الطويلة في الجمرك دون تعرضه لأي حادث يذكر رغم صغره من حيث الوزن ليؤكد بأنه الأفضل، بل نجد الشاعر بكير يسخر ويتهكم بالونش الكبير الجديد الذي فشل في حمولة صفائح البترول.

وهكذا يروي الشاعر هذه الواقعة بشيء من الطرافة في شكل مساجلة بين الونشين، علماً بأن هذه الواقعة قد أثارت اهتمام كبار رجال الدولة القعيطية والمستشار البريطاني مستر (سنيل) وغيرهم، وها نحن أمام أبيات شعرية وحوار طريف بين الونش الصغير والونش الكبير الجديد القادم من لندن(٣):

الحوار بين الونشين:

الونش الصغير:

ذا فصل والثاني من الونشـــات دعوة مقـــدمة ... المدّعي والمشـــــتكي في الجمرك الونش الصغير
يقـــــول أنا اقـــــدم في الجمرك ويدّي مكرمه ... ولي ملف وأوراق بـيضاء فوقـها شـــهادة مدير
إلا ونا بالزوبـــــعة والنوبـــــعة والدمدمة ... وصرك(٤) قـليل الخير لنته جيت من لندن تسـير
نُصَّك ســـــود والطالعي أصفر ويد مشدبـــه ... من شـاف كبرك قـال يا مكبره ذا الونش الكبـير

الونش الكبير:

نا جيت من لندن من ورشـــة كبـــيرة معظمة ... فيها قواسـم صُفر لا قـد شـفتها عقـلك يطير
فيها اثنا عشر ألف عامل واســـــــعة منظمة ... عشرين عامل يســـكنوا غرفة وغرفة للخبـــير
أنا لقـــوا لي دبـــل دفريشـــن وأربـــع دينمة ... وطوّلوا يدّي وحبـــلي لي لقـــوه ما هو قـــصير
ألفين من طرقـي(٥) وسـط لندن وشي في بـورمه ... لا قـــــــد دخلنا في الجمارك نعكر الدنيا عكير
انت غبر ودويل وحبـــــــالك دويلة ملكّمة ... تفطن على صنقـور والشبيه فرج عبـدالنصي(٦)

الونش الصغير:

جوّب صغير الســن على صاحبـــه مول الهنجمه ... وقـــــال له دلحين بـــــانفك الدفاتر والنظير
وصفك وخرطانك وباســـك والهوى والجهدمه ... تهدر ولا أنت مستحـي بـس فيش يكفي من هدير
قـد جبـتها وحـده كما القـارة كبـيرة معممّه ... نقـلت خمسـة طن وتفلقحـت في هجر الهجير(٧)
مورسـن(٨) وصّوا له طلع ضبحـان نفسـه ملقـمة ... وقـال للهجري عمر(٩) هات حبـل وحـويّه عطير
من شرقـت البـيضاء وهم في مداحشـة ومزاحمة ... تعبت عبـدالله حسـن وسـنيل وتعبـت الوزير(١٠)
والتاليـــة الدّكـــه تقع لي يا عليـــك محرمـــة ... والله تجي لجنة وتعقـــد قبـــل يحصل شيء خطير

الهوامش:

١) السقـاف، عبدالرحـمن بـن عبـيدالله، إدام القـوت في ذكر بـلدان حضرموت، ط١، دار المنهاج، بيروت، ٢٠٠٥م، ص١٠٩-١٢٤.

٢) الجعيدي، عبـدالله سـعيد، الأوضاع الاجتماعية والثقافية والاقـتصادية والسياســـية في حـــضرموت ١٩١٨-١٩٤٨م، ط١، دار الوفاق، عدن، ٢٠١٠م، ص ١٢٥-١٢٧، عكاشة، محـمد عبـدالكريم، قـيام السـلطنة القعيطية والتغلغل الاستعماري في حضرموت ١٩٣٩-١٩١٨م، ط١، دار ابن رشد عمان - الأردن، ١٩٨٥م، ص١٤-١٥.

٣) هذه المعلومات وكذا القـصيدة مأخوذة عن محـفوظات عبـدالله سـعيد بن دحمان، وهو موظف في جمرك المكلا منذ عام ١٩٥٧م، وشـاهد عيان للواقـعة الظريفة التي حـدثت بـين الونشـين، وذلك في أوائل سـتينيات القرن العشـرين، والقـصيدة أيضًا لموظف بـالجمارك وهو من أبـناء مدينة المكلا (الشاعر محمد سعيد بكير).

٤) وصرك: أنت أو لأنك.

٥) من طرقي: من مثلي.

٦) صنقور وعد النصير: من أسماء المعمرين (كبار السن) في البلدة.

٧) تفلقحت: سقطت في عز النهار.

٨) مورسين: إنجليزي مدير ورشة المكلا الهندسية.

٩) مر الهجري: مسئول العمال بميناء المكلا.

١٠) عبـدالله حسـن: نائب مدير الورشـة، وسـنيل: المستشـار البـريطاني، والوزير حينها (جان خان).

110
العدد (14)
أكتوبر
ديسمبر
2019م

قصة قصيرة

النخلة العجوز

مروة فرج الكلالي

(هذه الأرض لا تنتهي مشاغلها هذه الأرض لا تموت، لا يكاد نبعها يجف حتى تزوّدُها السماء بمدرارٍ مضاعف).

هكذا كان الصبي عمر ذو الثانية عشرة يتذمّرُ من أشغال جدّهِ اللامنتهية، ولولا أنّ المدرسة تطالب بمستحقاتها صباحًا لكان اليوم بأكمله من نصيب معشوقة الجد.

كانت تلك السنة عصيبة جدًا على الأرض إذْ تأخر هطول المطر وبدأ الجفاف يتأهب للانقضاض على المحاصيل، وقد بدأ بعروق الجد سالم على ما بدا فيها من انكماش، فقد كان يبذل جهدًا عسيرًا حتى تصل المياه إلى أرضهِ المترامية عند حدود النهايات لتلك المساحة الشاسعة من الأرض، فتراه نهاية كل أسبوع يستلطف المياه الشحيحة؛ يبتغي عطاءً، يمهّدُ لها الجدول ترويضًا. كل قطرة تختلسها الأرض تُؤخذ من دمه، فيضيف إليها من جبينهِ بديلًا. وفي الوقت الذي يصبح انحناء ظهره واضحًا، يتقمص دورًا آخر يتمثّلُ في توزيع الحياة على الرعيّة كلًا بحسب حاجته، متيقنًا أن كل عرق ارتوى وكل ورقة أخذت من المياه نصيبًا يكفيها لتستعيد نضارتها ويستقيم اعوجاج كل غصن في تناسقٍ يعيد إليه استقامة ظهرهِ من جديد.

(الأرض تحبك بقدر ما تهبها من حب) قال ذلك الجد لحفيدهِ بعد صمتٍ طويل كان فيه منشغلًا بمصافحة المحاصيل، ثم أتى ليستظل بجانب عمر الذي يجلس تحت نخلتهِ، واستطرد في الدرس قائلًا: غير أنّ لسان الأرض أشد فصاحة لتظهر عجزك عن التعبير أمام خيرها الوفير. انظر يا بني ألست ممتنًا لهذه النخلة التي تحتضنك بظلها كل يوم، ثم تهبك قبلة في ثمرة حلوة تلقيها فوق رأسك بكل لطف. أنا أعلم أنك تكن الكثير لهذه النخلة فقد غرستها في اليوم الذي وضعتك أمك وأسميتها باسمك لتنمو جذوركما معًا، ويكون لك ارتباط وثيق بهذه الأرض. ستحب الأرض يا عمر كما يحبها جدّك وربما أكثر، فأنا أعرف جيدًا الطين جئت منها كما أعرف طبيعة كل حبة رملٍ في أرضي.

وهنا أفصح عمر عن سر تذمره في ذلك اليوم قائلًا: أنت تزرع الخضروات والبرسيم يا جدي لما لا تزرع التبغ فجارنا محسون يدرُّ عليه التبغ الكثير من المال، وقد أسبغ على عائلته خيرًا لا يُعد، وأنت يا جدي تنهك نفسك دون مردود يُذكر. أدار الجد سالم صوت المذياع عاليًا في تلك اللحظة التي بلغت الساعة رأس العاشرة صباحًا، وهو موعد نشرة الأخبار، التي يتخذها الجد فسحة استراحة من العمل، بينما ظل عمر ينتظرُ الإجابة في هدوء، فقد اعتاد تريث جدّه الذي يبعث بالجواب بعد أن ينسى السائل صيغة سؤاله، ولكن مذيعة الأخبار هي من أجابت عمر هذه المرة إذ كانت تذيع خبرًا عن: (ارتفاع نسب المصابين بسرطان الرئة عن أعوام خلت نتيجة التدخين).

كان الجد يختلس النظرات إلى حفيده ليتأكد أن الرسالة تسري في عقله بالمراد، وهذا ما تم فعلًا إذ ظهر الأسى واضحًا على وجهه حينئذ، فاطمئن الجد لسلامة الفطرة في قلب عمر وأراد أن يرويها قائلًا: هل بإمكانك أن تتخيل جدك قاتلًا يا عمر؟!

ذُعر عمر لسؤال جدّه المباغت وانتفض من مكانه قبل أن يجيب: محالٌ يا جدي.. أنت الذي تأسف لذبول أغصانك لا يسكن قلبك سوى الحب، لا يمكنني تخيلك إلا صيبًا

نافعًا، وليشهد التراب على رفقك حين تحرثه، وفي كفك الأعشاب تضحك، وتلوّح لك كل ورقة في الحقل حين تمر ويمر إثرك العليل.. أنت يا جدي جليل لست بقاتل. تهللت أسارير الجد بابتسامة يحفظ عمر تفاصيلها، فقد كان يعشق التجاعيد حول عيني جدّه حين يضحك، وفي ذلك تشابه بليغ مع تجاعيد الأرض بعد أن يخطها المحراث، وكان هذا الجزء من مراحل العمل هو الأحب لقلب عمر إذا تتهيأ له الأرض كصفحة بيضاء يخطُّ عليها تلك الأشكال الهندسية المنحنية، التي يرى فيها الوجه الأليف لمادة الرياضيات التي تعيق تقدمه الدراسي.

أتعلم يا جدي - قال عمر: أظنني لا أحتاج إلى المدرسة. ودون أن يلقي بالًا لردة فعل جدّه أكمل قائلًا: في أرضك أدرس كل المواد التي أدرسها في المدرسة، فأجد هنا في تفكري وتأملي المواد الدينية، وفي تكوين الأرض مادة العلوم أفهمها هنا بشكل أوضح، وسبق أن أخبرتك عن الهندسة ورأيت مهاراتي في الحساب حين أبيع لكَ الخضروات يوم الجمعة، ويتكفل المذياع المعلق في شجرته ببث شعارات الوطنية التي نتشربها هناك.. وأنا كما تعلم يا جدي لا أحب السياسة، ويكفيني من الأمر أن أعرف حدودي الجغرافية، وهذه الأرض هي حدودي بما فيها قلبك حيث أتعلم مفردات الحب والبساطة، وذلك زاد يكفيني من اللغة ما حييت. عقلك التاريخ يا جدي فأنا أستوعب الحياة من تجاربك فلستُ إلا فرعًا من أغصانك.

كان الجد يصغي إلى عمر وعلى وجهه لوحة الحب جليّة تجاري شمس ذلك اليوم، وفي صدره العتيق قلبٌ يرفرف للصغير بقوةٍ تحرك الهواء البارد تجاه وجه عمر لتجفف عرق البوح، ثم نهض فجأة وذهب حيث شجرة الأراك يفتّش عن سرّه المدفون في أدغالها، وعاد يجرُّ حقيبة مدرسية هي حقيبته وضعها أمامه قبالة جدّه، وأخذ يخرج الكتاب تلو الآخر حتى أفرغ الحقيبة.. ثم قال في وداعة: ينقصها كتاب واحد حتى تكتمل ولكني أدرك للأسف أن هذا الكتاب لا تسعهُ حقيبة وددتُ لو كانت الحياة في كتاب يا جدي.. سيكون من السهل فهمها، ولكن لحسن الحظ أيضًا أنها لم تكن كذلك فثقل حقيبتي لا يحتمل ورقة إضافية، ولو حملت الحياة لقصمت ظهري!

أنت قويٌ يا جدي وجلّ أمانيّ أن أكون أنت ذات يوم، أحمل الحياة بظهر ثابت لذا سأتخلى عن الجزء الأول من النهار لأتعلم منك فلا حاجة لي بمدرسة لا تعلمني الحياة.

كان عمر يتكلم بثقة تفوق سنّه ومما زاد ثقته إنصات جدّه له في اهتمام إذْ كان خيرُ من ينصت، ولم يكن الجد يستغرب من بلاغة عمر إذْ كانت ذاكرته تلقي أمام عينيه صورة قديمة تطابق هذه التي يراها في تلك اللحظة، ولأن الأمور يجب أن تناقش حسب أولويتها، تجاهل الجدُّ الحنين وسحب ورقة الحاضر، وقال: خبرتي في الحياة محصورة في أرضي بكل تفاصيلها بدءًا من شجرة الرمان تلك إلى الشجرة التي يقطنها المذياع، أحيا في علاقة مع الطبيعة، أزرع حين تأذن النجوم، وأصلي حين ينحني ظل أغصاني، وأقل ما يمكن أن يقدمه مثلي للعالم هو أن يساهم ببذر عنصر يسعى للسلام، عنصر من شأنهِ أن ينقص عدد البؤساء في هذا العالم، جدّك يا بني يعشق الأرض بما فيها أنت كأثمن بذرة أمتلكها.. وأشعر بالرضا حين أراك تزهرُ كل يوم بخلقٍ أتأملهُ فيك أريدك أن تبلغ من الكمال ما يمكن لبشر أن يبلغ، وتسلك فضاءات لم يدركها جدك الأمي، وإن أقصى ما يتمناه المحب لمن يحب أن يراه في حالٍ أفضل.. وهذا ما أرجوه لك يا بني.

نعم أراني فيك ولكني لستُ إلا نصفًا، دعني أراني فيك مكتملًا يا عمر. فخذ من الأرض مبادئ الإنسانية، وخذ من الجانب الآخر ما يعينك على توظيف هذه المبادئ بشكل واع..

قطع حديث الجد وإصغاء عمر صوت ارتطام سحيق خُيّل للجد أنها الصرخة الأخيرة لنخلة عجوز تخلّص منها السيد محسون كعادته.. فنهضَ الاثنان للتحقق من الأمر، ولم يكن الأمرُ إلا كذلك! فقد كان السيد محسون منهمكًا في تحطيب النخلة وتوزيع أجزائها، وحينما انتبه لقدومهم حياهم بإحدى يديه محتفظًا بالأخرى غائرةً في رأس النخلة.. السيد محسون لطيفٌ جدًا غير أنه يعشق اغتيال النخيل لأغراض خاصة، وهذا الفعل يشمئز منه الجد سالم الذي يدمن زراعة النخلة.. ولم يكن ليسعده أن يرى عمر مشهد الأرض وهي مليئة بالضحايا بشكل يثير التساؤلات في عقل الصغير دون أن يجسر العجوز على الإجابة لعلمه أن بعض الإجابات تنقض أخرى، فتدارك الجد الموقف ورد تحية جاره على عجل ليعود أدراجه إلى حيث من المفترض أن يلحق به عمر. مشى الجدُّ بضع خطوات مهرولًا دون أن يلتفت حتى بلغ الساقية، هزّهُ صوت عمر على بعد خطوات جالسًا فوق صخرة كبيرة تنام فوقها نخلة مكسورة الجذع: جديييي

من كسر ظهر العروبة يا جدي؟

* انتهت

نوافذ حضرمية على شجر في الطريق

نصوص قصيرة جدًّا

صالح سعيد بحرق

نداءات

شيئًا فشيئًا. كلما امتلكه ذلك الدرب يشعر للتو بنداءات ملحة تنهمر من الماضي.. تفضح توقـــــه للطريق الجديدة وتعيد إليه حفاوة افتقدها.. كانت تأتيه من حقول الكدح والمغامرة والحب..

الآن هو يسير وحيدًا.. تتشاغب في داخله تلك الأمنيات البعيدة.. وتحيله إلى ذات تائهة في درب مخاتل..

مجادلة

إنك لا تحبني..

هكذا قالت له..

وانقادت إلى جحيم أيامها..

تركته وحيدًا على لظى التذكار.. وراحت تغزل حكاياتها الجديدة..

سماء

يشع منها قبس كلما دنا منها..

يهامسه بمشادات الأمس القريب بينهما.. تتفتح له انهمارات العتاب.. والشغف..

تتناسل بينهما فصول الحب

ويستظلان تحت سماء جديدة

وردة

لم تزل تحتفظ برائحتها رغم الهجران.. تجلس على الأريكة تنظر إلى صورته على الجدار.. كيف لبى نداء الوطن وتركها.

ترك وصيته ومسبحته وترك لها كتابًا لم يتمه.. تصفحته ذات ليلة.. الكلمات تخرج منه لترتد إليها.. الســـــطور تغادر أمكنتها لتسكن فيها..

تساءلت: كل الحب وأنا لا أدري؟؟

شجرة سدر

يهرب من لفح النهار إليها.. يغادر ساحة اللعب مع رفقته، ويهوي بأفئدته إليها..

يقف أمامها.. أمام روحها.. قوتها.. صبرها.. وشموخها..

يرى بلاده في فروعها الطويلة، التي تخطف أشعة الشمس..

فيحكي لها بشجنه.. يحكي لها بألمه.. والطريق البعيدة..

الغويزي

قال شاعر: إنه شامخ في اللاتناهي.. بعيد مهبط الحلم.. وغارق في فصول الدهشة والحكايا الفريدة.. يمنح القصيدة من مناخاته توقًا إلى الرغبة.. والأسفار.. ويكره الوصايا.. ولغط القبيلة.. جانحًا إلى البراءة الأولى للأشياء.. سالكًا دومًا.. درب الحبيبة..

113
العدد (14)
أكتوبر
ديسمبر
2019م

أمجادٌ حضرمية

نادر سعد العُمَري

سَفَرتْ بـــعدَما طَوَتْهَا قـــرونُ ... وتجَلَّـــتْ مَبَاهِـــجٌ وفُتُـــونُ
وأضاءتْ دَيجُورَ ماضٍ تَلاَشَـــى ... غَيَّبَتْهُ حـــــوادثٌ ومَنُونُ
فلهـا مـن فضائـلِ الدهـرِ إرثٌ ... وعليها لكلِّ عصرٍ شـــؤونُ
ذكريـاتٌ عـمَّن مَضَوا وأريـجٌ ... حَضرَمِيٌّ... وللحـديث شُجُونُ
في رحـابٍ من القداسـة أوحـتْ ... فتَجَلَّى خَبـــيئُها المكنونُ
شَهِدَتْ كـــلُّ ذرةٍ في وِهَادٍ ... ونُجُود.. فللجـــماد عُيـــونُ
فتكـادُ الرمـالُ تحكـي عهـوداً ... لأُنـاسٍ كأنهَّـمْ لم يكونـوا !
إيه يا قـــارئَ التواريخِ هذي الـ ... أرضُ فيهـا تاريخُنـا مَرْهـونُ
ســـائلِ الدهرَ عن صناديد عاد ... في ربـوعِ الأحقـاف مجدٌ مكينُ
مُلْكُ عزٍّ.. وقـــوةٌ لا تُضاهَى ... وقـــصورٌ وجَنَّةٌ وعيونُ
...هودُ فيهمْ يرتِّلُ الوَحْيَ صِـرْفًا ... وعليهمْ بـــربِّه يســـتعينُ
وكأنيِّ بـــه وقـــد هلَكَ القَوْ ... مُ نَجـــيًّا.. وخَلْفَهُ هـــادُوْنُ
ثم تُطوى القـرونُ في غَيْهَبِ الدَّهْـ ... ـرِ فهيهـــاتَ ما طَوَتْـــهُ يَبِيْنُ
أيـــنَ أمجـــادُ يَشْجُبٍ وبَنِيْه؟ ... أينَ قحـطانُ والقُرى والحُصونُ؟
أينَ تلكَ الملـوكُ مـن حَضرَمَوْت؟ ... وكـــأنْ لَمْ تَسِلْ بِشَبْوَةَ عَينُ
في ربوعِ الأحقاف سادوا وشادوا ... ثم بـــادُوا.. لكنَّهمْ لم يهُونُوا
أينَ ســـاداتُ كِنْدَةَ العزِّ؟ هل ما ... زالَ يحكـــي ذِكْراهُمُ دَمُّونُ؟
هل سألتمْ شِبَامَ عنهمْ وسيْفَ الشِّحْـ ... ـرِ أمْ قد نَسَتْهُـمُ سَيْـؤُوْنُ؟
وتَرِيْـمُ الغَنَّـاءُ... لله عَهْـدٌ ... في رُبُـــاها.. سَقَاكِ غَيْثٌ هَتُوْنُ
كلُّ شِعْبٍ فيها وحـــائط نخلٍ ... فيـــه سرٌّ للعارفيـــنَ مَصُوْنُ
وامـــرؤُ القَيْسِ لم يَزَلْ في قَوَافٍ ... خالدات.. وبـــأسُهُ والمُجُوْنُ
وابـنُ قَيْسٍ.. ووائلُ القَيْلُ.. قـومٌ ... ســـادةٌ قـادةٌ... فقفْ يا كَوْنُ!
ورَعَيـلٌ من الهُـداة هنـا كانـوا ... هَوَاهُمْ في الأرضِ عَدْلٌ ودِيْنُ
هاهُنا آلُ راشـــــد ذاتَ يومٍ ... كـان فيهـمْ للنـاسِ غَوْثٌ وعَوْنُ
وفقيـــهٌ مُقَـــدَّمٌ حَطَّمَ السَّيْـ ... ـفَ وأرسى السـلامَ وهو الأمينُ
وابـــنُ عَبَّاد والكَثِيريُّ والشـــيـ ... ـخُ العَمُوْدِيْ سَمَتْ به قَيْـدُوْنُ
والذينَ من بـــعدهمْ أهلُ فَضْلٍ ... نَشرُ مسْكٍ وإنْ طَوَتْهُمْ قُرُوْنُ
حملوا الحقَّ في البحـارِ فأضحـتْ ... لهُمُ الأرضُ بـــالجميلِ تَدِيْنُ
إنْ دعـا في مِحْرابِـه حَضرَمِـيٌّ ... هَتَـفَ الدهـرُ كُلُّهُ: آمِـيْنُ

توقيع قلم

(إمّن الحضرمي على مالك ...)

ذات يوم بغدادي تحاورت مع زميل دراسة عن موضوع البخل وما يوسم به أهل بعض المدن والمناطق العربية، وأوردنا نماذج، وكان ذلك الحوار مدخلًا مناسبًا ليسألني صديقي على استحياء، ومن باب الطرافة والتحقق عن مدى صدق ما يشاع عن بخل الحضارمة ولأنني متوقع طرحه رددت عليه -من باب تلطيف الجو- بنكتة منسوبة للحضارمة ولغيرهم عن البخل وبعيدًا عن حلاوة النكتة أو مرارتها، فكانت سعادة زميلي بروح النكتة وتسامحها أكثر من النكتة ذاتها.

وفي مناسبة مقابلة كتبت مقالًا نشر على مواقع التواصل الاجتماعي فندت هذه التهمة عن الحضارمة وتمترست معهم مدافعًا ومنافحًا ومع هذا ولأن المقال تضمن إشارة على شكل طرفة لما ينسب عنهم من (الحرص القوي) وصلتني من أصدقاء رسائل عتاب بعضها شديد القوة صوّرت الأمر كأنه نوع من الخيانة الوطنية العظمى.

وحقيقة الأمر يضع الكثير من الحضارمة صورة نمطية ثابتة عن شخصيتهم العامة ويعدون المساس ببعضها مساسًا بكل الذوات الحضرمية، ونحن نقول كما يقول أجدادنا: (كل طعام بغشرها)، بمعنى لا يخلو كل مجتمع من وجود السلبي والفاسد وغير المهم، وإذا افتخر الحضارمة ببصمات سلوكية معينة أصيلة مغروسة في الوجدان الجمعي، فإنهم في الآن ذاته لهم عيوب لا يمكن نكرانها ولا بد من الإشارة إليها لمن تصدى بالدرس العلمي للشخصية الحضرمية (وكفى بالمرء نبلًا أن تعد معايبه).

والحديث عن الصفات الإيجابية عند الحضارمة من رجل منهم ربما سيعطي الآخرين الحق في الجرح، ومع هذا سندلو بدلونا بموضوعية من خلال نص المثل وتداعياته الذي يقول: (إمن الحضرمي على مالك ولا تأمنه على عيالك)، ولن نخوض مع الخائضين المبالغين (مدحًا وذمًا)، وبداية تقتضي الأمانة الإشارة إلى أن صفة الأمانة من أشهر ما يشتهر بها الحضارمة لا سيما في بلادهم وفي مواطن مهاجرهم، وصارت هذه الميزة وما تزال مدخلًا قويًا لتقدمهم في الأعمال التجارية واكتساب الحظوة عند أهل تلك البلدان، وفي رأينا أن المثل أعلاه يعد نصًا مهجريًا عربيًا بامتياز، فقد كانت الصناديق المالية في المؤسسات التجارية في معظم بلدان شبه الجزيرة العربية يفضل إسنادها إلى الموظف الحضرمي.

وحمل نص المثل في ظاهره نصيحة مغلفة بالمدح من طرف إلى الآخر المستمع. وفي باطنه تهمة واتهام، والتساؤل الذي يطرح نفسه هل الأمين يخون؟ وهل لرجل من قلبين في جوفه؟ الوقفات المتأنية ستساعد على فهم تداخلات النص وتناقضه بين المدح والقدح وستبين أن هناك مساحة خفية بين ظاهره وباطنه قد ينظر لها بأكثر من زاوية نظر، فمن وجهة النظر الحضرمية يرون الكفة لصالح وضعهم في خانة المدح، وأن القدح ما هو إلا صيغة مبالغة لتأكيد ما قبلها، وأن أصل النص (المثل) الإشارة إلى صفة الأمانة أكثر منه التحذير من تهمة خيانة الشرف. وفي سياق مقارب يطلق العرب أحيانًا لفظة (الخبيث) أو (الماكر) على سبيل المدح لمن مكر مكرًا حسنًا لهدف نبيل بمواجهة مكر ماكرين.

أما وجهة النظر الأخرى في المثل فربما سترى أن بعض الحضارمة قد يجمع بين الأمانة وشبهة الخيانة، ولأن تهمة المال (الصناديق) يسهل فيها تأكيد الإدانة أو إثبات البراءة من خلال مراجعة الحسابات فإن (أمانة) الشرف تهمة يصعب تأكيدها، كما أن صاحب الصندوق ليس المتهم الوحيد فيها، ولهذا أطلقنا عليها شبهة الخيانة ويبدو لنا أن نصيحة التحذير من وجهة النظر هذه هي الكفة الغالبة وليس الأمانة بمعناها النبيل الذي لا يقبل الانقسام لأن ما بعدها محاذير خطيرة تتطلب شاهدًا وشهيدًا.

إن الأمانة أو الشجاعة أو المروءة وغيرها من الصفات النبيلة، هي قيم تكتسب غالبًا بالتربية المجتمعية، وليست متلازمات خاصة بهذا المجتمع أو ذاك، بل هي سلوكيات يشترك فيها الناس بنسب متفاوتة وتواجه هذه القيم الكثير من التحديات مع تغير الأحوال. في (عصر القات) الدخيل على حضرموت اهتزت الكثير من القيم ومنها (الأمانة)، وظهر صنف سلبي من الحضارمة متعاط لشجرة القات الخبيثة (المخزن)، وكثير من هؤلاء تحوم عليهم شبهات الكسب الحرام، وبعضهم فاسد بيّن فساده، وقليل منهم يلجأ بكيفيات متنوعة إلى رذيلة التسول، وفي وسط هذه البؤرة غير الرشيدة يحق لنا إعادة صياغة المثل بحيث يكون (لا تأمن المخزن على مالك ولا على عيالك ولا على بلادك).

أ. د. عبدالله سعيد بن جسّار الجعيدي

لوحة للفنانة التشكيلية
عبير الحضرمي

مركز حضرموت للدراسات التاريخية والتوثيق والنشر

Hadhramaut Centre for Historical Studies
Documentation and Publication.

من إصدارات المركز